

يوليوس قيصر

حياة أسطورية ونهاية مأساوية

Ahmed Mady

د. الحسيني الحسيني معدّى

O'ΥΛΙΟΣ ΚΑ'ΙΣΑΡ

مكتبتنا
كنوز من المعرفة



24/1/2012

يوليوس قيصر

يوليوس قيصر هو القائد العسكري والزعيم السياسي الروماني الشهير. كان أول شخصية سياسية هامة اكتشفت أن النظام الديمقراطي في روما لم يعد صالحاً لمواجهة الفوضى في البلاد، وأن الحكم قد تجاوز مرحلة الأمان، ولذلك فلا يمكن إنقاذ شيء في فترة شديدة الاضطراب السياسي والاجتماعي. يعتبر واحداً من أشجع الساسة، ومن أكثرهم موهبة أيضاً، وكان سياسياً ناجحاً، وقائداً مبهراً، وخطيباً بليغاً وكاتباً بيِّناً. وقد انتقده الكثيرون لحبه المفرط للسلطة، ولاستخدامه نفوذه للإثراء غير المشروع، ولأنه في القتال لا يعرف الرحمة ولا أخلاقيات له؛ فقد كان يبالغ كثيراً في قيمة الخسائر التي ألحقها بمعارضيه وأعدائه.

فالأثر الذي تركه يوليوس قيصر في التاريخ هو انتصاره على قبائل الغال لأنها أعطت لإيطاليا قروناً من الأمان، وكان أحد العناصر الهامة التي أمنت الإمبراطورية الرومانية كلها. وكذلك قيامه بالإصلاح السياسي والاقتصادي في روما، وتعديله للتقويم السنوي والذي بقى حتى يومنا بعد ما أدخل عليه تعديلات طفيفة. وكانت شهرته بسبب غرامياته وحبه لكليوباترا.

ومن أجل هذا اتخذ يوليوس قيصر مكانة رفيعة بين الخالدين. عبرة من عبر التاريخ نقدمها ثقافة تتجدد للقارئ العربي الشادي إلى الثقافة التاريخية والمعرفة الشاملة.

W.Salama 010 15 17 873




I.S.B.N. 978-977-376-532-0
9 789773 765323



يوليوس قيصر

رجلُ كلَّ العصورِ

حياةٌ أُسطوريةٌ ونهايةٌ مأساويةَ

◆

د. الحسينى الحسينى معدّى

◆

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

تقديم

أشهر رجال الرومان، بل يعتبر بنظر العديد من المؤرخين واحدًا من بين عظماء التاريخ الذين أثّروا فى حياة مجتمعاتهم.

قائد عسكرى وسياسى رفيع المستوى، كاتب وخطيب مميز ذو إرادة قوية وشجاعة كبيرة.

من مواليد روما ١٥ يوليو / تموز ١٠٢ ق. م، ينتمى لعائلة أرستقراطية ادعت جذورها للبطل الأسطورى إينياس ابن الآلهة.

مع بداية القرن السابق على الميلاد، وبعد هزيمة قرطاجة على يد الرومان، تمكن الرومانيون من بسط سلطتهم الواسعة على أجزاء كبيرة من هذا العالم، حتى أضحى البحر المتوسط بكامله مناطق نفوذ وهيمنة لروما.

ومع كل ما سببته هذه الفتوحات من ثراء وإغناء لموارد روما، إلا أنها بالمقابل، انعكست سلباً على الحياة الاقتصادية والسياسية، إذ لم يعد بمقدور الساسة الرومان حكم هذه الإمبراطورية الواسعة، ما جعل الحكم فى حينه يغرق فى سوء الإدارة للدولة، وأدى لتفشى الفساد الاقتصادى والاجتماعى والسياسى.

فى أجواء هذا التخبط السياسى شق يوليوس قيصر طريقه إلى الشهرة والمجد، وانخرط وهو ما زال شابّاً فى الحياة السياسية والعسكرية فى روما، واختار حزب الشعب منذ نشأته، ومع بلوغه سن الأربعين كان معيناً حاكماً لثلاث ولايات ترزح تحت نير الحكم الرومانى، وبقيادته جيش مكون من أكثر من ثلاثين ألف رجل.

بين عامى ٥٨ ـ ٥١ ق. م اجتاحت جيوشه، رغم قلتها، أوروبا الغربية،

واستطاع بحنكته السياسية والعسكرية أن يتغلب على القبائل الغالية التى كانت تقطن تلك المناطق، ويمد سلطة الإمبراطورية الرومانية لتصل لأراضى حوض الراين.

انتصاراته الواسعة لم تخفف من استشراء الفساد الاجتماعى والسياسى لدى المجتمع الرومانى، والذى بدأت معه الجمهوريات والمقاطعات الحليفة تتمرد على السلطة المركزية وتهدد بالانفصال.

قرر قيصر فى العام ٦٠ ق.م أن يدخل حلبة السلطة والإمساك بالحكم، فتوجه إلى روما على رأس جيشه ليحصد الألقاب والجوائز له ولجيشه القوى المخلص للإمبراطورية، لكن المفاجأة كانت فى طلب مجلس الشيوخ أن يدخل روما منفرداً، بعد تسريح جيشه الذى أضحى خطراً على الطامحين للاستيلاء على الحكم.

قاوم يوليوس قيصر هذا الطلب، ومع التفاف جيشه حوله دخل مدينة روما فاتحاً بعد أن هزم جيوش المعارضة له على أبواب المدينة، ومع مطلع عام ٤٥ ق. م أضحى يوليوس قيصر زعيماً ملهماً للإمبراطورية الرومانية بأسرها، بعد هزيمته جيوش بومباى الذى انفرد بالحكم نتيجة لانشغال قيصر فى فتوحاته، والذى كان قد شكل مع قيصر وكراسس ثالوثاً سابقاً لحكم روما، وأصبح بهذه الطريقة يوليوس قيصر قنصلاً عام ٥٩ ق. م.

احتكر يوليوس قيصر السلطة بشكل كامل وانتخب حاكماً للإمبراطورية، ثم إمبراطوراً مطلق الصلاحية لمدة عام، ثم لمدة عشرة أعوام، ثم لمدى الحياة. رغم الفترة القصيرة لاستقراره بروما قام بالكثير من الإصلاحات السياسية والاجتماعية وأهمها :

١ ـ فرض السلطة المركزية القوية على كل أجزاء الامبراطورية.

٢ - وضع تصميماً موحداً لكل المقاطعات الرومانية.

٣ - دعم طبقة الفقراء فى المجتمع الرومانى ومقاطعاته بتوزيع حبوب القمح عليهم مجاناً.

٤ - وضع التقويم الرومانى.

٥ - توسيع مجلس الشيوخ الحاكم بضم ممثلين عن القطاعات المحتلة.

٦ - وضع شرائع قانونية تحدد العلاقات ضمن المجتمع الرومانى.

٧ - وضع براج عمرانية وإنشائية واسعة وخلق نظام الإدارة المحلية فى المدن.

كل هذه الإنجازات، مع مواهبه الخطابية والسياسية والعسكرية، وبعده عن الحقد والضغينة وتعامله المتسامح مع أعدائه، جعل منه الأشهر فى التاريخ، مما حدا بكل الأباطرة من بعده إلى التمسك بلقب " قيصر" والتوسع فى هذه التسمية، لتشمل العديد من أباطرة وملوك العالم.

فى العام ٤٤ ق.م جهز جيشاً جراراً لصد الهجمات التى كانت تهدد الإمبراطورية فى الشرق. وفى أثناء دعوة مجلس الشيوخ للاجتماع برئاسته لمناقشة هذه التهديدات، توجه صوبه العديد من هؤلاء الشيوخ لأخذ بركته كالعادة، وغرسوا فى جسده خناجرهم.. خر يوليوس قيصر صريعاً، وهو يتطلع إلى صديق عمره (بروتس) الذى اشترك مع القتلة، ليقول له كلمته المشهورة:

(حتى أنت يا بروتس) !!

تلك كانت نهاية قيصر، أما قصة حياته كاملة من بدايتها، فقد كانت مليئة بالمواقف الحربية، والسياسية، والعاطفية، والإنسانية، وإن حياته لتصور لنا فى سردها حياة المجتمع الرومانى فى عصره الذهبى، وحياة الصراع بين الديمقراطية والأرستقراطية، كما تصور الفساد وانهيار القيم الخلقية والكفاح بين الخير والشر فى ذلك المجتمع.

وأتركك عزيزى القارئ لتطالع سيرة يوليوس قيصر، وحياته، وأعماله.. فهو ليس شخصية تاريخية صنعت التاريخ فحسب، بل هو أيضا رجل كل العصور.. شغل المؤرخين قديماً، وحديثاً، ولا يزال يشغل أذهان الكُتَّاب، والمفكرين، والسياسيين، ما دامت فى أعمارهم بقية !!

د. الحسينى الحسينى معدّى

■■■



مدينة روما القديمة

يقولون فى المثل القديم " كل الطرق تؤدى إلى روما "، ولا يمكن أن يُذكر يوليوس قيصر فى التاريخ، دون ذكر روما، فباسمها حكم قيصر وقاتل، وباسمها قُتل، وباسمها تنازع خلفاؤه تركته.. فإذا أردنا أن نفهم حياة قيصر، لابد أن نبدأ بروما.. إذ لا معنى لقيصر بدون روما، ولولا روما ما كان قيصر..

بدايات روما :

لا يعرف المؤرخون عن الأيام الأولى لروما القديمة إلا القليل. وطبقًا للأسطورة الرومانية، قام أخوان توأمان، هما رومولوس وريموس، بتأسيس مستوطنة، سنة ٧٥٣ ق.م، على تل البالاتين وهو أحد تلال روما المطلة على نهر التيبر. وتروى الأسطورة الإغريقية أن البطل الطروادى إينياس هو الذى أسس مستوطنة فى إيطاليا الوسطى، وذلك بعد أن دمر الإغريق طروادة فى الحرب الطروادية. وتجمع بعض الروايات الأسطورتين، الرومانية والإغريقية، حول تأسيس روما، بحيث تجعل رومولوس وريموس منحدرين من صُلب إينياس.

وعموما يمكن أن نقول إن روما بدأت فى النشأة عندما استوطنت جماعة صغيرة من الرعاة فى وسط إيطاليا، مؤسسين المدينة التى نمت مع الزمن، وصارت عاصمة لواحدة من الإمبراطوريات الكبرى فى التاريخ ثم انهارت..

عاش أوائل المستوطنين الرومان المعروفين فى روما القديمة على تلِّ البالاتين، نحو سنة ١٠٠٠ ق. م، ويعتقد معظم المؤرخين أن هؤلاء المستوطنين

كانوا شعبًا عرف باسم اللاتين. وسكن هؤلاء (اللاتين) فى عدد كبير من المدن المتجاورة فى لاتيوم، وهى المنطقة المحيطة بمدينة روما. وحكم سلسلة من الملوك اللاتين روما.

وقعت روما والمدن الأخرى فى لاتيوم، نحو سنة ٦٠٠ ق. م، تحت سيطرة الأترسكانيين، وهم شعب عاش فى شمالى منطقة لاتيوم. وكان الأترسكانيون أصحاب أكبر حضارة متقدمة فى إيطاليا. فقد بنوا طرقًا ومعابد ومبانيَ عامة فى روما. كما أنهم طوّروا التجارة وأدخلوا فكرة المجالس الشعبية. وتطورت روما، فى ظل حكم الإترسكانيين، من قرية مزارعين ورعاة إلى مدينة مزدهرة. وأصبحت المدينة على درجة من القوة إلى حد مكّن أهلها من طرد الأترسكانيين.

الجمهورية الأولى:

تأسست الجمهورية الرومانية بعد سقوط المَلَكِيّة فى سنة ٥٠٩ ق.م. ولكن مؤسسات الحكومة الجمهورية تطورت تدريجيا عبر صراع طويل بين الطبقة العليا من ملاك الأراضى، وبين المواطنين الآخرين كافة، أى طبقة العامة. وكان الأشراف هم وحدهم الذين تولوا، فى البداية، الوظائف السياسية، وخدموا ككهنة، وفسروا القانون الرومانى. فى حين لم يكن للعامة إلا حقوق سياسية ضئيلة، وغالبًا ما عاملهم القضاة معاملة مجحفة.

ناضل العامة، خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، من أجل الحصول على حقوق سياسية. وكسبوا، نحو سنة ٢٨٧ ق. م، حق تولى أى منصب عام أو دينى، وحازوا المساواة فى ظل القانون. ولكن فروقًا واسعة، فى الثروة والمكانة الاجتماعية، ظلت تفصل معظم العامة عن الأشراف.

وكانت روما، خلال ذلك الوقت، تحقق شيئًا فشيئًا هيمنة عسكرية على بقية شبه الجزيرة الإيطالية. ودخلت، فى نحو سنة ٤٩٣ ق.م، فى تحالف مع

العصبة اللاتينية، وهى اتحاد مدن اللاتيوم. وفى نحو ٣٩٦ ق.م أصبحت روما أكبر مدينة فى اللاتيوم، واستخدمت، بعد ذلك، موارد العصبة لخوض الحروب ضد جيرانها. وقدّمت إلى المدن التى فتحتها الحماية وبعض امتيازات المواطنة الرومانية. وبالمقابل زودت تلك المدن المفتوحة الجيش الرومانى بالجنود.

وخلال القرن الرابع قبل الميلاد حققت روما انتصارات على الإترسكانيين. كما هزمت الغاليين الذين كانوا قد هاجموا إيطاليا من الشمال، وأحرقوا روما سنة ٣٩٠ ق.م. وأخضعت روما العصبة اللاتينية وحلتها سنة ٣٣٨ ق.م. كما أخضع الرومان، فى سنة ٢٩٠ ق.م السمنيين وهم شعب جبلى كان يعيش فى جنوبى روما. ونحو سنة ٢٧٥ق.م حكمت روما معظم شبه الجزيرة الإيطالية، بعد هزيمتها للمستعمرة الإغريقية تارنتوم، الواقعة فى جنوبى إيطاليا، وللملك الإغريقى بيروس، حامى تارنتوم.

التوسع فيما وراء البحار

جعل التوسع فيما وراء البحار من روما إمبراطورية قوية خلال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد. فقد دخلت روما أولاً فى صراع مع قرطاج التى كانت قوة بحرية ومركزًا تجاريا على ساحل شمالى إفريقيا. خاضت قرطاج، من أجل السيادة على البحر الأبيض المتوسط، ثلاث حروب دعيت بـ"الحروب البونية". نجحت روما فى الحرب البونية الأولى ٢٦٤- ٢٤١ ق. م فى فتح صقلية، وهى جزيرة تقع على مقربة من رأس شبه الجزيرة الإيطالية، وجعلت منها أول ولاية رومانية. واستولت على جزيرتين أخريين من جزر البحر المتوسط، وهما: سردينيا وكورسيكا. وفى الحرب البونية الثانية ٢١٨ - ٢٠١ ق. م قاد القائد القرطاجى اللامع، هانيبال، جيشه عبر جبال الألب، وهاجم إيطاليا. ومع أن هانيبال كسب معارك أساسية عديدة، إلا أن القوى البشرية الرومانية وصمودها أرهقته فى نهاية المطاف. وهزمت القوات الرومانية

بقيادة سيبيو، هانيبال سنة ٢٠٢ ق. م. وفى الحرب البونية الثالثة ١٤٩ - ١٤٦ ق. م دمرت روما قرطاج. وقد جعلت هذه الانتصارات سواحل البحر المتوسط فى أسبانيا وإفريقيا تحت السيطرة الرومانية.

بدأ الصراع الرومانى - القرطاجى كصراع تجارى ثم أخذ أبعاداً عسكرية، وكان أول احتكاك بين الطرفين عندما احتل الرومان جزيرة صقلية عام (٢٦٤ ق.م) واعتبر القرطاجيون هذا الغزو مساساً مباشراً بمصالحهم الإقتصادية والسياسية، وهذه الواقعة كانت البداية الأولى بين الرومان والقرطاجيين وقد استمرت الحرب البونية من عام ٢٦٤ ق. م إلى عام ٢٤١ ق. م.

يعد حنبعل برقة الشهير (ويسمى أيضا هانيبال أو هانيبعل أو حنا بعل) من أعظم القادة العسكريين فى التاريخ. اكتسح شمال افريقيا واسبانيا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا، وحاصر روما ١٥ عاما وكادت تسقط، لولا أن قامت عليه ثورة فى قرطاج فى القرن الأول قبل الميلاد.

ولد بقرطاج سنة ٢٤٧ قبل الميلاد، ورافق وهو فى التاسعة من عمره والده أميلكار برقة فى اسبانيا. وفى سنة ٢٢١ ق. م اختاره الجنود قائدا بعد اغتيال صدر بعل زوج أخته، فتمكن من بسط نفوذ قرطاج على كامل شبه الجزيرة الإيبيرية بما فى ذلك إحدى المحميات الرومانية. وقد رأت روما فى ذلك خرقا للمعاهدة التى عقدت إثر الحرب البونيقية الأولى، وطالبت بتسليمها هانيبال، وقد كان رفض هذا الطلب سببا فى اندلاع الحرب البونيقية الثانية بين سنتى ٢٠١ و ٢٠٨ قبل الميلاد.

بدأ هانيبال زحفه على روما سنة ٢١٨ قبل الميلاد حين غادر مدينة قرطاجنة بجيش قوامه ٤٠,٠٠٠ جندى، فعبر جبال البيرينى وجبال الألب خلال ١٥ يوما رغم صعوبة الطريق وهجوم القبائل المعادية، واستطاع إلحاق هزائم كبيرة بالقوات الرومانية فى العديد من المعارك، أشهرها معركة كاناى والتى منى الرومان فيها بخسائر بشرية كبيرة، لتتواصل سيطرته بعد ذلك

على العديد من المقاطعات الرومانية حتى سنة ٢١١ قبل الميلاد، حين حاصر عاصمة الإمبراطورية دون أن يستطيع اختراق تحصيناتها، بعد أن رفض حلفاؤه مده بالتعزيزات اللازمة.

وفى سنة ٢٠٢ قبل الميلاد، شنت روما بقيادة شيبون الإفريقى هجوما على قرطاج، فلاقاه هانيبال فى منطقة زامة، إلا أن جنوده حديثى العهد بالقتال فروا من ساحة المعركة تاركين الجنود المتمرسين يواجهون الرومان بمفردهم، فأبيد عدد كبير منهم، واستسلمت قرطاج لتنتهى بذلك الحرب البونيقية الثانية.

كان هانيبال أسطورة حيث جمع جيشا جرارا لمواجهة الإمبراطورية الرومانية الطاغية آنذاك، فقطع جبال الألب فى الشتاء القارس مما أدى إلى موت نصف جيشه بكثرة الثلوج والانزلاقات والجوع، مستعينا فى زحفه بجمع بعض الأفراد من القبائل المعادية، وقد استعمل الفيلة فى نقل المؤونة، وعندما وصل إلى روما لم يبق من جيشه سوى ما يقارب العشرين ألف جندى، بينما جمع له الرومان ما يفوق ٨٠٠٠٠ جندى لاستئصاله، فلما التقى الجمعان قرب نهر تريبيا عمد هانيبال إلى خطة حربية تمكن من خلالها من إغراق الجيش الرومانى بأكمله بعد أن هزمهم مرة ثانية بإسلوب مغاير.

وقد قاد القائد الرومانى (سيبيو) جيشاً قوامه (٢٥) ألف رجل من المشاة المدعمين بالخيالة وقطع به البحر الأبيض المتوسط متجهاً إلى قرطاجة، وأصر القرطاجيون على استدعاء هانيبال من إسبانيا لقيادة الجيوش القرطاجية، والتقى الجيشان فى معركة (زاما) التى انهزم فيها القرطاجيون. بعد هذه الهزيمة عقدت معاهدة اتفق فيها الطرفان على أن:

- يدفع القرطاجيون الجزية خمسين عاماً.
- تخفيض سفن القرطاجيين إلى عشر سفن.

- عدم شن القرطاجيين أى حرب خارج أفريقيا إلا بموافقة روما.

وهذا الانتصار الرومانى كان من نتائجه السيطرة الرومانية على الساحل الإسبانى الشرقى والجنوبى، وكان من نتائجه تقسيم إسبانيا إلى مقاطعتين تحت اسمى : إسبانيا القريبة، وإسبانيا البعيدة.

بادر هانيبال بعد انتهاء الحرب إلى العمل على تطوير قرطاج، فعدل الدستور وقاوم الفساد وسعى إلى تعزيز موارد الدولة، إلا أن روما رأت فى ذلك إعدادا لحرب أخرى، فعملت على إبعاده، وهو ما تم لها إذ لجأ القائد العظيم إلى ملك سوريا الذى كان بدوره فى حرب مع روما، إلا أن هزيمة الأخير سنة ١٩٠ ق.م جعلت هانيبال ينتقل شمالا إلى بلاد الأناضول، وهناك وضع عبقريته فى خدمة ملكها، إلا أن هذا الأخيررضخ لضغوطات روما التى لم تكف عن ملاحقة غريمها القديم وأرسلت فى طلبه، وحين أيقن هانيبال بحتمية وقوعه أسيرا، آثر الانتحار على الأسر.

كانت روما، بعد الحرب البونية الثانية، قد بدأت فى التوسع نحو الشرق. وعملت فى البداية، على حماية حلفائها على طول الساحل الشرقى لإيطاليا من غارات القراصنة. ولكن سرعان ما أصبحت روما متورطة فى المنازعات التى كانت قائمة بين اليونان ومقدونيا. وكانت مقدونيا، التى تقع فى شمالى اليونان، قد هزمت الإغريق فى سنة ٣٣٨ ق. م فظهرت بمثابة محرر لهؤلاء. ولكنها، فى نحو ١٤٠ ق. م سيطرت على كل اليونان ومقدونيا معًا. وفى سنة ١٣٣ ق. م مات آتالوس الثالث ملك برجاموم، وهو حليف الرومان، وأوصى بمملكته لروما (وهى المملكة التى تشكل الآن جزءًا من تركيا).

هناك سببان يساعدان على تفسير توسع روما وراء البحار. الأول هو إقامتها حلفًا من مدن فى إيطاليا، زود الجيش بقوى بشرية ضخمة. أما السبب الثانى، فهو أن ابتعاد الرومان بقوتهم العسكرية ومؤسساتهم الحكومية، ولَّد فى نفوسهم ثقة كبيرة فى تفوقهم وفى "عدالة " قضيتهم

انهيار الجمهورية

على الرغم من أن الرومان انتصروا فيما وراء البحار، إلا أنهم واجهوا تذمرًا متزايدًا فى بلادهم ؛ فقد أفاد أثرياء الرومان من واردات الضرائب والمستعبدين وغنائم الحروب التى تدفّقت على روما من المناطق المغلوبة. ولكن البطالة نشأت حينما طُرد المزارعون الصغار من العمل فى المزارع ليحل المستعبدون محلهم، واتسعت الفجوة بالتالى بين الأغنياء والفقراء. وحاول اثنان من التريبيون الرومان، فى سنة ١٣٣ وسنة ١٢٣ق.م مساعدة الفقراء فتقدم تيبريوس جراكوس وأخوه جايوس جراكوس ببرنامج لتوزيع الأراضى التى تملكها الدولة على الفقراء، ولكن غالبية أعضاء مجلس الشيوخ عارضتهما فى ذلك، وتم قتل الأخوين.

سببّت الصراعات بين القادة الاضطرابات فى الجمهورية الرومانية خلال السنوات المائة الأخيرة من تاريخها، حيث ضعفت الجمهورية نتيجة للثورات التى قام بها حلفاء روما الإيطاليون، والحرب التى اندلعت فى آسيا الصغرى، والاضطرابات فى روما نفسها. وفى سنة ٨٢ ق. م أصبح القائد الرومانى، سولا لوسيوس كورنيليوس دكتاتورًا، ونجح فى إعادة الاستقرار إلى الحكم، وقوى مجلس الشيوخ بإضافته قادة جددًا، وانسحب سولا سنة ٧٩ ق.م من الساحة السياسية، ولكنه كان قد أعطى روما نموذجًا للحكم الفردى.

وفى الستينيات من القرن الأول قبل الميلاد بدأت روما بالتوسع ثانية فيما وراء البحار. وفتح القائد الرومانى بومبى شرقى تركيا وسوريا وفلسطين. وعاد إلى روما بوصفه بطلاً شعبيّاً، ولكن مجلس الشيوخ رفض الاعتراف بانتصاراته. ونتيجة لذلك شكل بومبى، سنة ٦٠ ق.م، مع اثنين آخرين من القادة الرومان الآخرين، وهما يوليوس قيصر وماركوس كراسوس، تحالفًا سياسيًا دعى باسم الحكم الثلاثى الأول. ومات كراسوس فى الحرب سنة ٥٣ ق.م. وحاول القادة الرومان الآخرون تمزيق التحالف القائم بين

العضوين الآخرين المتبقيين فى الحكم الثلاثى.

فتح قيصر الغال، ما بين سنتى ٥٨ ـ ٥١ ق.م. وبذلك أضاف إلى العالم الرومانى مناطق شاسعة غربى نهر الراين. وخشى بومبى ومجلس الشيوخ من قوة قيصر وطموحه، ولذلك طلبوا منه التنحى عن القيادة. ولكن قيصر زحف بقواته عبر روبيكون، وهو نهر صغير يفصل إيطاليا عن بلاد الغال، واجتاح إيطاليا سنة ٤٩ ق.م. ونجح قيصر، فى الحرب الأهلية التى أعقبت ذلك، فى هزيمة بومبى وأتباعه. وفى سنة ٤٥ ق.م كان قيصر قد أصبح الحاكم الوحيد للعالم الرومانى. وفى سنة ٤٤ ق.م قامت مجموعة من الصفوة الأرستقراطيين، الذين كانوا يأملون فى إحياء الجمهورية الرومانية، باغتيال قيصر.

اندلعت الحرب الأهلية ثانية بعد موت قيصر. ففى سنة ٤٣ ق.م شكل أوكتافيوس ـ وهو ابن قيصر بالتبنى ووريثه ـ مع اثنين من ضباط الجيش وهما: مارك أنطونيوس وماركوس ليبيدوس، الحكم الثلاثى الثانى. ونجح أوكتافيوس وأنطونيوس فى هزيمة أعداء قيصر وأزاحا ليبيدوس جانبًا، ومن ثم دارت الحرب بين أوكتافيوس وأنطونيوس للسيطرة على روما. التمس أنطونيوس الدعم من كليوباترا، ملكة مصر، ومن ثم وقعا فى حب بعضهما. وفى سنة ٣١ ق.م هزم أوكتافيوس قوات أنطونيوس وكليوباترا فى معركة أكتيوم على مقربة من الساحل الغربى لليونان. وفى السنة التالية (٣٠ ق.م.) فتح الرومان مصر وجعلوا منها ولاية رومانية.

أصبح أوكتافيوس ـ بعد هزيمة أنطونيوس ـ قائد العالم الرومانى بلا منازع. وفى سنة ٢٧ ق.م أصبح أوكتافيوس أول إمبراطور رومانى، واتخذ اسم أوغسطس ويعنى المعَظَّم. وعلى الرغم من قوة أوغسطس إلا أنه تجنب لقب إمبراطور، وفضل أن يُدعى برنسبس وتعنى المواطن الأول. ولكن ٢٠ سنة من الحرب الأهلية كانت قد أدت إلى دمار الجمهورية. وبدا أن سلطة مركزية قوية هى وحدها فقط القادرة على حكم الإمبراطورية.

الإمبراطورية فى ذروتها

كان عهد أوغسطس بداية مرحلة طويلة من الاستقرار أصبحت معروفة باسم السلام الرومانى، ودامت نحو ٢٠٠ سنة. أعاد أوغسطس توطيد حكومة منظمة وعزز سلطة القانون. واستمر مجلس الشيوخ والقناصل والترابنة يؤدون وظائفهم فى حكومته. ولكن السلطة العليا كانت بيد أوغسطس؛ فقد قاد الجيش وسيطر على الولايات وملأ مجلس الشيوخ بأنصاره.

أسس أوغسطس مراكز دفاعية قوية على طول حدود الإمبراطورية الرومانية، وأبقى الولايات تحت سيطرته. وبدأ فى تطوير هيئة الخدمة المدنية بتعيين إداريين أكفاء للمساعدة فى حكم الإمبراطورية. ووصل ازدهار التجارة والفن والأدب إلى مستوى رفيع خلال ما يدعى بالعهد الأوغسطى.

مات أوغسطس فى سنة ١٤م. وكان قد هيأ ابن زوجته، واسمه تيبريوس، ليخلفه فى حكم الإمبراطورية. وبذلك مهد الطريق لحكم سلالة متتالية من الأباطرة. وكان منهم أفراد من أسرة أوغسطس، عرفوا باسم السلالة اليولية الكلاودية، التى حكمت حتى سنة ٦٨ م. وخلفتها السلالة الفلافية التى حكمت حتى سنة ٩٦م ووصلت الإمبراطورية الرومانية إلى أوج قوتها وازدهارها خلال عهد الأنطونييّن الذى امتد من سنة ٩٦ حتى ١٨٠م، وهم نيرفا وتراجان وهادريان وأنطونينوس بيوس وماركوس أوريليوس، الذين اشتهروا بحكمتهم ومقدرتهم.

وبالمقارنة فإن الإمبراطورية الرومانية لم تتوسع كثيرًا بعد حكم أوغسطس. وفى عام ٤٣م غزا الإمبراطور كلوديوس بريطانيا. واستولى تراجان على داسيا (التى هى الآن جزء من المجر ورومانيا) عام ١٠٦م. وشجع الموقف العسكرى الثابت للإمبراطورية الرومانيين على الاستثمار فى الأراضى. وازدهرت بعض المزارع الصغيرة والضيعات الكبيرة، وساعدت الطرق الرومانية على إيجاد اتصالات ممتازة، وشجع الأباطرة الرومانيون

تأسيس مدن صغيرة وكبيرة جديدة فى الأماكن النائية. وأصبحت الخدمة المدنية تنعم بمهارات متزايدة خاصة فيما يتعلق بالأعمال التى تجرى بين يوم وآخر فى الإمبراطورية. وكان حكام الأقاليم يعملون فى العادة لفترات طويلة ولذلك فقد تعرفوا بصورة حسنة على الأقاليم التى كانت تحت حكمهم.

أخذت سلطة الأباطرة الرومان تزداد قوة يومًا بعد يوم. وكان أمر الإمبراطور يطغى على أى قانون يصدره مجلس الشيوخ. وأصبح الرومان يعبدون الإمبراطور بعد موته وكأنه إلهٌ. وكانت عبادة الإمبراطور تقدم قاعدة مشتركة للولاء بين شعوب الإمبراطورية الذين كانوا لولا ذلك يعتنقون أديانًا أخرى وتقاليد مختلفة.

ظهرت فى القسم الشرقى من الإمبراطورية الرومانية ديانة جديدة ترتكز على تعاليم المسيح. وبرغم أن الرومان كما يزعمون، حاكموا المسيح بتهمة الخيانة، سنة ٣٠م، إلا أن أتباعه نشروا النصرانية فى شتى أرجاء الإمبراطورية. وفى البداية لم تعر الحكومة الرومانية النصرانية إلا اهتمامًا ضئيلاً. وكانت اضطهادات النصارى نتيجة خصومات محلية أكثر منها نتيجة أوامر من روما.

ازدياد الفوضى

فى سنة ١٦١م أصبح ماركوس أوريليوس إمبراطورًا. فدافع عن الإمبراطورية الرومانية ضد هجمات القبائل الجرمانية من الشمال، وضد هجمات الفرثيين من الشرق. وحلت بالإمبراطورية اضطرابات متزايدة بعد موت ابنه الإمبراطور كومودوس سنة ١٩٢م. فقد استولى عدد كبير من الأباطرة على السلطة بالقوة، وتقاتل القادة المتنافسون على العرش. فمن سنة ٢٣٥ إلى سنة ٢٨٤م تعاقب على العرش ٦٠ إمبراطورًا. وكان معظمهم قادة جيوش وقواتهم هى التى نادت بهم أباطرة.

إنّ اتساع الإمبراطورية الرومانية الكبير هو الذى عجل بانهيارها. إذ لم يعد باستطاعة السلطة المركزية فى روما الإبقاء على وحدة الإمبراطورية. هذا إضافة إلى أن الصراعات من أجل السلطة، بين القادة الرومان، قد أضعفت الدفاعات الإمبراطورية بشكل خطير للغاية. فهاجم القوط، وهم شعب جرمانى، الأراضى الرومانية مرات عديدة خلال القرن الثالث الميلادى، كما اجتاح الفرس بلاد الرافدين وسوريا.

الإحياء المؤقت

فى سنة ٢٨٤م عينت القوات الرومانية قائدها ديوكليشيان إمبراطورًا. وأدرك ديوكليشيان أنه لم يَعُد بوسع رجل واحد أن يحكم الإمبراطورية، فقام بتقسيم الولايات الإمبراطورية إلى وحدات أصغر بغية إعادة النظام، بحيث يصبح لكل وحدة حكومتها وجيشها الخاص بها. وعين ديوكليشيان جنديّاً يدعى ماكسيميان ليكون إمبراطورًا مشاركًا، كما عين نائبين ليخلفاهما. وقد حكم ماكسيميان القسم الغربى من الإمبراطورية فى حين حكم ديوكليشيان القسم الشرقى. وقد أوقفت إصلاحات ديوكليشيان، مؤقتًا انهيار الإمبراطورية. إلا أن ذلك تطلب ضرائب طائلة لتغطية نفقات جيش أكبر وإدارة أوسع.

وعانى النصارى اضطهادًا كبيرًا فى بداية القرن الثالث الميلادى، لاتهام الرومان لهم بأنهم أساس كل المصائب الواقعة بهم آنذاك لكفرهم بآلهة الرومان. وفى سنة ٣٠٣م حظر ديوكليشيان النصرانية.

كان قسطنطين الأول الكبير، قد اختير إمبراطورًا على الولايات الرومانية الغربية فى سنة ٣٠٦م. وكان النظام الذى وضعه ديوكليشيان والذى يقوم على الاشتراك فى السلطة والتعاقب قد انهار بسرعة بسبب تنافس عدد كبير من الرجال على العرش. وفى سنة ٣١٢م نجح قسطنطين فى هزيمة منافسه الرئيسى وقد زعم أنه رأى حلمًا يعده بالنصر، إذا قاتل تحت

علامة الصليب. وفى سنة ٣١٣م أجاز قسطنطين وليقينيوس، لإمبراطور الولايات الشرقية، حرية العبادة للنصارى وحكم قسطنطين وليقينيوس حتى سنة ٣٢٤م، حين هزم قسطنطين شريكه الإمبراطور فى الحرب. وفى سنة ٣٣٠م نقل قسطنطين ـ الذى أصبح يعرف فيما بعد باسم الكبير ـ عاصمته إلى بيزنطة، وأعاد تسمية المدينة بالقسطنطينية.

الانحطاط والسقوط

بعد موت قسطنطين، سنة ٣٣٧م، تحارب ثلاثة من أبنائه واثنان من أبناء أخيه للهيمنة على الإمبراطورية الرومانية. وأصبح أحد أبناء أخيه، وهو جوليان إمبراطورًا سنة ٣٦١م. حاول جوليان كبح انتشار النصرانية وإعادة الديانة الرومانية التقليدية. ولكن النصرانية أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية فى أواخر القرن الرابع الميلادى. بعد موت الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٩٥م) انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين: الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإمبراطورية الرومانية الغربية.

أخذت الإمبراطورية الرومانية الغربية تضعف بشكل مطرد؛ فقد هاجم الواندال، والقوط الغربيون، وشعوب جرمانية أخرى، كلاّ من أسبانيا والغال وشمالى إفريقيا. ونهب القوط الغربيون مدينة روما سنة ٤١٠م. ويُؤرخ سقوط الإمبراطورية الرومانية غالبًا بسنة ٤٧٦م. حيث عَزَل، فى تلك السنة الزعيم الجرمانى أدواسر آخر حاكم للإمبراطورية الرومانية الغربية، وهو رومولوس أوغستولوس، عن العرش. وكان الزعماء الجرمان قد بدأوا، قبل ذلك بتقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى ممالك عديدة. وظلت الإمبراطورية الرومانية الشرقية باقية وممثلة للإمبراطورية البيزنطية، حتى استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣م.

التراث الرومانى

سقطت الإمبراطورية الرومانية بوصفها قوة سياسية. ولكن ثقافتها ونظمها استمرت وشكلت الحضارة الغربية والعالم البيزنطى. فلقد أصبح القانون الرومانى أساسًا لنظم تشريعية عديدة فى أوروبا الغربية، وأمريكا اللاتينية. كما بقيت اللغة اللاتينية لغة الأوروبيين المتعلمين لمدة تزيد على ١٠٠٠ سنة. وانبثقت عنها اللغات: الفرنسية، والإيطالية، والأسبانية ولغات أخرى. ولا يزال فن العمارة الرومانى يلهم تصاميم المبانى العامة إلى يومنا هذا.

نقلت الإمبراطورية الرومانية نظامها الاجتماعى والاقتصادى إلى القرون الوسطى، وهى فترة التاريخ الأوروبى الممتدة من القرن الخامس الميلادى حتى القرن السادس عشر. وفى غضون القرون الوسطى حلت كنيسة الروم الكاثوليك محل الإمبراطورية الرومانية بوصفها القوة الموحدة فى أوروبا. وكانت الكنيسة قد صاغت بنيتها الإدارية على غرار هيئة الإمبراطورية الرومانية، واستعملت اللغة اللاتينية كما حافظت على كلاسيكيات الأدب اللاتينى..

مصادر معرفتنا بروما القديمة

جاء القسم الأكبر من معلوماتنا عن روما القديمة، من سجلات رومانية مكتوبة تشتمل على وثائق مثل المدوَّنات القانونية والمعاهدات ومراسيم الأباطرة ومجلس الشيوخ الرومانى. وهناك سجلات مكتوبة أخرى تتمثل فى روائع الأدب اللاتينى. وكذلك فى عدد كبير من الأعمال التى كتب مؤلفوها عن أحداث عاشوها. وتشتمل مثل هذه الأعمال على رسائل وخطب شيشرون ورسائل بلينيوس الأصغر. وكتب يوليوس قيصر عن فتحه بلاد الغال فى كتابه تعليقات على الحرب الغالية. ويقدم المؤرخون الرومان الروايات التى ترتبط بعدد من الأحداث التى بسطها كتاب آخرون. فقد تحدث ليفيوس عن تطور روما منذ أصولها الأسطورية إلى عصره، وهو العصر الأوغسطى. كما وصف تاكيتوس فترة من التاريخ الرومانى تمتد من الإمبراطور تيبريوس إلى

الإمبراطور دومتيان. وكتب سويتونيوس سير الحكام من يوليوس قيصر إلى دومتيانكما أن المشاهد المنحوتة على النصب التذكارية تصور أحداثًا من التاريخ الرومانى. فعمود تراجان، مثلاً، وعمود ماركوس أوريليوس، الموجودان فى روما، يحكيان قصة الحملات العسكرية التى قام بها هذان الإمبراطوران.

كذلك فإن أنقاض المدن الرومانية تقدم لنا معلومات ذات قيمة كبيرة، فقد دُفنت كل من بومبى وهركيولانيم عندما ثار بركان فيزوف فى سنة ٧٩م، وكلتا المدينتين فى جنوب إيطاليا. وقد أظهرت الحفريات التى تمت الكثير من نواحى الحياة التى كانت عليها المدن الإيطالية فى العصر الرومانى.

تجدد الاهتمام بدراسة حضارة روما القديمة خلال عصر النهضة، وهى حركة ثقافية كبرى، امتدت عبر أوروبا منذ بداية القرن الرابع عشر حتى سنة ١٦٠٠م. بدأ عصر النهضة فى إيطاليا، عندما أعاد العلماء الكشف عن أعمال المؤلفين الإغريق والرومان القدامى. وفى العصور الحديثة فإن أول مؤلَّف تاريخى بارز عن روما كان للمؤرخ البريطانى إدوارد جبون، وهو بعنوان تاريخ انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها. ظهر ما بين عامى ١٧٧٦ و١٧٨٨م، وهو يتألف من ستة أجزاء. كما قام المؤرخ الألمانى ثيودور مومسن ببعض الدراسات المهمة حول التشريع والتاريخ الرومانى وكان لكتابه: تاريخ روما، الذى ظهر بين عامى ١٨٥٤ و ١٨٥٦م، تأثير على كل الدراسات التى تلته عن روما القديمة.

حضارة روما:

كان الملايين من الناس، الذين عاشوا فى الإمبراطورية الرومانية، يتكلمون لغاتٍ متعددةً، ويتبعون تقاليد وأديانًا مختلفة. ولكن الإمبراطورية الرومانية ربطتهم جميعًا بنظام قانونى وحكم مشترك. وقد أثار هذا الإنجاز البارز الاهتمام والإعجاب منذ الأزمنة القديمة وحتى الوقت الحاضر.

كان لروما القديمة تأثير كبير على تطور الحضارة الغربية؛ لأن هذه الإمبراطورية كانت واسعة للغاية، ودامت زمنا طويلا، فقد أصبحت لغة الرومان القدماء - وهى اللغة اللاتينية - أساسًا للغة الفرنسية والإيطالية والأسبانية، واللغات الرومانسية الأخرى. كما قدم القانون الرومانى الأساس للنظم التشريعية لمعظم بلدان أوروبا الغربية وأمريكا اللاتينية. وأسهمت مبادئ العدالة الرومانية والنظام السياسى الرومانى فى إقامة حكومات فى عدد كبير من البلاد فى الغرب. كما ظلت بعض الطرق والجسور والقنوات الرومانية تستخدم كنماذج للمهندسين فى العصور اللاحقة.

نشأت روما القديمة فوق سبعة تلال مغطاة بالغابات على ضفة نهر التيبر فى وسط إيطاليا. وقد وفر لها هذا النهر طريقًا ملائمًا إلى البحر الذى يقع على بعد نحو ٢٤ كم إلى الغرب منها. ولكن روما كانت بعيدة عن البحر بما يكفى لتجنيبها غارات القراصنة. كانت تلال روما شديدة الانحدار، مما ساعدها على الدفاع عن نفسها بسهولة ضد الأعداء. وبالقرب من روما وُجِدت التربة الخصبة ومواد البناء الممتازة.

وقعت شبه الجزيرة الإيطالية، تدريجيّاً، تحت حكم الرومان. وكانت شبه الجزيرة هذه ممتدة فى البحر المتوسط بشكل بارز. وهكذا احتلت إيطاليا مركزًا وسطًا بين البلاد المحيطة بهذا البحر. وفى الشمال ساعدت جبال الألب على حماية إيطاليا من الغزاة القادمين من وسط أوروبا. ولكن الممرات الجبلية كانت تفسح المجال لعبور قلة من المستوطنين، الذين جذبهم مناخ إيطاليا المعتدل وتربتها الخصبة. وكان نمو السكان المطرد، فى وقت لاحق، قد وفر لروما الجنود الذين تحتاجهم لتوسعها.

انتشر الحكم الرومانى تدريجيّاً فى البلاد المحيطة بالبحر المتوسط، وأطلق الرومان على هذا البحر اسم (بحرنا) ، و(البحر الداخلى)، وامتدت الإمبراطورية الرومانية، فى ذروة اتساعها، فى القرن الثانى الميلادى، شمالاً

حتى الجزر البريطانية، وشرقًا حتى الخليج العربى.

وكان للإمبراطورية الرومانية موارد طبيعية متعددة، من حقول القمح الخصبة فى صقلية وشمالى إفريقيا، إلى المناجم المعدنية الغنية فى أسبانيا وبريطانيا، ومحاجر الرخام فى اليونان. كما وُجدت أيضًا غابات كثيفة فى آسيا الصغرى، وبساتين الكروم والزيتون فى الغال (وهى حاليًا فرنسا وبلجيكا وجزء من ألمانيا).

السكان

من المحتمل أن عدد سكان الإمبراطورية الرومانية، فى أوجِّهَا، كان يتراوح بين ٥٠ و٧٠ مليون نسمة، منهم نحو مليون تقريبًا فى مدينة روما، ومن خمسة إلى ستة ملايين فى بقية أنحاء إيطاليا.

تختلف الشعوب التى رزحت تحت هيمنة الإمبراطورية الرومانية اختلافًا كبيرًا فى التقاليد واللغات، فثقافات سكان بلاد الرافدين، وفلسطين، ومصر، واليونان كانت أعرق وأقدم من حضارة روما. ولكن شعوبًا عديدة، فى كل من بريطانيا وألمانيا والغال، تعرفت عن طريق الرومان، على حضارة أكثر تقدمًا. وقد تكلم موظفو الحكومة وأفراد الطبقة العليا، فى كل أرجاء الإمبراطورية، اللغتين اللاتينية واليونانية. ولكن معظم الشعوب المغلوبة استمرت فى استخدام لغاتها المحلية ؛ ففى كل من بلاد الغال وبريطانيا، مثلاً، كان الناس يتكلمون اللغة السلتية، وفى شمالى إفريقيا اللغة البربرية، ويتكلمون فى سوريا وفلسطين الآرامية، وفى مصر اللغة المصرية القديمة فى لهجتها القبطية.

انقسم سكان روما القديمة إلى طبقات اجتماعية متعددة. وكانت قلة من الرومان تنتمى إلى الطبقة العليا. وشكَّل أعضاء مجلس الشيوخ وعائلاتهم الفئة الأعظم نفوذًا من بين أفراد هذه الطبقة، أما معظم الناس فكانوا من الطبقات الدنيا، ومكانتهم الاجتماعية وضيعة. وكان الرومان يُميِّزون، داخل الفئة الأخيرة

نفسها، بين المواطنين والمستعبَدين. فقد ضمت فئة المواطنين المزارعين الصغار، وعمال المدن، والجنود، فى حين كان معظم المستعبَدين أناسًا تم أسرهم فى الحروب. وقد أصبح بإمكان المستعبدين، فى وقت لاحق، أن يشتروا أو يُمنحوا حريتهم ويصبحوا أحرارًا ، ثم مواطنين فى نهاية المطاف.

ومع توسع العالم الرومانى ظهرت طبقة اجتماعية جديدة تتمتع بأهمية كبيرة. تألفت من ملاك الأراضى الأثرياء وأصحاب الأعمال. وقد أطلق عليها اسم طبقة الفرسان، واحتل أفرادها، فى ظل الأباطرة، مناصب حكومية مهمة، وأسهموا فى إدارة الخدمات المدنية للإمبراطورية.

الحياة فى المدينة

كانت روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وكبرى المدن فيها، بلغ عدد سكانها، فى أوج نموِّها نحو مليون نسمة. ولم يسبق لمدينة من المدن القديمة أن وصلت إلى مثل هذا الحجم والازدهار. وكانت الإسكندرية، فى مصر، ثانية المدن الكبرى فى الإمبراطورية، وعدد سكانها ٧٥٠ ألف نسمة. ووُجدت مدن مهمة أخرى فى الإمبراطورية كأنطاكية فى سوريا والقسطنطينية) إسطنبول حاليًا).

كانت المدن فى الإمبراطورية الرومانية مراكز للتجارة والثقافة. وقد خططها المهندسون الرومان بعناية فائقة، شيَّدوا المبانى العامة فى أماكن مناسبة، وزودوها بشبكات المياه والمجارى. وكان الأباطرة أو الأثرياء يدفعون الأموال اللازمة لإنشاء المبانى العامة الضخمة، مثل: الحمامات، والملاعب الرياضية، والمسارح. وفى قلب المدينة يقع الفورم الرومانى، وهو ميدان كبير مكشوف تحيط به الأسواق والمبانى الحكومية والمعابد. وقد اختلط الغنى بالفقير فى هذا الميدان الصاخب، وفى الحمامات والمسارح والملاعب.

الحياة فى الريف

كان الرومان الأوائل رعاة ومزارعين. وفى روما القديمة كوَّن المزارعون،

الذين يعملون فى أراضيهم الخاصة، العمود الفقرى للجيش الرومانى. وكان هؤلاء يزرعون محاصيلهم فى الربيع ويحصدونها فى الخريف. أما خلال الصيف فيُجندون فى الجيش.

وقد تغيرت الحياة الريفية بعد أن بدأت روما فى توسيع رقعتها؛ إذ أُرسل عدد كبير من المزارعين لخوض الحروب الخارجية لفترات طويلة، وبذلك كانوا مضطرين لبيع أراضيهم. فأقام أثرياء الرومان مزارع كبيرة زرعوا فيها المحاصيل وربوا المواشى من أجل التجارة، واشتروا المستعبدين للعمل لديهم. كما كانوا أيضًا يؤجرون الأراضى للمزارعين التابعين لهم.كانت الحياة شاقة بالنسبة لمعظم المزارعين. ولكنهم كانوا يتشوقون إلى الأعياد الدورية التى تقام عند زراعة الأرض وحصادها، وكانت تشتمل على ألعاب رياضية وتسليات أخرى..

الحياة العائلية

كان رب الأسرة الرومانية صاحب سلطة مطلقة على جميع أفراد أسرته، تصل إلى حد بيع أولاده رقيقًا أو حتى قتلهم. ولم يكن بإمكان الابن حيازة أية ملكية خاصة أو التمتع بأية سلطة شرعية بما فى ذلك أولاده، مادام أبوه على قيد الحياة. وبالتالى فقد كانت الأسرة الكبيرة كثيرة العدد، تشتمل على الأولاد المتزوجين وعائلاتهم.

التعليم

لم يكن فى روما القديمة مدارس للدولة. وكان الأطفال يتلقون تعليمهم الأول فى البيت تحت إشراف والديهم. وكان معظم الأولاد وبعض الفتيات، ما بين سن السادسة أو السابعة وحتى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرهم، يلتحقون بمدارس خاصة أو يدرسون فى منازلهم. وكانوا يتعلمون القراءة والكتابة والحساب. وكان المستعبدون يعلِّمون الأولاد فى عدد كثير من المنازل؛

ومن الجدير بالذكر أن بعض المستعبدين، وبصفة خاصة الذين كانوا من الإغريق، ظهروا أكثرَ تعليمًا من ساداتهم.

أما معظم الرومان الذين كانوا يتلقون تعليمًا أكثر من ذلك، فقد كانوا من أبناء العائلات الثرية الذين يدرسون حتى الرابعة عشرة، بصورة رئيسية، قواعد اللغتين اللاتينية واليونانية والأدب، وكذلك الرياضيات والموسيقى والفلك.

وكان التعليم العالى، فى روما القديمة، يعنى دراسة الخطابة، والرومان الذين درسوا الخطابة من أبناء الطبقة العليا هم وحدهم الذين مارسوا مهنة فى القانون أو السياسة ؛ لأن التدريب على الخطابة كان يوفر المهارات اللازمة لطرح المشكلات أمام المحاكم القانونية أو مناقشة المسائل فى مجلس الشيوخ الرومانى. وكان الطلبة يدرسون أحيانًا الفلسفة والتاريخ أيضًا من أجل تحسين قدراتهم كخطباء فى المحافل العامة. أما النساء اللواتى درسن الخطابة فقد كن قلة، لأن عالم السياسة كان حكرًا على الرجال.

الدين

كان الرومان الأوائل يعتقدون بأن لآلهتهم سلطة على الزراعة وعلى نواحى الحياة اليومية كلها. فقد كانوا يزعمون أن سيريز، مثلاً، إلاهة للحصاد، وفستا حارسة نار الموقد، ويانوس حارس الأبواب. وكانت الآلهة، المسماة لاريس وبيناتيس، تحرس الأسرة والبيت. حتى إن جوبيتر، الذى أصبح مؤخرًا أكبر آلهتهم، عُبد فى بادئ الأمر إلهًا للسماء ومتحكمًا فى الطقس.

تزايد احتكاك الرومان بالأفكار الإغريقية خلال القرن الرابع قبل الميلاد. ومن ثم أخذوا يعبدون الآلهة الإغريقية، وأعطوها أسماء رومانية وبنوا معابد ومزارات لتكريمها. وقد سيطرت الحكومة على الدين. وكان الكهنة موظفين حكوميين، إما بالانتخاب أو بالتعيين، يقومون بالطقوس العامة التى كانوا يرون أنهم يكسبون بها عطف آلهتهم على الدولة.

فقدَ عدد كبير من الرومان فى القرن الأول الميلادى اهتمامهم بديانتهم. وجذبتهم الأديان السماوية التى كانت تخاطب فطرتهم الإنسانية وتبين لهم طريق الخير فى الدنيا والآخرة. وكسبت النصرانية، أتباعًا كثيرين فى ذلك الوقت.

الغذاء والملبس والمأوى

كان الرومان يبدأون يومهم عند شروق الشمس. وكان ضوء النهار ثمينًا للغاية؛ لأن قناديل الزيت التى كان يستخدمها الناس، بعد الظلام، تبعث ضوءًا خافتًا. وكانت وجبة الإفطار، عادة، وجبة خفيفة من الخبز والجبن. ويتناول معظم الرومان وجبة الغداء قبيل منتصف النهار. أما بالنسبة إلى أثرياء الرومان فكانت وجبة الغداء تتألف من اللحم أو السمك والزيتون والفاكهة. أما وجبة العشاء، وهى الوجبة الرئيسية، فكانت تبدأ فى وقت متأخر من بعد الظهر، بحيث تنتهى قبل غروب الشمس.

كان الرومان يرتدون ثيابًا خفيفة من الصوف أو الكتان. وكان الثوب الرئيسى للرجال والنساء رداءً يُسمى التيونك وهو قميص بكم قصير يتدلى إلى الركبة أو ما دونها، وكان التيونك بمثابة ثوب نوم أيضًا. وفوق هذا التيونك كان الرجال يرتدون عباءة تدعى (التوجة)، كما كانت النساء يرتدين عباءة تدعى البالا. وكلتاهما تشبهان الملاءة التى تلتف حول الجسم. وغالبًا ما كانت ثياب الرجال بيضاء اللون، ولكن برغم ذلك فإن التوجة التى تلبسها الطبقة العليا من الرومان كانت ذات حافة أرجوانية. أما ثياب النساء فكانت على الأغلب مصبوغة بألوان متعددة.

وفى المدن، عاش معظم الرومان فى بيوت متراصة الصفوف، مؤلفة من ثلاثة إلى خمسة طوابق. وكان باستطاعة أثرياء الرومان فقط امتلاك بيوتٍ. وكانت بيوتهم تُبْنَى حول فناء يدعى آتريوم (البهو الرومانى). وكانت معظم الغرف المحيطة بهذا الفناء صغيرة ودون نوافذ، إلا أن هذا الفناء كان فسيحًا ويغطيه سقف له فتحة تسمح بدخول الضوء والهواء. وكانت للبيوت أفنية

بأعمدة تدعى برستايل)الفناء المعمد) وكانت بمثابة حدائق داخلية. أما الفقراء فى المناطق الزراعية فقد عاشوا فى أكواخ صنعت من اللّبن المجفف بالشمس.

التَّرويح

كان الرومان يتمتعون بعطلات كثيرة وكانوا يحرصون عليها. وكانت معظم هذه العطلات عطلات دينية. وأصبحت هذه العطلات كثيرة إلى حد كبير خاصة فى أوائل القرن الثانى الميلادى (سنة ١٠١ وما بعدها)، حتى إن الإمبراطور ماركوس أوريليوس حدَّ من عددها وجعلها ١٣٥ يومًا فى السنة. وفى كثير من هذه العطلات كان الإمبراطور أو موظفو الدولة الأغنياء يتبنون إقامة أنشطة التَّرويح العام مجانًا فى مسارح مكشوفة واسعة ذات مدرجات وتعرف بالمسارح المدرجة..

وكان أشهر هذه المسارح المكشوفة ذات المدرجات الكولوسيوم الذى كان يتسع لنحو ٥٠,٠٠٠ متفرج. وكان أكثر هذه الأنشطة التَّرويحيَّة ذا طابع عنيف تسفك فيه الدماء. فمثلاً كان هناك بعض المحاربين المدربين على فنون القتال، وكان يُسمَّى الواحد منهم المجالد، وكانوا يؤخذون إلى الحلبة داخل المدرج ليقاتل أحدهما الآخر حتى الموت. وكان معظم هؤلاء المجالدين من المستعبدين، أو من أسرى الحرب، أو من المجرمين الذين حُكم عليهم بالموت. وفى بعض الحالات كان هناك بعض الرجال المسلحين الذين يطلب منهم أن يقاتلوا بعض الحيوانات المتوحشة أو المتضورة جوعًا، كما كانت تلك الحيوانات تهجم على أولئك المجرمين الذين يراد إعدامهم.

وكان سباق عربات الخيول يجذب أعدادًا كبيرة من الناس فى روما القديمة، حيث كان السباق يأخذ مجراه فى مضمار بيضى الشكل طويل المدى يسمى المدرج. وكانت ساحة السباق الرومانية أكبر مضمار فى روما، يتسع لنحو ٢٥٠,٠٠٠ شخص. وكان سائقو العربات المهرة يعدون أبطالاً لهم شعبيتهم ومكانتهم السامية بين الجماهير. وكان كثير من الرومانيين يراهنون

على من يفضلونهم من بين هؤلاء المتسابقين.

وكانت هناك ثلاثة مسارح فى روما تعرض عليها المسرحيات الكوميدية، والمسرحيات الجادة التى ألفها بعض الكتاب من الإغريق أو الرومان. ولكن معظم الرومانيين كانوا يفضلون التمثيل الصامت الذى يتناول حياتهم اليومية، أو القصص التى تروى عن طريق استخدام الموسيقى والرقص أثناء السرد أو ما يعرف بالتمثيل الإيمائى.

وكان أباطرة الرومان قد اعتادوا على بناء بعض الحمامات العامة التى يظهر فيها البذخ والتى يستخدم فى تزيينها الرخام والذهب، وذلك لتشجيع الناس على الرياضة اليومية والاستحمام. وكان المستحمون يمرون من خلال غرف مليئة بالبخار الحار، وبرك داخلية فيها ماء حار وبارد ودافئ، وكان الرومان يزورون الحمامات بغرض التَّرويح ومقابلة الأصدقاء، وكان يحيط بهذه الحمامات بعض ميادين التدريبات الرياضية والحدائق، وغرف الجلوس والمكتبات.

أنشطة السكان.. الزراعة

كان نحو ٩٠٪ من سكان العالم الرومانى يعيشون على الزراعة. لقد أدرك الرومان الحاجة إلى محاصيل دورية. كما عرفوا أيضًا أن تَرْك نصف الحقل بورًا كل سنة يجعل التربة أغنى لزراعة المحاصيل فى السنة التالية. ولكن قلة من أصحاب الأراضى استطاعوا تحمُّل مثل هذا الأسلوب.

زرع الفلاحون الوديان الخصبة، شمالى وجنوبى مدينة روما، حبوبًا، مثل القمح والشيلم والشعير. أما على منحدرات التلال، وفى التربة الأقل خصوبة، فقد زرعوا الزيتون والكرم، وربوا الغنم والماعز. كما ربّى المزارعون الرومان الخنازير والأبقار والدجاج. وعندما توسعت الإمبراطورية تزودت روما بمنتجات زراعية عديدة من مزارع الغال وأسبانيا وشمالى إفريقيا.

الصناعة

لم تصبح مدينة روما مركزًا صناعيّاً فى العصور القديمة إطلاقًا؛ فقد كانت تستورد معظم السلع المصنعة. ولكن مناطق إيطالية أخرى كانت تزود العاصمة بمنتجات، مثل الفخار والأوانى الزجاجية والأسلحة والأدوات والمنسوجات. كما أنها صنعت الآجر والأنابيب الرصاصية التى يحتاجها الرومان لأشرعة السفن. وعندما توسعت الإمبراطورية تطورت مراكز صناعية مهمة خارج إيطاليا، كانت بمثابة أسواق محلية وصدَّرت سلعًا إلى روما.

التعدين

كان واحدًا من أكثر نشاطات روما القديمة أهمية. فقد تطلبت مشاريع البناء الضخمة فى الإمبراطورية كميات كبيرة من الرخام والمواد الأخرى. وجاء الرخام من اليونان وشمالى إيطاليا. كما وُجد فى إيطاليا النحاس ومناجم غنية بخام الحديد. وجاء القسم الأكبر من الذهب والفضة فى الإمبراطورية من أسبانيا. وأنتجت مناجم بريطانيا الرصاص والقصدير. وكان العمل فى المناجم شاقًا وغير صحى. وأجبر الرومانُ المستعبدين والمجرمين المحكومين وأسرى الحروب على العمل فيها.

التجارة

ازدهرت التجارة مع توسع الإمبراطورية الرومانية. فقد نقلت السفنُ البحرية الضخمة البضائع بين موانئ البحر المتوسط. ومن ثم كانت العربات والمركبات تقوم بنقل هذه البضائع على شبكة الطرق الإمبراطورية الواسعة.

كانت الواردات الرئيسية لمدينة روما تشتمل على المواد الغذائية والمواد الخام والسلع المصنعة. وصدَّرت شبه الجزيرة الإيطالية الخمور وزيت الزيتون. وتاجر الرومان مع بلاد تقع خارج الإمبراطورية أيضًا. فقد استوردوا، مثلاً، الحرير من الصين، والتوابل والأحجار الكريمة من الهند

وجنوبى الجزيرة العربية، والعاج من إفريقيا.

وسكّت الحكومة الرومانية قطعًا نقدية من الذهب والفضة والنحاس والبرونز. وتحكمت بالموارد المالية لجعل التجارة أكثر سهولة.

النقل والاتصالات

كانت هناك شبكة رائعة من الطرق تتقاطع فى داخل الإمبراطورية. وكانت تمتد إلى نحو ٨٠,٠٠٠كم وتساعد على إبقاء الإمبراطورية متماسكة. وبنى الجيشُ الرومانى طرقًا لتسهيل تحركات القوات العسكرية. كما عززت الطرق أيضًا التجارةَ والنَّقل. واعتمد النظام البريدى الرومانى المنظم بدرجة عالية جدًا، على شبكة الطرق هذه. وكانت الطرق الرومانية المستقيمة والمرصوفة من روائع الزمن.

بنى الرومان أضخم أسطول من سفن النقل فى العصور القديمة. وأبحرت سفنهم إلى كل موانئ البحر المتوسط، وفى الأنهار الكبيرة مثل الراين والدانوب والنيل.

الفنون والعلوم العمارة والهندسة

تبنّى الرومانُ القدماء الأشكالَ الأساسية للعمارة الإغريقية، التى اشتملت على المعبد المحاط بالأعمدة، والرواق المسقوف الذى كان يعرف باسم بورتيكو. ابتكر الرومان، إضافة إلى ذلك، أشكالاً جديدة من الأبنية، مثل الحمامات، والقاعات العامة التى تتسع لعدد كبير من الناس. وعلى العموم فقد صمم الرومان مبانى أكبر من مبانى الإغريق وأكثر ضخامة منها.

وهناك إنجازان، من إنجازات الهندسة الرومانية، جعلا بناء العمائر الرومانية الضخمة أمرًا ممكنًا، **أولهما**: القوس **وثانيهما**: الملاط الخرسانى (الملاَط: إسمنت أو طين يُطلَى به الحائط). فالأقواس كانت تدعم أبنية مثل الجسور والأقنية التى كانت تنقل المياه إلى المدن الرومانية. وكانت السقوف

المحُمَّلة على الأقواس وتعرف بالعقود تسمح بترك مساحات داخلية واسعة ضمن الأبنية. وقد ألغت هذه السقوف المحمولة على الأقواس الحاجة إلى الأعمدة لحملها. ومع أن الرومان لم يكونوا مبتكرى الأقواس، إلا أنهم كانوا من أوائل من نقلوها إلى حيز الواقع. ووفَّر الملاط الخرسانى الذى ابتكره الرومان، مادة بناء قوية بالنسبة إلى الجدران والسطوح المقبَّبة.

النحت والرسم

اقتبس النحاتون والرسامون الرومان أعمالهم من الفن الإغريقى ومن التقاليد الإيطالية المحلية. وبالتالى فقد عكست أعمالهُم الفنية الأشكال الإنسانية النابضة بالحياة من الفن الإغريقى، كما عكست الجوانب الأكثر واقعية للفن الإيطالى المحلى.

أبدع النحاتون الرومان صورًا واقعية تمثل أشخاصًا معينين. كما أنهم صوروا أحداثًا تاريخية بالنحت على المنشآت العامة الضخمة. فمذبح السلام، مثلاً، المزخرف غاية الزخرفة، يمجد السلام الذى جاء به الإمبراطور أوغسطس (هو أوكتافيوس وريث قيصر وخليفته) إلى الإمبراطورية. كما كانت هناك منحوتات على الأعمدة العالية، وعلى أقواس النصر تصور الحملات العسكرية.

وزينت رسوماتُ الجدران الضخمة بيوتَ الطبقة الميسورة من الرومان. وتُظهر مثل هذه الرسومات مناظر الحدائق وأحداثًا من الأساطير الرومانية ومشاهد من الحياة اليومية. وجعلت الرسومات الملونة بألوان عديدة والمبتكرة باهتمام ودقة، الغرف فى البيوت تبدو أجمل وأكثر بهاءً.

الأدب اللاتينى

ازدهر فى عهد أوغسطس بين عامى ٢٧ ق.م و ١٤م.، وفى الفترة ذاتها كتب الشاعر فيرجل (٧٠ـ ١٩ ق. م.) ملحمته الشهرية (الإنياذة) عن نشأة

مدينة روما، والتى نشرت بعد وفاته.

تأثر الأدب فى روما تأثرًا كبيرًا بشعر الإغريق وآثارهم المسرحية. وكيَّف الشعراء والمسرحيون الرومان، من أمثال، نايفيوس وإنيوس، والكتاب المسرحيون، من أمثال، تيرينس بلاوتوس، الأشكال الإغريقية من أجل الجمهور الرومانى. كما بنى قيصر وسالُّوست كتاباتهما التاريخية على النماذج الإغريقية. وأبدع شعراء روما الكبار، أمثال كاتولّوس ولوكريتيوس وأوفيد وفيرجيل، وتاكيتوس - ألمع مؤرِّخى روما - أعمالاً عظيمة وأصيلة. هذا بالإضافة إلى مؤلفات أخرى مهمة فى الأدب اللاتينى تشتمل على خطب شيشرون ونقائض هوراس وجوفينال، ورسائل شيشرون وبلينيوس الأصغر.

العلوم

كانت الكشوف العلمية للرومان القدماء قليلة. غير أن أعمال العلماء الإغريق ازدهرت فى ظل الحكم الرومانى. فطاف الجغرافى الإغريقى، سترابو فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وكتب وصفًا دقيقًا لما شاهده. كما طوّر الفلكى اليونانى بطليموس، الذى عاش فى مصر، نظرية الكون، التى ظلت مقبولة لنحو ١,٥٠٠ سنة. وافترض الطبيب الإغريقى، جالينوس، نظريات طبية مهمة اعتمدت على تجارب علمية. وجمع الرومان أنفسهم مجموعات مهمة من المعلومات العلمية. فصنف بلينى الأكبر، مثلاً، دائرة معارف فى ٣٧ مجلدًا بعنوان التاريخ الطبيعى.

نظام الحكم

حَكَمَ روما القديمة، فى البداية، سلسلة من الملوك، وكان مجلس الشيوخ، المؤلف من زعماء عائلات روما البارزة، يقوم بتوجيه الملك، ويلتقى المواطنون فى مجالس للتصويت على قرارات الملك ومجلس الشيوخ.

شيشرون

رجل الدولة القوى والخطيب المفَوَّه ساند الشكل الجمهورى لحكومة روما. انهارت جمهورية روما عقب وفاته عام ٤٣ ق.م مباشرة.

قامت الجمهورية الرومانية بعد أن خلع النبلاء الرومان الملك سنة ٥٠٩ ق.م. واحتفظ نظام الحكم الجديد بملامح كثيرة من النظام السابق، بما فى ذلك مجلس الشيوخ والمجالس الشعبية. وكان يترأس الحكومة موظفان منتخبان يُسمى الواحد منهما قنصلاً. ومع أن القنصليّن تقاسما السلطة ولكن كان بإمكان أى منهما نقض إجراءات القنصل الآخر. وكان القنصل يخدم لمدة سنة واحدة فقط.

كان مجلس الشيوخ أقوى الهيئات الحكومية سلطة فى الجمهورية الرومانية. كان يوجه السياسة الخارجية، ويصدر المراسيم، ويعالج الأمور المالية الحكومية. وكانت عضوية مجلس الشيوخ مدى الحياة. وكان أعضاء هذا المجلس، فى البداية، من الأشراف، أى أنهم كانوا أبناء أقدم عائلات روما وأغناها. وقد هيمن هؤلاء الأشراف ليس على مجلس الشيوخ فحسب بل أيضًا على المجلس الذى كان ينتخب القناصل والموظفين المهمين الآخرين. أما بقية مواطنى روما، والذين سُمُّوا العامَّة فلم يكن لهم إلا نفوذ سياسى ضئيل.

وقد شكَّل العامة، مجلسهم الخاص، وهو مجلس العامة للحصول على حقوق سياسية، وانتخبوا زعماء أطلق عليهم اسم "التريبيون". وبمجهود التريبيين ازدادت مكانة العامة، تدريجيّا، إلى أن حصلوا على الحقوق السياسية نفسها التى يتمتع بها الأشراف. وفى وقت لاحق ظهر مجلس جديد أوسع، وهو جمعية القبائل، مثّل الأشراف والعامة معًا. ولكن العامة كانوا هم المهيمنين بصورة رئيسية على هذا المجلس.

دامت الجمهورية الرومانية حتى سنة ٢٧ ق.م، أى نحو ٥٠٠ سنة،

وجمعت زعماء دولة أقوياء ومجلس شيوخ ذا هيبة، مؤلفًا من أقدم رجال الدولة، ومجالس استطاع من خلالها الشعب أن يُسمع صوته. وظل المؤرخون وعلماء السياسة ينظرون، لعدة قرون تالية، إلى الجمهورية الرومانية بوصفها نموذجًا للحكم المتوازن.

الإمبراطورية الرومانية

تأسست الإمبراطورية الرومانية بعد انهيار الجمهورية سنة ٢٧ ق.م، بعد ٢٠ سنة من الحرب الأهلية. ودامت الإمبراطورية حتى سقوط روما سنة ٤٧٦م. وخلال ذلك الوقت أمسك الأباطرة بالسلطة العليا، وأبقوا على المؤسسات الحكومية القديمة للعصر الجمهورى. ولكن الأباطرة كانوا يسمون القناصل، ويعينون أعضاء جددًا لمجلس الشيوخ. ولم يكن للمجالس الشعبية سوى سلطة ضئيلة. وكان الأباطرة يقودون الجيش، ويتحكمون فى صياغة القانون، ويعتمدون على مستشاريهم أكثر مما يعتمدون على مجلس الشيوخ. وكان هناك جهاز واسع من الموظفين المدنيين يقوم بتصريف شؤون الإمبراطورية يومًا بيوم.

القانون

نشر الرومان أولى مدوناتهم القانونية المعروفة نحو سنة ٤٥٠ ق.م. وسجلت هذه المدونة، التى أطلق عليها اسم القوائم الاثنتى عشرة للقوانين، الأعراف السائدة بشكل مكتوب. وظل القانون الرومانى مرنًا واعتمد على تفسيرات لمحامين وقضاة مهرة.

وتطورت، بمرور السنين، مجموعة شاملة من القواعد التشريعية، طُبِّقت على مختلف الشعوب التى تعيش فى ظل الحكم الرومانى. وأطلق المحامون الرومان على هذه المجموعة من القواعد التشريعية اسم قانون الأمم. وقد ارتكز قانون الأمم هذا على الأفكار البديهية للعدالة، مع مراعاة التقاليد والأعراف المحلية.

الجيش

كان الجيش فى ظل الجمهورية الرومانية يتألف فقط من المواطنين الذين يملكون الأرض. فقد أدرك الرومان أن أصحاب الممتلكات لهم نصيب أكبر فى الجمهورية من الذين لا أرض لهم، وبالتالى سيدافعون عنها بشكل أفضل.

عندما بدأت روما بشن الحروب، فيما وراء البحار، احتاجت جنودًا أكثر، وكان على هؤلاء الجنود الخدمة فى الجيش لفترات أطول. ولكن فى سنة ١٠٧ ق.م. ألغت الحكومة الرومانية شرط الملكية وفتحت الجيش للمتطوعين. وبذلك أتاح الجيش لعدد كبير من الرومان مهنة طويلة الأمد. وفى وقت لاحق أصبح عدد الذين يجندون من الولايات يزداد تباعًا. وفى سنة ٢٠ ق.م. كان نحو ٣٠٠,٠٠٠ رجل يخدمون فى الجيش الرومانى. وقد تغير هذا العدد قليلاً بعد ذلك. كان معظم الجنود من المحترفين، وجعل تدريبهم وانضباطهم من الجيش الرومانى واحدًا من أعظم القوى المحاربة فى التاريخ.

لم تكن مهنة الجنود الرومان القتال فحسب، وإنما قاموا أيضًا ببناء الطرق والقنوات المعلقة والأسوار والأنفاق. وبعد أن وصلت روما إلى أقصى اتساع لها كانت المهمة الرئيسية للجيش هى الدفاع عن حدود الإمبراطورية. ولهذا تمركزت قوات عديدة على طول نهريْ الراين والدانوب. كما أقيمت مراكز عسكرية مهمة أخرى فى مصر وسوريا وبريطانيا.

تلك هى روما التى شهدت قصة قيصر، وسيرته الحافلة..

■ ■ ■

يوليوس قيصر..
الأسرة والتنْشِئَة

يوليوس قيصر.. الأسرة والتنشئة

فى العام ١٠٢ قبل الميلاد ولد يوليوس قيصر لأسرة تنحدر من ملوك روما القدماء، أسرة نسبتها الأساطير الوثنية الرومانية لـ" فينوس "(١) ربة الجمال والفتنة لدى الرومان، ويبدو أن العامل الأقوى فى تنشئة يوليوس الطفل، وتربيته على الطموح والمغامرة، تمثل فى الأم "أوريليا " Aurelia، التى كانت تشتهر بحصافتها وفتنتها ومواهبها العقلية فى مجتمع روما آنذاك، وتتفوق فى شخصيتها على الوالد الذى لم يحقق مجدا سياسيا يذكر فى روما، وإن انتمى لطبقة الأشراف، ونسبته الأساطير لإيولوس مؤسس ألبالونجا Alba longa أصل مدينة روما، وكان إيولوس كما ذكر الشعراء، ابنا لأينياس الذى حارب فى طروادة، وحفيداً لفينوس..

وكما يحكى قيصر فقد اعتادت الأم أن تقف بجوار الابن النجيب، تغدق عليه بالمشاعر الطيبة، وتسانده فى الأزمات التى يمر بها، وما أكثرها، بسبب ما اشتهر به ابنها من مغامرة وشجاعة لا يفصلها عن التهور مسافة كبيرة !!

أحب قيصر أمه وتعلق بها، واعتبرها المعلم، ونظر لها نظرة إجلال وتوقير، كما تعلق بأسرتها وأقاربها الناجحين، أمثال عم أمه روتلليس روفس،

(١) كان اليونانيون الوثنيون يجعلون لكل مخلوق فى الطبيعة، ولكل قيمة من القيم الإنسانية العليا إلها يجعلونه متصرفا فى كل ما يخصها، فجعلوا للشر إلها، وجعلوا للحب إلها، وجعلوا للبحر إلها، وجعلوا للشمس إلها.. إلخ. وجعلوا للجمال والخصوبة والفتنة إلهة أسموها «أفروديت»، وأخذ الرومان فى أساطيرهم هذه الإلهة، وتحولت أفروديت لديهم إلى «فينوس»، ابنة زيوس أو جوبيتر كبير الآلهة الوثنية للرومان واليونان، وبالطبع هذه الوثنية قضت عليها الديانات السماوية الثلاث الأخيرة، وإن تأثرت بها اليهودية والمسيحية فى اتخاذ ولد لله (تعالى عما يقولون)، وجاء الإسلام بالتوحيد الخالص الذى هو دين الأنبياء من لدن آدم عليه السلام حتى خاتمهم محمد ﷺ.

الذى اعتنق الفلسفة الرواقية[1]، واشتهر فى ممارسته للسياسة بإنكار الذات والبعد عن الظهور وتعرض للاضطهاد على أيدى ساسة الطبقة الرأسمالية المحدثين فى روما.

كما تأثر قيصر بخاله جايس كوتا، الذى كان من أبرع خطباء زمانه، وكان شغوفا بالآداب الإغريقية، وفنون السياسة لدى الإغريق، ويحكى قيصر كيف كان مولعا بحضور المجالس الادبية والعلمية التى كان خاله كوتا يعقدها مع أصدقائه الطلاب، وكيف كان ينصت لهم بشغف، ويتعلم منهم، وكيف كان خاله كوتل يشجعه على حفظ الأشعار اليونانية، وإطلاق خياله فى الشعر والأدب.

تأثر قيصر كذلك، وبصفة خاصة، بزوج عمته ماريوس الذى وصل بمواهبه العسكرية لمنصب قنصل روما، ونجح فى حمايتها من غزو جرمانى عات كاد يدمرها، فتعلم الفتى قيصر من سيرة ماريوس دور القوة والبأس والحزم فى نجاح القائد العسكرى، وظهوره على عدوه، وحرص قيصر فى سنوات مراهقته على حضور مجلس ماريوس، وإثارة اهتمامه به كفتى له مستقبل ويستحق أن يصبر القائد العجوز على اندفاعه وحماسه !!

انعكست علاقة قيصر بوالدته، وارتباطه به فى نوع من الترف، الذى تبدى فى اعتناء الشديد بمظهره، إرضاء لأمه والتزاما بتعليماتها، والتزاما فى الوقت نفسه بنوازعه الفطرية، وشعوره بذاته، فكان الصبى قيصر بالغ العناية بملابسه وشعره، يمشطه على نحو خاص، حتى كان زملاؤه فى المدرسة يضحكون من اهتمامه الزائد بشعره، ومن النمط الخاص الذى يتبعه فى ملابسه ومظهره العام، أما هو فكان فخورا بذلك، يشعر بأنه يعبر عن ذاتيته وتفرده، ونوازع تفرده التى أخذت تنمو مع الأيام.

(١) الرواقيون هم أتباع زينو الفيلسوف القبرصى، الذى ولد عام ٣٤٢ق.م، والفلسفة الرواقية هى نقيض فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو، التى تقوم على أساس البحث النظرى الخالص، أما الرواقيون فلم يهتموا بالآراء النظرية إلا بقدر أثرها العملى فى الحياة، والفلسفة كما عرفوها هى الفضيلة كفن عملى يمكن تطبيقه فى الحياة.

ومع هذه الخيلاء والميوعة الأنثوية التى لم تكن مستكرة فى مجتمع مادى وثنى كمجتمع روما، فقد حرص قيصر على إتقان اللغة اليونانية، ودراسة آدابها، والتدرب على ركوب الخيل وترويضها، والتدرب على فنون الحرب والقتال، حتى حاز إعجاب ماريوس، وإعجاب أترابه فى روما، وبدأ يشق طريقه نحو المجد والسلطة.

كما تأثر قيصر فى طفولته وشبابه الباكر بجو العنف والشراسة والصراعات السياسية والعسكرية فى روما، والخصومات والمكائد فى مجتمع يقوم المجد فيه على جناحى البأس فى الحرب، والتمكن من فنون الكيد والتآمر، وقد كان الصراع الأول الذى انخرط فيه بقلبه ومشاعره، صراع بين ماريوس (زوج عمته) وقائد رومانى آخر يسمى (سلا)، كان يشغل منصب قاضى القضاة فى روما، وكان قيصر بالطبع فى جانب ماريوس أستاذه وقدوته، وبرر قيصر انحيازه لماريوس بأسباب موضوعية بعيدة عن صلة النسب بينهما، وشجعه فى انحيازه أن عائلة أمه لم تكن فى جانب سلا، فـ" ماريوس بكل أخطائه الفاحشة كان يمثل قوات أعظم من نفسه، قوات من لحم ودم، قادرة على الحياة والنماء والامتداد عبر التاريخ، أما سلا فكان يبسط يدا ميتة، تعوزها الحياة، فكبرياؤه وجشعه، كانا ينبثقان من أنانية متأصلة جليدية، بدا زهو ماريوس بجانبها ضربا من السماحة والسخاء، فالقوات التى كان يمثلها سلا، هى قوات التقلص واستحالة الغضاريف إلى عظام نخرة، ولا بد أننى كنت فى االتاسعة أو العاشرة من عمرى عندما اتصلت بسلا لأول مرة،، ولكنى دون شك كنت قد سمعت عنه الكثير قبل ذلك... فتحيزت إلى جانب عمى، كما سرنى أن أجد أن أفراد أسرة أمى أيضا لم يكن فى جعبتهم لسلا سوى القليل من الكلمات الطيبة،كانوا يرتابون فيه بحق إذ يعتبرونه سياسيا رجعيا معدوم الضمير، كما كانوا يشمئزون من حياته الخاصة ".

فى التاسعة من عمره كان الصبى قيصر شغوفا بمتابعة سير قواد روما وعظمائها، حريصا على الموازنة بينهم، والتعلم من سيرهم وشمائلهم.. لذلك لا عجب أن يصير أحدهم يوما ما !!

كما لخص قيصر فى كلماته السابقة فلسفته فى فن القيادة والصفات التى سيلتزم بها حين يصير فى موقع القيادة..

فى سنواته الأولى لم يكن قيصر محبا لرياضة مصارعة الحيوانات المتوحشة فى ساحات روما، منطلقا من فكرة رفض ذبح مخلوقات نبيلة لا ذنب لها لمجرد التسلية والترويح عن النفس، ورغم أنه اضطر فى السنوات اللاحقة أن يكون بطلا من أبطال تلك الرياضات، ومنظما لمبارياتها، كى يحظى بتعاطف شعب روما، الذى كانت تستهويه تلك المسابقات الرياضية الدموية، خاصة فى فترات السلم، فإنه يحكى عن نفسه كيف كان ينصرف فى معظم العروض لما يلهيه عن التطلع إليها، مثل قراءة أو إملاء بعض الرسائل، دون أن يهتم بالنقد الذى يوجهه له أبناء طبقته، لانصرافه عن هذا النشاط الشعبى الهام، فقد تحول فى نظر الشعب إلى قائد مجتهد، لا يضيع لحظة واحدة فى اللهو، وينتفع بكل وقته من أجل روما، وشعبها !!

مخايل القيادة تبدو عليه منذ الصغر:

لندع قيصر يحكى تلك الحادثة التى تعكس شخصيته فى تلك المرحلة المبكرة من حياته، والتى لم تغب عن ذاكرته حتى الأيام الأخيرة من حياته المزدحمة بالأحداث العظام، يقول قيصر:" فى أحد الأيام التى تلت عرضا قدمه سلا رحت أجوب الطرقات مع عصبة من صغار الصبيان الذين كانوا يعتبروننى زعيما لهم، وشرعت فى تنظيم مظاهرة بطريقة صبيانية، كنت خلالها أرفع عقيرتى بأقصى ما أستطيع موجها أسئلة كهذه:

من أنقذ روما من الجرمانيين: سلا أم ماريوس؟ من أحرز النصر فى

الحرب الإفريقية: سلا أم ماريوس؟ فترد على عصبتى الصغيرة بصوت مدو قائلة: "ماريوس"، وكنت أود أن أتظاهر أيضا ضد ذبح الأسود، ولكنى تحققت أن هذا لم يكن بالأمر المستحب حتى بين أفراد عصبتى الصغيرة من الأنصار.

والذى حدث أن ترديد اسم ماريوس وذِكر انتصاراته أبهج الجماهير لأن مارى رجل الشعب كان لا يزال ذا سلطان كبير على عواطف المواطن الرومانى العادى، وكذلك لأن منظر مثل هؤلاء الصبية الصغار وهم يقومون بمظاهرة سياسية كان مادة للتفكه والدعابة، ولم تمض فترة طويلة حتى بدأ آخرون كثيرون من الجمهور يشتركون فى ترديد الهتاف الجماعى مشيدين بتفوق ماريوس على سلا، وحينئذ راح يغمرنى شعور غريب من النزوع الجياش والرضا الغامر، فقد وجدت أن كلماتى وأفعالى الخاصة (فكل هذا من بنات أفكارى)، أخذت فى الانتشار متغلغلة إلى عقول ومشاعر دائرة متزايدة من الناس، ولعل هذا كان أول تجربة لى فى السطوة والنفوذ، وهى تجربة لم تكن فى جملتها جديرة بالاعتبار، ولكنها كانت ملائمة وذات مغزى.

وفجأة لاحظت فى بعض الهلع أن دوى الصوت الذى كان يتابع، فى ترحاب، أسئلتى المرتفعة أخذ يتضاءل تدريجيا فى مبدأ الأمر، ثم فى سرعة كبيرة، وفى الحال أدركت السبب، فسلا نفسه ومن حوله الجلادون بأبدانهم الفارعة، يحملون القصاب والفئوس وتتبعه زمرة من الشبان يمتطون الجياد، كان آخذا فى الاقتراب منهم، وحتى بدون الجلادين لم يكن أحد ليخطئ الرأس الذهبى أو قوام الرجل السمهرى، ولذلك صمتت الجماهير لدى وصوله، خشية منه، لا حبا فيه، فقد كان الهتاف له أقل مما يجب توقعه بالنسبة لمن هيأ لهم أسباب المتعة فى بذخ وإسراف.

ولاحظت أيضا أنه بينما كان بعض فرقتى من الصبيان يشخصون بأبصارهم إليَّ كما لو كانوا يستمدون الطمأنينة والعون، بينما راح الآخرون يسترقون النظر من فوق أكتافهم، باحثين كما كان واضحا عن طريق جانبى

مريح يتسللون إليه، فأحنقنى هذا الفرار المدبر، ولكنى تمالكت نفسى واخفيت شعورى، ونظرت إليهم فى بسمة ثم خاطبتهم بملء صوتى (كان صوتى آنئذ نشازا يعوزه التهذيب ولابد أنه بدا مضحكا) مرددا هذه الكلمات:

(يحيا ماريوس الذى يقتل الجرمانيين بدلا من الحيوانات !! يحيا ماريوس منقذ بلاده !!).. فشاركنى جميع الصبيان فى (يحيا ماريوس منقذ بلاده !!)

وآنئذ أخذ لفيف من الجمهور يشترك فى الهتاف والتصفيق، فأخرسهم على الفور صوت سلا الملىء وهو يأمر جلاديه بالوقوف، وحينئذ لاحظت كيف أن أولئك القريبين منه فى الشارع الجانبى أخذوا يرجعون القهقرى، كما لو كانت النيران أحاطت بهم،وأمسكت بأطراف ملابسهم، وثمة شىء يشع دون شك فى النظرة التى التى كانت تنبعث من عينى سلا الزرقاوين الواسعتين، نظرة ليس فيها من الغضب بقدر ما فيها من السيطرة والاحتقار المهين، لأن سلا كان دائما يحتقر جماهير الناس مهما كانت طبقتهم، إلا إذا كانوا جنود كتائبه الذين يحرص على ضمان تعلقهم به.

أما أنا، كمتزعم للمظاهرة، فكنت واقفا على عربة يد صغيرة رفعتنى فوق الآخرين، فحول سلا بصره فى بطء نحوى ثم قال:

(يا غلام، عليك أن تتعلم كيف تحسن السلوك، وإلا فسأجعلك تحس وطأة سلطانى)، ووضع نبرة قوية خاصة لتأكيد ضمير المتكلم لدى تلفظه بكلمة (سلطانى)، وإنى لأستطيع أن أذكر صوته حتى هذا اليوم، بيد أن ما أذكره فى جلاء بنوع خاص، إنما هو شعور الإثارة الحاد الذى غمرنى، وكذلك شعورى بالدهشة إذ لم أجد نفسى خائفا على الإطلاق لا من التهديد ولا من الرجل نفسه !!

حينئذ دار فى نفسى بعض الاستخفاف، فرحت أرد عليه فورا بصوت مرتفع قليلا:(نعلم جميعا أنه سلطانك، وهو لك أنت دون شك، لكنك

اشتريته عند الانتخابات)..

ولم يكن هذا التعليق ليكشف عن بديهة فكهة حاضرة، ولكنه أُخذ آنذاك على هذا المحمل، فضج بعض الحاضرين بالضحك، أما فيما يتعلق بى، فما كادت هذه الكلمات تخرج من فمى حتى انتظرت فى إصرار يشوبه بعض الهلع كى أرى ماذا ستسفر عنه، ولو أنى كنت أكثر خبرة لفطنت إلى أنه لم يكن ثمة ما يدعو للخوف، لأن سلا، دون شك، فى هذه المرحلة من حياته كان أشد ذكاء من أن يشتبك بنفسه مع صبى صغير فى حادث علنى، فرمقنى بنظرة واحدة من عينيه النفاذتين المزعجتين، وكانت نظرة قدر لى أن أراها مرة ثانية فى ظروف اجل شأنا وأشد خطرا، ثم استأنف سيره، وعندئذ اندفع شباب الفرسان الذين كانوا فى معيته بجيادهم وسط الزحام كى يُرغموا الناس على التشتت وإخلاء الطريق، فراحوا يتزاحمون بالمناكب وهم يسبون ويحرقون الارم، ودون أن يذكروا ولو لبضع لحظات ذلك الحادث الذى كان قد وقع وشيكا.

وعلى الرغم من ذلك فقد أثار هذا الحادث بعض اللغط، وعندما عدت إلى المنزل آخر النهار، وجدت أن الشائعات عنه قد سبقتنى، فرويت لأمى القصة برمتها، وقد آخذتنى وشددت على النكير، بيد أن بسمة خفيفة كانت تداعب شفتيها خلال مؤاخذتها لى، وقد حرصت، كما اتضح لى فيما بعد، على أن يطلع ماريوس على هذا المثال من حماسة ابن صهره.

وعلى الرغم من تفاهة هذا الحادث، فقد كان له بعض الاعتبار فى نظرى، وطالما استعدت ذكراه ووقفت عندها مليا، فشجعتنى هذه الذكرى على الاعتقاد بأنه فى الإمكان أن يتجرد المرء تماما فى لحظات معينة حاسمة من الخوف، وأن تضفى هذه الحالة من التجرد طاقة عجيبة، وإحجاما متوثبا على البدن والعقل، وهما صفتان فى المقدور أن يتأثر بهما الآخرون عن طريق التخاطر أو انتقال المشاعر "..

قيصـــــــــر...
وموعد مع السياسة

قيصر وموعد مع السياسة..

كان النظام السياسى فى الجمهورية الرومانية مرتبطا بمجلس الشيوخ، والذى كان كما قلنا أقوى الهيئات سلطة ونفوذا فى روما، وقد قدر لقيصر أن يحيا الفترة الأخيرة فى حياة الجمهورية الرومانية، كما رأينا، ولأنه كان منتميا لطبقة الأشراف التى تهيمن على المجلس، فقد كان الطريق مفتوحا أمامه لعضوية المجلس، والمشاركة فى إدارة شؤون روما.

كان السيناريو التقليدى لأبناء الأشراف فى ذلك العهد، أن يلتحق الشاب من هؤلاء بالعمل كموظف حكومى صغير، وبعد فترات منتظمة حددتها القوانين يصبح من حقه التقدم لشغل مراكز أعلى، فإذا أظهر كفاية والتزاما، فيمكنه أن يصبح قاضيا للقضاة، أو قنصلا، وهما أعلى منصبين فى روما إذ ذاك، إذ كان شاغلهما مخولا بإدارة المحافظات وقيادة الجيوش، وإدارة الشئون العامة فى البلاد.

وعلى صعيد الحياة السياسية، ونخبتها فى روما، فلم تكن الحياة مثالية كما يحكى قيصر، فقد أدرك فى فترة مراهقته حقيقة المجتمع السياسى فى روما، وكيف كانت رذائل مثل:

الجشع والطمع والحسد والأنانية المحضة متفشية فى النخبة السياسية، واكتشف أن المجتمع البشرى فى روما لا يقل ضراوة عن أى حشد من الحيوانات المتوحشة، وقطعان الذئاب، حسب وصفه، أو كما يقول عن العقدين الأولين فى حياته:" وفى تلك الأيام لم يكن من السهل على صبى - كما أنه لم يكن من السهل على رجل كامل النمو - أن يدرك سريعا، ودون وساطة، مدى ما كان عليه المجتمع الذى ولد فيه، من اضطراب وتميع

وتذبذب، وانزاحت الغشاوة عن بصيرتى فيما كنت أنسبه إلى الدستور الرومانى من إنصاف..".

وكانت ثمة واقعة أثرت تأثيرا شديدا فى تكوين قيصر، وتكوين فلسفته فى عالم السياسية، إنها واقعة نفى روتلليس روفس..

كان روتيللس أحد أفراد عائلة قيصر، بدأ فى سلك الجندية وأبدى فيه شجاعة كبيرة، أهلته ليشق طريقه السياسى كمحلف وخطيب وعضو بارز فى مجلس الشيوخ، وكما يحكى قيصر فقد كان روتيللس سياسيا أمينا مستقيما يسير عكس التيار فى روما، بأمانته ونزاهته ومحاربته للفساد المالى الذى كان سائدا آنذاك، فاستهدفه رأسماليو روما وبدءوا فى حربه، وسعوا للخلاص منه، وأثاروا ضده اتهامات "مضحكة " كما وصفها قيصر، واتهموه فى ذمته المالية، ونجحوا فى النهاية فى محاكمته. وفى المحكمة كان روتيللس مثاليا أكثر مما يحتمله الوضع فى روما، فتولى بنفسه الدفاع عن شرفه ونزاهته، رافضا الاستعانة بأى من المحامين البارزين، آنذاك، كذلك رفض أن يستثير عطف المحلفين، كما كان متبعا إذاك، ورفض أن يتصل بأى منهم، أو بزملائه فى أعضاء مجلس الشيوخ لمساعدته فى دفع التهمة، ورفض أن يشترى براءته بماله أو نفوذه، وأثناء المحاكمة انطلق لسانه بالإدانة للفساد والجور فى روما، فكان متوقعا أن يصدر الحكم عليه بغرامة تفوق ما يمتلكه، وواصل روتيللس تمسكه بمبادئه فرفض معاونة أصدقائه وعرضهم عليه أن يساعدوه فى سداد الغرامة، ليكون القرار نفيه فى إحدى المدن الآسيوية التابعة لروما، وليخرج قيصر بالدرس الكبير:" عندما تعمقت فى تمحيص شخصية روتيللس نفسه لاحظت نقطتين جديرتين بالاعتبار، الأولى وكانت واضحة هى أن الفضيلة إذا لم تدعمها قوة مادية فقدرتها على الصمود إزاء أى هجوم منظم محدودة أو معدومة، وإذا هوجمت فعلا فلن تستطيع أن تكون ذات أثر، إذا كان لها أى تأثير على الإطلاق، إلا عن طريق الاستشهاد

فى صورة ما، والثانية أنه على الرغم من أنه كان لروتيللس أصدقاء من علية القوم البارزين الذين اقتصرت عليهم صداقته، فلم يكن له حزب خاص به، يدين له بالولاء على أساس من الحب أو الدعاية أو الإفادة من مبادئه، على أن يتألف، إذا كانت تراد له السطوة حقا، من عناصر طيبة ورديئة غير مكترثة، ولابد أن هذه التأملات ساعدتنى لا شك فى الوصول إلى ما قررته فيما بعد، وهو ألا أسمح لنفسى أن اكون شهيدا، إلا عن طريق الصدفة، وهذا ما لا يملك أحد تلافيه، وبينما أظل ثابتا على مبادئى وفيا لأصدقائى، أسلم بقدر معين من المرونة فى الأولى، وأتخير مجموعة متضخمة متباينة من الآخرين.."..

كان منزل الأسرة أشبه بمنتدى سياسى خاص، وكان للنقاشات السياسية التى تدور فيه دور كبير فى تشكيل وعى قيصر السياسى، والاطلاع على الأحوال العامة فى روما، والالتقاء بكبار رجال السياسة فى ذلك العصر، والإنصات إليهم بشغف، والتأمل فيما يقولونه، وما يأتونه من أفعال، كان منزل الأسرة هو المدرسة السياسية التى تفتح عليها وعى قيصر الصبى والمراهق، ومصدرا رئيسيا من مصادر المعرفة والتربية السياسية التى تلقاها.. وكانت الحياة فى روما هى المعلم الثانى..

الحياة السياسية فى روما

عرف الرومان ثلاثة أنواع من أنظمة الحكم هى: الملكية، والجمهورية، والإمبراطورية.

(أ) ـ العهد الملكى:

وكان يحكم روما منذ نشأتها ملك يتولى العرش بالانتخاب ويعد من سلطانه هيئتان هما: مجلس السناتوس (الشيوخ) والجمعية الكورية.

مجلس السناتوس (الشيوخ):

كان يطلق عليه مجلس الشيوخ ويطلق على أعضائه الآباء. وهذا المجلس كان استشاريا وليس له حق تشريعى، ولكن هذاالمجلس استحوذ على سلطات أوسع كثيراً مما أريد له عند إنشائه. ويتكون من مائة عضو يختارهم الملك، وفى العهد الجمهورى كان القناصل يقومون بهذا الاختيار. وأعضاء هذاالمجلس يعتبرون أفضل رجال المجتمع، ومدة عضويتهم تستمر مدى الحياة، ويختص هذاالمجلس بإصدار القرارات، ومباشرة السياسة الخارجية للدولة.

الجمعية الكورية:

وهذا المجلس يمثل عموم الشعب، ويتكون من ثلاثين عضواً ويهتم بالاختصاصات الدينية، ولم تستطع هذه الجمعية أن تحافظ على اختصاصاتها طويلا، فإنها جردت منها شيئاً فشيئاً فى العصر الملكى نفسه.

(ب) ـ العهد الجمهورى:

بدأت فترة جديدة من الحكم الرومانى عندما أسقط مجلس السناتوس الحكم الملكى. وشهدت روما تغييرا كبيراً فى توزيع السلطات إذ حل محل الملك قنصلان متعادلان فى السلطان ويكون كل منهما رقيبا على الآخر. وألغيت الجمعية الكورية، وأصبح توزيع الاختصاصات فى هذا العهد مقصورا على القنصلين ومجلس السناتوس(الشيوخ)..

مجلس السناتوس (الشيوخ):

ظل قائماً طوال العهد الجمهورى فى روما، وزاد عدد أعضائه ليصبح ثلاثمائة عضو وقيل إنه زيد إلى ستمائة فيما بعد. وأما عن اختصاصات المجلس فهو المختص بالعلاقات الخارجية، وبعقد المعاهدات والمحالفات، وإبرام الصلح، وإعلان الحرب، وحكم الولايات، وإدارة الأراضى العامة وتوزيعها، والإشراف على سياسة الإنفاق المالى. وقد أدى انفراد مجلس

السناتوس بهذه الأمور إلى إعطائه سلطات لا يكاد يعرف لها حدود جعلته صاحب السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

المجلس المئوى:

مجلس استشارى يجتمع بدعوة من القنصل ولا يبحث إلا فيما يعرضه عليه مجلس السناتوس من أمور وعندئذ لا يستطيع أن يناقش الاقتراحات أو أن يعدل فيها بل كل ما كان يملكه أن يقبلها أويرفضها.

المجلس القبلى:

سمى بهذا الاسم لأن المقترعين فيه كانوا ينظمون حسب القبيلة التى ينتمون إليها، وهذا المجلس أظهر صوت العامة لأن العضوية فيه لم تكن على أساس الثراء، وإنما كان الأغنياء والفقراء سواء فى حق الانتساب إليه. وقد زادت سلطة هذا المجلس مع الوقت بسبب اعتراف مجلس الشيوخ بحقوقه التشريعية.

(ج) ـ العهد الإمبراطورى:

فى النظام الإمبراطورى تمركزت السلطات بيد السلطة التنفيذية، وعلى رأسها الإمبراطور والذى كان الحاكم المطلق وقائد الجيش الأعلى، ولم يبق لمجلس الشيوخ أو السناتوس إلا ظاهر السلطة. وعليه فإن فى هذا العهد لم يكن هناك وجود لأى من المجالس السابقة سوى مجلس السناتوس !!

ألقاب حكام روما

فى الحياة السياسية فى روما سنجد العديد من الألقاب التى أطلقت على القائمين على أمور السلطة والحكم، ومن أهم تلك الألقاب:

ـ " الملك": كان يحكم روما منذ نشأتها ملك يتولى العرش بالانتخاب ومن حقه اختيار أعضاء مجلس الشيوخ، ولقد كانت رغبة الملوك كبيرة فى السيطرة على الحكم واستخدام الحكم المطلق المستبد وتقليص سلطات

مـجلس السنـاتوس، مما أدى إلى دخـول الملوك فى صـراعـات مع مـجلس السنـاتوس، إلى أن تمكن المجلس من إسـقـاط الحكم الملكى، وإقـامـة النظام الجمهورى وانتخاب القناصل.

- "القنصل الرومانى": وجد هذا النظام فى العصر الجمهورى بعد طرد الملك المتغطرس، وكان ينتخب قنصلان لمدة عام واحد، وكان اختـيارهم يتم بالانتـخـاب المبـاشـر بواسطه الشعب ممثلا فى تنظيـماته القبلية المعروفة بالجمعية المئوية، وفى الحقيقه كانت سلطات القناصل محدودة إلا فى حالة الحـرب، فقد كانا يعطيان سلطات استثنائية وهى: "الأمبيروم " المتمثل فى حقهما فى تجنيد جيش من الشعب وقيادته خارج البلاد.

-" البـريتـور": وتـخـفـيـفـا للعبء الذى يقع على كـاهل القنصلين، ابتكر المشرعون الرومان وظيفة جديده ألا وهى البـريتـور القضائى، لان القنصلين لم يكن لهمـا القـدرة على تصـريف الشؤون العسكرية والقـضـائيـة فى نفس الوقت، فعين البـريتور المدنى أو القضـائى لتصـريف العدالة داخل العـاصمة، وقد امتدت سلطاته فيما بعد للإشراف على تطبيق القضاء داخل المقاطعات والولايات داخل إيطاليـا وخـارجـهـا بواسطه وكـلائه، ولان البـريتـور جـزء من وظائف القنصلية فقد منح حق الأمبريوم والنيابة عن القنصل فى عمله أثناء غيابه، وكان البريتور ينتخب أيضا سنويا.

- "الدكتـاتور": هو لقب كان يمنح لقاضٍ يعينه مجلس الأعيـان فى رومـا القديمة ليحكم الدولة فى أوقات الطوارئ والأزمات. وفى الاستخدام الحديث للكلمـة يشـار بهـا إلى الحكم الفـردى أو الحـاكم المطلق السلطة الذى لديه القـرار والحكم الشـامل فـى دولة مـا (هذا التـوصـيف لا يشـمل عـادة الحكم الملكى المطلق).

دكتـاتورات رومـا كانـوا يعينـون عن طريق مـجلس، وكانـوا يحصلـون على سلطة على المواطنين، ولكن فى الأصل كـان سلطتـهم مـحـدودة زمنيـا بسـتـة

أشهر ولم يكن لديهم سلطة على أموال المواطنين، وفيما بعد سنجد أن "لوكيوس كورنيليوس سولا ويوليوس قيصر"، قد تجاوزا هذه الحدود وحكما دون هذه الضوابط. وقد تخلى الرومان عن شكل الدكتاتورية المؤسساتية التى كانت متبعة، وذلك بعد مقتل يوليوس قيصر.

ومن خواص الدكتاتورية أن تقصى العامة عن الحكم، ويترتب على هذا أن يفقد الناس كل اهتمام بشؤون الدولة. ولا يؤدون واجباتهم العامة إلا مكارهين، وقد حدث هذا فى الإمبراطورية الرومانية، حينما كان أبناء الأسر الكريمة يُكرهون اكراها على الاضطلاع بأعباء الحكم والاشتراك فى إدارة الإمبراطورية، وكانوا حين يشتركون يمقتون عملهم ويتطلعون إلى ذلك اليوم الذى يتخلصون فيه من الوظيفة إلى الحياة الاجتماعية الحرة، وقد جعل المؤرخ Unwin هذه الظاهرة من أهم أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية.

(ج) - العصر الإمبراطورى:

فى العصر الإمبراطورى ظهرت ألقاب:

- " أغسطس": انفرد جايوس أوكتافيوس بحكم الإمبراطورية الرومانية وأُعطيت له سلطة الامبريوم أى قيادة القوات العسكرية ومنحه مجلس الشيوخ السناتوس لقب" أغسطس"، وهو اسم لاتينى معناه الجليل والمبجَّل، واللقب يوحى بالألوهية حسب عادة الآلهة الوثنية وقد استمر الحكام فى وراثة الاسم من بعده.

- " إمبراطور": كما منح أوكتافيوس أيضا لقب" إمبراطور" IMPERATOR أى القائد المنتصر.

- "المواطن الأول": وعندما تجمعت جميع السلطات فى يده لم يعد هناك منصب يتسع لكافة هذه السلطات، فقاده دهاؤه السياسى إلى ابتكار منصب جديد فأطلق على نفسه لقب preinceps أى "المواطن الأول" وفى عام ٢٣ ق.م أعلن الإمبراطورية.

مولد الجمهورية الرومانية

وهنا تستحيل الرواية التاريخية أدباً، ويمتزج نثر السياسة بشعر الغرام. انظر مثلاً إلى ما يقوله ليفى وهو أن (تس تاركوين) tus Tarquin ابن الملك كان فى معسكر أبيه فى إحدى الليالى يناقش (لوسيوس تاركوينيوس كلاتنس Lucius Tarquinius Collatinus) أحد أقربائه فى فضائل زوجتيهما وأيهما خير من الأخرى، فعرض عليه كلاتنس أن ينطلقا على ظهر جواديهما إلى روما ويفاجئا زوجتيهما بزيارتهما فى أواخر الليل. فوجدا زوجة (تس) فى وليمة مع بعض صاحباتها، أما (لكريشيا Lucritia) زوجة كلاتنس فكانت تغزل الصوف لتنسج منه ثياباً لزوجها. وتاقت نفس (تس) ليجرب وفاء لكريشيا ويستمتع بحبها، فما كان منه إلا أن عاد فى السر بعد بضعة أيام من ذلك الوقت إلى بيت لكريشيا وتغلب عليها بدهائه وقوته. وأرسلت لكريشيا تستدعى أباها وزوجها، وأخبرتهما بما حدث لها، ثم انتحرت بطعنة خنجر..

دور لوسيوس بروتس فى القيام بالثورة

وعلى أثر ذلك أهاب لوسيوس جونيوس بروتس Lucius Junius Brutus أحد أصدقاء كلاتنس بجميع الصالحين من الرجال أن يطردوا آل تاركوين كلهم من روما. وكان - بروتس - هو نفسه ابن أخى الملك، ولكن تاركوين كان قد قتل أبا لوسيوس بروتس وأخاه، فتظاهر بروتس بالجنون حتى يبقى تاركوين على حياته فيثأر لمقتل أبيه وأخيه، ولذلك سمى بروتس Brutus أى الأبله. فلما وقعت هذه الحادثة ركب بروتس مع كلاتنس إلى العاصمة ليقص قصة لكريشيا على مجلس الشيوخ، وما زال به حتى أقنعه بوجوب إخراج الأسرة المالكة كلها من روما. وكان الملك فى أثناء ذلك قد ترك الجيش وعاد مسرعاً إلى العاصمة، وعلم بروتس بهذا فسار إلى الجيش على جواده وقص عليه مرة أخرى قصة لكريشيا، وكسب بذلك معونته وتأييده. وفر تاركوين إلى بلاد إتروريا وطلب إلى أهلها أن يعيدوه إلى عرشه.

اختيار القنصلين

ودعيت فى روما وقتئذٍ جمعية من أهلها الجنود فاختارت بدل الملوك الذين كانوا يختارون مدى الحياة قنصلين متعادلين فى السلطان، كلاهما رقيب على الآخر ومنافس له، يحكمان مدة عام واحد. وتقول الرواية إن القنصلين الأولين كانا بروتس وكلاتنس، ولكن ثانيهما استقال من منصبه فاختير بدله ببلوس فالريوس Publius Valirius الذى لقب فيما بعد ببلكولا - Publicolaأى "صديق الشعب"- لأنه تقدم إلى الجمعية بعدة قوانين ظلت من القواعد الأساسية فى دستور روما وهى: أن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكاً يجوز قتله من غير محاكمة؛ وكل من يحاول أن يتولى منصباً عامّاً من غير رضاء الشعب يعاقب بالإعدام؛ وكل مواطن يحكم أحد الحكام بإعدامه أو جلده يحق له أن يعرض أمره على الجمعية. وفالريوس هو الذى سن السُّنة التى كانت تحتم على القنصل إذا أراد أن يدخل الجمعية أن يفصل رأس البلطة عن مقبضها ويخفضها إشارة إلى سيادة الشعب، وإلى أن عقوبة الإعدام فى وقت السلم من حق الشعب وحده.

أدت هذه الثورة لنتيجتين مهمتين: أولاهما أنها حررت روما من سلطان التسكانيين، والثانية أنها استبدلت بحكم الملوك حكم الأشراف الذين ظلوا يحكمونها إلى عهد قيصر. أما الفقراء من المواطنين فلم تنصلح أحوالهم بعد الثورة بل ساءت عما كانت عليه؛ فقد طلب إليهم أن ينزلوا عن الأراضى التى وهبها لهم سرفيوس، وخسروا ذلك القسط الضئيل من الحماية من سلطان الأشراف، وهو الذى كان لهم فى عهد الملكية. قال الظافرون إن الثورة كانت نصراً مؤزراً للحرية، ولكن الحرية فى لغة الأقوياء لا يقصد بها فى بعض الأحيان إلا التحررمن القيود التى تحول دون استغلال الضعفاء.

تحالف آل تاركوين مع التسكانيين

وكان إخراج آل تاركوين من روما، مضافاً إلى هزيمة التسكانيين على يد المستعمرين اليونان فى كومية Cumae عام ٥٢٤ نذيراً بزوال زعامة

التسكانيين من وسط إيطاليا. ومن أجل هذا فإنه لما لجأ إليهم تاركوين، استجاب لدعوته لارس بورسنا Lars Porsena، أكبر الحكام فى كلوزيوم Clusium فحمع جيشاً كبيراً من مدن إتروريا المتحدة وزحف به على روما. ودبرت فى روما نفسها - فى الوقت نفسه مؤامرة ترمى إلى إعادة آل تاركوين إلى عرش روما. وقبض على المتآمرين، وكان من بينهم ابنا بروتس، وضرب هذا القنصل لكل من جاء بعده من الرومان أحسن الأمثلة فى الجلد والخضوع لحكم القانون ؛ إذ شهد بعينه ولديه يجلدان ثم يضرب رأساهما وهو صامت لا ينبس ببنت شفة -أو لعل هذه قصة تروى وليست حقيقة واقعة.

ودمر الرومان الجسر العام على نهر التيبر قبل أن يصل إليهم بورسنا. وقد خلد هوراشيس ككليز Horatius Cocles اسمه فى الأغانى اللاتينية والإنجليزية بدفاعه عن رأس هذا الجسر ولكن روما استسلمت لبورسنا على الرغم من هذه الأسطورة وغيرها من الأساطير التى أراد بها المهزومون أن يكللوا هاماتهم بالمجد. ونزلت عن بعض أملاكها إلى فياى Veii والمدن اللاتينية التى كان ملوك روما قد انتهبوها وأظهر بورسنا للمدينة المغلوبة بعض المجاملة إذ لم يطلب إعادة آل تاركوين إلى العرش. وكان الأشراف فى إتروريا قد طردوا منها أيضاً الملوك.

ظلت روما بعد هذه الاضطرابات ضعيفة مدى جيل من الزمان، ولكن ما خلفته الثورة من نتائج ظل باقيًا دائم الأثر. وقد قضت هذه الثورة على قوة التسكانيين، ولكن آثار النفوذ التسكانى ودلائله ظلت باقية فى الحضارة الرومانية إلى آخر أيامها.

الجمهورية الرومانية

امتدت الجمهورية الرومانية القديمة، من القرن السادس قبل الميلاد، إلى القرن السابق على الميلاد، وهى المرحلة من تاريخ الرومان، التى تبنوا فيها نظاما جمهوريا للحكم. بدأت بعد إسقاط الملكية فى ٥٠٩ ق.م، ودامت حوالى ٤٥٠ سنة، حتى سقوطها، بعد مراحل الحروب الأهلية التى شهدتها، لتصبح إمبراطورية.

ليس هناك دقة فى تحديد زمنى لسقوط الجمهورية، لكن المؤرخين اتفقوا على أن تعيين يوليوس قيصر كديكتاتور فى ٤٤ ق.م، ثم معركة أكتيوم (٢ سبتمبر ٣١ ق.م)، ثم إعطاء اوكتافيوس السلطة الشاملة من السناتوس (٢٧ ق. م) كمؤشرات بارزة لنهاية النظام الجمهورى.

أسقطت ثورة الشعب الرومانى الملك الطاغية (تارلينيوس) واعتبر الرومان عام (٥٠٩ ق.م) مفترقاً أساسيّاً فى حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأطلقوا عليه اسم (عام المجد) وكان ذلك بعد سلسلة من الأحداث السياسية والعسكرية التى لاتزال غامضة حتى وقتنا الحاضر، وتوصل الشعب الرومانى إلى تنظيم جديد للسلطة فى روما.

وابتداءً من ذلك التاريخ بدأت العملية الفعلية لبناء الجمهورية الرومانية، فعملوا على التوسع الجغرافى حيث وضعوا نصب أعينهم هدفاً أساسيا ينحصر فى التوسع الجغرافى باستخدام القوة العسكرية والسياسية والإقتصادية، ورأوا بأن هذه الطريقة هى الأفضل لتحقيق طموحات هذه الدولة الفتية، فبدأوا بحروب شبيهة بالغزوات القبلية المحدودة تستهدف إخضاع العشائر والعائلات المحيطة بروما، وكان ذلك خلال مراحل قيام الجمهورية الأولى التى قامت بتأسيس الإمبراطورية الرومانية، ثم بدأت مرحلة قيام الجمهورية الثانية التى شهدت تحول الدولة الصاعدة من قوة لاتينية داخل شبه الجزيرة الإيطالية إلى قوة عسكرية عالمية تتأثر بمايجرى وتؤثر فى مركز العالم القديم (حوض البحر الأبيض المتوسط). وفى هذه المرحلة انتهت حروب روما داخل شبه الجزيرة الإيطالية، وبدأت حروب الرومان مع الفينيقيين (القرطاجيين) التى كانت مدينة قرطاجة الكائنة فى شمال أفريقيا عاصمة لهم، وقد سميت هذه الحروب (بالحروب البونيقية Punic Wars)..

إثر الانتهاء من درء الخطر القرطاجى اتجهت أنظار الرومان شرقاً وأصبحوا يفكرون فى الاستيلاء على مملكة مقدونيا، وبالفعل أعلنوا عليها

الحرب وكان لهم أهداف تتمثل فى:

ـ الحد أو القضاء على النفوذ المقدونى فى الشرق.

ـ السيطرة على الجُزر الواقعة فى شرق حوض البحر الأبيض المتوسط نظراً لأهميتها البالغة على صعيد الملاحة والتجارة.

ـ الوصول إلى أراضى المملكة السلوقية التى كانت تسيطر على أجزاء من آسيا الصغرى وشمال سوريا.

وبعد تحديد تلك الأهداف، شن الرومان سلسلة من المعارك انتهت باحتلال كامل للأراضى المقدونية فى الشرق وتم السيطرة على بلاد الإغريق (اليونان) . وبنهاية هذه الحروب اتسعت حدود الجمهورية الرومانية من إسبانيا غرباً إلى السواحل الغربية لآسيا الصغرى شرقاً، بالإضافة إلى الأراضى القرطاجية فى شمال إفريقيا، وقسمت هذه الأراضى الشاسعة إلى سبع مقاطعات مرتبطة بالحكومة المركزية فى روما.

وبعد هذه الانتصارات أصبحت الدولة الرومانية دولة عظمى يصعب قهرها وتتحكم بمقدرات العالم القديم الغربى والشرقى، وفى هذه المرحلة بدأ التاريخ الرومانى يضج بأسماء القادة والزعماء المنتصرين، وتحولوا إلى طبقة حاكمة تؤثر على مجرى الأحداث فى روما وخارجها.

بينما كانت روما منهمكة فى الصراع الحزبى الذى احتدم بين السناتوس وجايوس كراكوس كانت الجيوش الرومانية مشتبكة فى سلسلة من الحروب الدفاعية للدفاع عن سلامة الجمهورية، فعلى تخوم مقدونيا اشبكت الجيوش الرومانية مع القبائل الكلتية فى جنوب الدانوب وقامت بصد غارات للشعوب الالبية فى شمال إيطاليا، واضطر الرومان إزاء أعمال السلب والنهب على يد القراصنة الى الاستيلاء على جزر البليار الأسبانية، وتحويل جزيرة ميوركا الأسبانية إلى مستعمره رومانية، وأهم من ذلك كان الزحف الرومانى إلى بلاد غالة (فرنسا) عبر الألب بعد سنة ١٢٥ ق م.

ومن ضمن هذه الحروب التى خاضتها روما، كان هناك فى شمال افريقيا الزعيم النوميدى يوجورتا (نوميديا هى: الجزائر الحالية)، فقد استطاع هذا الرجل ان يخدع سفراء السناتوس، ويتحدى الجيوش الرومانيه مستغلا نزوع أعضاء السناتو للتمرد، ونزوع رجال الجيوش الرومانية لقبول الرشوة، آنذاك.

لكن هذا الصراع الذى بدأ سنه ١١١ ق. م أنجب لحسن حظ روما جنديا عظيما يدعى ماريوس، وهو عصامى إيطالى المولد، وجنديا عظيما آخر يدعى سلا وهو سليل أسرة شريفة، وبفضل هذين الرجلين ـ اللذين قدر لسوء حظ روما أن يصبحا ألد عدوين ـ انتهت الحرب ضد يوجورتا فى مصلحه الرومان.

وكان ماريوس (١٥٧ ـ٨٦ ق.م) قد تولى الكويستورية عام ١٢١ ق.م وتريبيونية العامة سنه ١١٩ ق. م والبريتورية سنة ١١٥ ق.م، وقمع بوصفه بريتورا بديلا ثورة بعض القبائل الأسبانية عام ١١٤ ق. م، ثم اختير عام ١٠٩ ق.م قائدا مساعدا لمتيلوس قائد الحملة فى إفريقيا، والذى كانت لأسرته أفضال عليه. وقد بدأ ماريوس يحقد على الحزب الأرستقراطى (السناتوس) لانهم كانوا ينظرون إليه شزرا لأنه رجل عصامى من العامة، ولم يكن من طبقة الأشراف، ولكنه أحس بضعف مركزهم بعد الهزائم التى منى بها قوادهم فقرر ترشيح نفسه للقنصلية، وطلب من يتليوس ان يسمح له بالعودة الى روما لكى يقوم بالدعاية الانتخابية ولكنه رفض مطلبه ساخرا منه، وقد أوغر ذلك صدر ماريوس عليه فأخذ يكيد له المكايد ويؤلب الجنود عليه، وعندئذ اضطر ميتيلوس إلى أن يجيبه إلى طلبه فعاد ماريوس إلى روما وفاز بالانتخابات بسبب مساندة العامة والفرسان له فى سنه ١٠٧ ق. م، وتقدم أحد نقباء العامة باقتراح إلى الجمعية العامة باقتراح لإسناد الحملة فى إفريقيا إلى ماريوس، فأقرت الجمعية الاقتراح وأذعن السناتوس لمشيئة

الشعب مستنكرا هذا الافتئات على حقه فى إطالة مدة ميتيلوس فى القيادة، وفى توزيع القيادات، وفتح ماريوس باب التجنيد على مصراعيه للمتطوعين ورحل إلى إفريقيا عام ١٠٧ ق. م، حيث تولى قياده الحرب ضد يوجورتا، وكان من ضمن مساعديه كويستورا يدعى لوكيوس كورنيليوس سلا، وهو جندى كفء ينتمى إلى إحدى الأسر الشريفة. ومع أن يوجورتا دعم مركزه بالتحالف مع حميه بوكوس ملك موريتانيا (مراكش الحالية على وجه التقريب) إلا أن ماريوس انتصر عليه وعلى حليفه فى معركتين منفصلتين عام ١٠٥ ق. م، وأخيرا جازف سلا وشق طريقه إلى موريتانيا حيث استطاع أن يقتع ملكها بالتخلى عن يوجورتا والغدر به وتسليمه إلى روما، وقد كان وسيق الأمير الإفريقى إلى روما حيث سيق فى موكب انتصار ماريوس فى أول يناير سنه ١٠٤ ق. م ثم زج به فى السجن وقتل شر قتلة.

ووجد ماريوس أنه انتخب أثناء غيابه فى هذه الحرب قنصلا عام ١٠٤ وهو أمر مناقض للدستور أن ينتخب القنصل مرتين متتاليتين، ولكن الشعب أصر على انتخابه لأنه تخوف من خطر البرابرة الألمان الذين يطرقون أبواب إيطاليا الشمالية ولأنه يثق به وبكفايته العسكرية على إثر انتصاراته فى إفريقيا.

وقد أحدثت حرب يوجورتا أثرا بعيد المدى فى روما نفسها إذ فقد السناتوس جانبا كبيرا من هيبته، ولا سيما بعد أن اتضح أمر ارتشاء أعضائه وعجزهم الفاضح وانعدام المسؤولية بينهم.

كما أثبتت هذه الحرب أن فى إمكان العامة والفرسان بتكوين جبهة واحدة أن يسيطروا على السياسة الخارجية، وبقى على ماريوس أن يدمج هذين الحزبين تحت لوائه حتى يستطيع أن يقف فى وجه السناتوس.

عصر الجمهورية

بعد خمس سنوات من شغله منصب القنصل ضعف مركز ماريوس وأخذ نجمه فى الأفول فترة من الزمن، فقد عجز عن السيطرة على أنصاره وعن

حمايتهم من غضب الشعب عندما كانو تحت حراسته، وأخفق القائد العسكرى القدير كزعيم سياسى ولم يعد السناتوس يخشاه ولم تعد العامة تحترمه، وهكذا خرج السناتوس من المعمعة ظافرا، وانشق الحزب الديموقراطى على نفسه، وساءت سمعته، واحتفل الحزب الأرستقراطى بانتصاره بسلسلة من المحاكمات لخصومه السياسيين !!

الحرب الإيطالية

خلق الجيش الذى كان الجنود فيه يخدمون لفترات طويلة (جيش ماريوس) مشكلة لروما وعرَّضها بطريق غير مباشر إلى خطر جسيم آخر: كانت المشكلة تتمثل فى الجنود المسرحين، وموقف الحكومة منهم، وما ينبغى أن تصنع لهم عندما يعودون الى الوطن بعد سنوات من الخدمة فى جهات نائية.. فالكثير منهم - وربما معظمهم - لم يكن لديهم ما يؤويهم ، وكان من البديهى أن يطالب المحاربون القدماء بمستعمرات يقيمون فيها بصفة دائمة، ولكن السناتوس لم يحرك ساكنا، ولم يكن بمقدور القائد بدون تعاون السناتوس أن يفعل شيئا حيال هذه المشكلة، وترتب على ذلك أن نزح كثير منهم الى العاصمة المكتظة بالسكان سعيا وراء الرزق بشتى السبل، معتمدين على القمح الذى كانت السلطات توزعه بأسعار زهيدة، وكان بين هؤلاء الجنود بلا ريب نفر من غير المواطنين الرومان الذين لا يسمح لهم القانون بالتصويت فى الانتخابات، ولا يكفل لأشخاص مثلهم الحماية الكافية، وذلك على الرغم من خدمتهم الطويلة فى الجيش، وقد بدأ هؤلاء يقحمون أنفسهم كناخبين ويزاولون حقوق الجنسية بالباطل، ولم يكن ثمة سبيل إلى اكتشاف أمرهم نظرا لما كان يسود السجلات من الفوضى، واخير اتضح أن جموع المواطنين أصبحت تضم عناصر غريبة فأصدر القنصلان اللذان توليا الحكم عام ٩٥ قانونا للفصل بين المواطنين وغيرهم، وطرد الإيطاليين المستوطنين بروما إلى بلادهم الأصلية!!

لكن الأوان كان قد فات لاتخاذ هذه الخطوة، إذ ذاع نبؤها فى جميع أنحاء إيطاليا حيث فسرت بأنها محاولة لمنع الإيطاليين من الحصول على الجنسية الرومانية، لكن سرعان ما وجد الإيطاليون لهم نصيرا من الرومان، فقد حدث أنه كان بين الفائزين بنقابة العامة سنه ٩١ ق. م رجل يدعى ليفيو دورسوس، الذى كان على الرغم من ارستقراطيته وثرائه وعجرفته واسع الأفق ذا نزعه واضحة للإصلاح، لذلك وضع برنامجا هادفا غرضه التوفيق بين الطبقات وكسب تأييدها له فاقترح عدة قوانين هى على التوالى

- مشروع لتوزيع الأراضى على العامة واضعا نفسه عضوا فى لجنة التوزيع

- اقتراح إضافة ٣٠٠ عضو من طبقه الفرسان إلى مجلس الشيوخ (السناتوس)..

- اختيار هيئة المحلفين لمحاكم الابتزاز من المجلس (السناتوس) بعد توسيع دائرته على أن تشمل الهيئة عددا من أعضاء السناتوس مساويا لعدد الفرسان..

- بالإضافة إلى بند يقضى بسريان قانون رفع دعوى الرِّشوة على المحلفين من الفرسان

ولكن هذه المشروعات التقدمية لم يتحقق منها إلا القليل، وهذا القليل طعن فيه لمخالفته قوانين أخرى، غير أن كل الطبقات خذلته وباء بالفشل الذريع مشروعه بمنح الجنسية الرومانية للإيطاليين بعد أن ترددت شائعة بتواطئه معهم ضد الرومان..

وفى ذات يوم اغتالت دورسوس يد عميل مجهول، وهكذا انتهت آخر محاولة من رجل سياسى لإصلاح الحكم بالطريقه السلمية، وأعقب اغتيال دورسوس مباشرة قيام الثورة الإيطالية التى لم يكن هناك محيص منها..

لا يُستبعد أن هذه الثورة تم التفكير فيها منذ مدة طويلة، كانت حرب الحلفاء (الإيطاليين) ـ كما تسمى وهى فى الواقع حرب أهلية ـ أزمة فى تاريخ التطور والحضارة الأوربية، وما أن وضعت أوزارها حتى كانت دوله المدينة الإغريقيه الرومانية قد انتهت من إيطاليا وحل مكانها نظام جديد للدولة لم يكن له اسم وقت ذاك.

وقد أوجس السناتوس خيفة من انتشار التذمر فى إيطاليا، فأوفد المندوبين إلى مختلف أنحاء إيطاليا لمراقبة تطورات الموقف، وحدث فى مدينه اسكلولم بإقليم بينكيوم أن ظن الشعب أن خططه انكشفت فتوترت أعصابه فهاجمو بريتوراً رومانيا زائرا أرعن التصرف وقتلوه هو وجميع الرومان فى المدينة، وحضر وفد إلى روما يمثل الحلفاء الإيطاليين ليحتج على سوء معامله روما لهم فى الماضى.

غير أن السناتوس رفض الاستماع إلى الوفد ما لم يقدم تعويضا عن كافه أرواح اسكولوم.

وتلبد الجو بالغيوم والتهبت المشاعر وتعذر التفاهم.لقد استقر عزم سكان جبال بيكنوم وسمنيوم على القتال للظفر بالاستقلال وأنفق كل من الطرفين شتاء ٩١/٩٠ ق. م فى الاستعداد للحرب..

وأقدمت هذه الشعوب على خطوة جريئة تجاوزت بها الأغراض العسكرية وكشفت عن اهدافها البعيدة.

كانت هذه الخُطوة إنشاء حكومة مناوئة لروما، وهى خطوة كانت كفيلة لو حالفها النجاح أن تشل جهود روما سواء لخير العالم أو لشره، وسرعان ما تبين أنهم ليسوا مجرد عصبة من الثوار المتضافرين على تدمير روما بل اتحاد قوى هدفه تأسيس دوله مستقلة.

واتخذ الإيطاليون مدينة كورفينيوم التى تقع فى قلب جبال الابنين

عاصمة لهم أطلقوا عليها اسم له دلالة (إيطاليا) وتقع هذه المدينه على بعد حوالى مئه ميل شرق روما، وجعلوها كمدينة واشنطون اليوم عاصمة لاتحاد فيدرالى، حيث يجتمع مندوبو مدن الاتحاد فى شكل مجلس شيوخ (سناتو) برئاسة قنصلين يعاونهم ثمانية حكام قضائيين (بريتوريس) أى على النسق الرومانى ولم يلبث الاتحاد الإيطالى أن حشد للمعركة ما لا يقل عن مائه الف جندى متأهبين لخوض المعارك ضد الرومان، وتولى سيلو القنصل الأول قيادة المارسيين فى الشمال، بينما تولى بابيوس القنصل الثانى السمنيين فى الجنوب، وسك اتحاد إيطاليا عملة جديدة لدفع رواتب الجند مما ساعد على توحيد الصفوف ودعم القضية.

ورسمت على النقود صورة الثور الإيطالى وهو يناطح الذئب الرومانى بقرنيه.

وفى عام ٨٨ق.م تولى سلا القنصلية فى الوقت الذى ظهر فيه (مثرادتيس) ملك بنطوس، الذى انتهز فرصة انشغال الرومان فى الحرب الإيطالية وتغلب على القوات الرومانية فى آسيا الصغرى وقتل ٨٠ ألفا من الرومان والإيطاليين المقيمين فى ولاية آسيا، كما اجتاح أسطوله بحر إيجه وبلاد اليونان، وعندئذ أسند الرومان إلى سلا قيادة خمس فرق رومانية للقضاء على خطر مثرادتيس، وقد تمكن سلا من تحقيق انتصار ساحق على قوات مثرادتيس فى بلاد اليونان وأجبره على أن يتنازل عن جميع فتوحاته فى آسيا الصغرى، وأن يدفع غرامة حربية كبيرة كتعويض لروما، وأن يسلم جانبا من أسطوله للرومان على أن يحتفظ بمملكته (بنطوس) فقط.

وعندما عاد سلا إلى روما فى عام ٨٣ق.م كان يتولى قيادة جيش يتراوح عدده ما بين ٣٠و٤٠ ألفا من المحاربين القدماء الذين أقسموا له يمين الولاء والطاعة، وقد دخل بهذه القوات مدينة روما بالقوة بعد أن هزم القنصلين منتهكا حرمه سور روما pomerium وضاربا عُرض الحائط بأحد أعراف

الرومان القديمة.

وفى نهايه عام ٨٢ق.م أصبح سلا هو سيد الموقف فى روما بفضل مساندة جنوده فقام بالقضاء على خصومه السياسيين عن طريق إعلان الحكم بإعدامهم ومصادرة ممتلكاتهم دون تقديمهم للمحاكم، وفى نوفمبر من العام نفسه أعلن نفسه دكتاتورا لأجل غير مسمى بحجة رغبته فى إصلاح الجمهورية وإعاده بنائها، فأصبح الحاكم المطلق فى روما وذلك من عام ٨٢ الى عام ٧٩ ق.م وهو ما يتنافى تماما مع مبادئ الدستور الرومانى واستمرت دكتاتوريته ٣ سنوات.

وقد قام سلا بوضع العديد من التشريعات كان الهدف الأساسى منها هو تقويه مركز السناتوس وإضعاف نقباء العامة، فأعاد تنظيم سلك المناصب الشرفية فى روما وفقا لترتيب جديد يبدأ بمنصب الكويستور (وزير المالية) ثم البرايتور (وزير العدل)، وفى القمة منصب القنصل (رئيس الجمهورية)، وقيد الترشيح لكل وظيفة بسن معينة بحيث يبدأ تولى منصب الكويستور عند سن ٣٠ سنة كحد أدنى والبرايتور ٣٩سنة والقنصل ٤٢ سنة، وزاد عدد البرايتور إلى ٨ والكويستور إلى ٢٠، وقصر التعيين فى حكم الولايات الرومانية على طبقة الأشراف من ذوى المرتبة القنصلية والبرايتورية، بحيث يتولى السناتوس سنويا تعيين هؤلاء الحكام وتحديد ولاية كل منهم، وكذلك تحديد عدد القوات الرومانية المرابطة فى كل ولاية.. كما حرم على هؤلاء الولاة خوض غمار أى حرب من أنفسهم وإنما لا بد من الحصول أولا على إذن من السناتوس بذلك وإلا تعرض الوالى لتهمة الخيانة العظمى.. كما قام سلا بزيادة أعضاء مجلس السناتوس من ٣٠٠ عضو إلى ٦٠٠ عضو ممن كانوا يؤيدون سلا وبذلك ضمن كسب هؤلاء الأعضاء الجدد إلى صفه، ولضمان الاحتفاظ بهذه الزيادة أصبح يدرج سنويا فى قائمة السناتوس العشرين كويستور بعد انتهاء خدمتهم السنوية..

وفى أوائل عام ٧٩ ق.م اعتزل سلا الحياة السياسية بمحض إرادته ولم يلبث أن مات فى عام ٧٨ ق.م وقد أثار اعتزاله فجأة حيرة القدامى والمحدثين، وسيقت فى تفسير ذلك آراء عديدة منها أنه طمع فى الملكية ولكنه يئس عندما لم يجد التأييد من النبلاء فآثر الاعتزال.

وبموت سلا دخلت روما فى طور جديد برز خلاله مجموعه من القادة العسكريين وقد عجز السناتوس عن السيطرة على هؤلاء القادة الذين كانوا يمنحون تحت ضغط الأخطار التى نجمت عن الحروب الأهليه والخارجية سلطات عسكرية كبيرة استغلوها فى تحقيق أطماعهم السياسية..

وفى هذا العصر سيقضى قيصر حياته الحافلة..

■■■

الخُطوات الأولى..

الخطوات الأولى..

كان انتماء قيصر لطبقة النبلاء، ونشأته النبيلة حائلاً دون حصوله على منصب تريبيون الذى كان وقفاً على قادة حزب الشعب، ولكن زواج عمته من ماريوس الشهير فى ذلك الوقت، والذى لم يكن من طبقة النبلاء، مكن ذلك الشاب من تعلقه فى وقت باكر بالحزب الديمقراطى ومستقبل أعماله.

وكان مربى قيصر ومربيه، على عادة النبلاء فى استخدام المعلمين فى تربية أبنائهم، هو ماركوس أنطونيوس جنيو، وهو مواطن حر من بلاد الغال، ويقال إنه كان عالماً فى الأدب الرومانى واليونانى على السواء، وقد أسس فيما بعد مدرسة فى الجدل درس فيها شيشرون عام ٦٦ ق. م وقد تشرب هذا الفتى الرومانى قيصر، وفى سن مبكرة من أستاذه حبا لبلاد الغال ولأهالى الولايات.

وكان قيصر فى سن الثانية عشرة حين قامت الحرب مع حلفاء روما (Socii) ، وهزت كيان المدينة، وقد انتصر سلا فى هذه الحرب وليس ماريوس، وفى المعركة التى قامت بين ماريوس الديمقراطى، وسلا الاستقراطى سار هذا الأخير إلى العاصمة نفسها وخربها، ثم اتجه شرقاً، فدخلها ماريوس ذلك الديمقراطى الفولسكى الفظ وانتقم لمدة أربعة أيام من أعضاء السناتوس (مجلس الشيوخ) الأرستقراطيين الذين هاجمتهم كلابه البشرية وفتكت بهم !!

وفى السنة التى اتجه فيها سلا إلى الشرق مات والد قيصر. ولبس الشاب ثوب الرجولة (toga virilis) كرمز لبلوغه سن الرشد، وبالرغم من أنه كان فى السابعة عشرة من عمره، فقد قلده ماريوس منصب (Fiamen Dialis)

أى كاهن جوبتير كبير الآلهة الرومانية، ثم أعدت له أسرته زواجاً من كسوتيا (cossutia) ابنة أحد الرأسماليين الرومان من ذوى الثراء العريض، وقد قبل قيصر هذا الزواج فى بادئ الأمر، وكاد أن يتم، ولكنه طرحه جانباً عام ٨٦ ق. م وتزوج من كورنيليا ابنة القائد الديمقراطى سينا (cinna).

بدأ قيصر يرتقى فى سلم الشهرة التى جناها فيما بعد كأعظم رجال عصره، وكما يقول ويجال فى كتابه عن حياة وعصر كليوباترا:

" لقد كان قيصر رجلاً حطم زوجات وبنات عدد كبير من أصدقائه، وكانت شهرته فى هذا المضمار لا يمكن تصديقها !!

ومن أولى سيداته كانت سرفيليا أخت كانو من حزب السناتوس، ووالدة ماركوس بروتس وقد بدأ هذا الغرام قبل مولد بروتس بسنة، واستمر بعد ذلك فترة طويلة، وقد اعتقد قيصر أن بروتس كان ابناً له، لذلك تنادى كثير من المصادر بأن كلماته الأخيرة التى قالها عند مصرعه بجوار قاعدة تمثال بومبى كانت: (حتى أنت يا بروتس !!.. يا بنى)، ولكن مصادر أخرى تحذف هذه الكلمة الأخير.

وقبل أن يبدأ هذا الغرام كان ماريوس قد مات، وعاد سلا من الشرق عام ٨٣ ق. م وكانت إيطاليا قد أجمعت تقريباً على مؤازرة الديمقراطيين، ولكن سلا مضى عامين فى محاربة الرومان وقبائل السمنيين الثائرة وقتل منهم الكثيرين، وهزمهم نهائيا عام ٨١ ق.م، وعين دكتاتوراً لمدى الحياة من قبل السناتوس المنتصر، وقد قام فى ذلك الوقت بأكبر مجزرة عرفها التاريخ أهلك فيها ٤٧٠٠ من ثراة الرومان ذوى المراكز الكبيرة، كما قامت مذابح أبشع من ذلك فى جميع أجزاء إيطاليا قتل فى إحداها ١٢٠٠٠ إنسان فى يوم واحد فى برواينستى، هذا وقد أمر سلا بومبى وبيزو وقيصر أن يطلقوا زوجاتهم المنتميات للحزب الديمقراطى، وقد امتثل كل من بومبى وبيزو للأمر، أم قيصر فرفض.

وقد ثار غضب سلا فى الحال وصادر أموال الزوجة، وعزل الزوج (قيصر) من كهانة جوبيتر، ففر قيصر إلى التلال، ثم قُبض عليه، واستطاع بمعاونة أصدقائه الأقوياء من بين الارستقراطيين أن يطلق سراح نفسه ويعود إلى روما.

وقد كان سلا متردداً فى الموافقة على ذلك، ويقال إنه ذكر فى ذلك الوقت أن قيصر سوف يكون يوماً ما هلاكاً على النبلاء، لأنه يطوى فى نفسه شخصاً أكثر مكرا من ماريوس، وقد كان قيصر حكيماً فعرف أنه من الأفضل له عدم لفت نظر سلا إليه، فغادر روما فى نفس السنة (٨١ ق. م) ليتذوق طعم الحرب فى الشرق لأول مرة، فانخرط فى جيش ميوكيوس ترموس ولبى نداء الواجب العسكرى.

ملكة روما

يقول كليمنت وود فى كتابه (يوليوس قيصر ـ حياته وأعماله):

لا نعرف إلا القليل عن ذلك القائد، وكذلك عن الخمسة الشهور الأولى لقيصر فى الجيش، ولكنه فى أوائل عام ٨٠ ق. م منح من قبل قائده (التاج المدنى) وهو إكليل من الغار لإنقاذه حياة أحد الجنود فى عاصفة ميتلين.

وكان فى الثامنة عشرة من عمره فى ذلك الوقت، ولكنه كان يبدو فى صورة وهيئة رجل كامل، وقد اشتهر بمقدرته على ركوب جواده بأقصى سرعة، ويداه مطويتان خلف ظهره كأنه فارس عظيم.

وكان قيصر جنديا نشيطاً ومبارزاً ماهراً وسباحاً قويا. لقد كان شجاعاً هادئ الطبع، وقد حاز إعجاب واستحسان العامة، وكان فى ذلك الوقت منغمساً فى مباذل الشباب الرومانى، ولكنه بخلاف غيره كان بقوة عزيمته يستغل هذه المتع لتحقيق غايته دون أن تقضى عليه. وكان مع ذلك يبدو متحذلقاً مغروراً متكبراً، وكان ذلك دعاية طيبة لنجاحه فى المغامرات العاطفية.

وفى نفس ذالك الوقت تقريباً مر قيصر بمرحلة تخنث متطرفة، وكان يبدو منحرفاً. فكان يقضى ساعات طويلة كل يوم فى عمل زينته، بما فى ذلك التطيب وتصفيف الشعر فى جدائل، وطلاء وجهه على طريقة شباب الطبقة الأرستقراطية المنحل.

لقد بلغ فى تخنثه درجة كبيرة، حتى أنه أطلق عليه فى دعابة بعد لقائه مع صديقه نيكوميديس ملك بثينيا لقب (ملكة بثينيا). وبعد ذلك بقليل حدث فى روما أن حيا أحد الظرفاء المدعو أكتافيوس القائد العظيم بومبى كملك روما وقيصر كملكة روما!! "..

ويستطرد كليمنت وُود فى كتابه قائلاً:

" لقد كانت الثقافات القديمة تنظر فى تسامح كبير إلى الشذوذ الجنسى مثلما يحدث اليوم فى الغرب، فإن سافو أعظم شاعرة عرفها التاريخ تكلمت عن حبها السحاقى، أى الحب بين المرأة والمرأة. وكذلك قادة الفلسفة اليونانية: سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، لم يكتفوا باحترام تقاليد ذلك الوقت، بل شادوا بالحب بين الرجل والرجل فى أعلى مراتبه!!!

وهكذا كان سلوك قيصر نوعاً من الخلق الذى كان عليه جميع شباب عصره من الطبقة الراقية، ويرى فى ذلك إدوارد كارينتز وغيره نوعاً راقياً من البشر أرفع من أولئك الذين يتبعون حياة جنسية عادية!!! ويطلقون عليهم الآن أورنين (Urnings) من الكلمة اليونانية أورانوس (Uranus) بمعنى: سماء.. وقد حلل ذلك فرويد نفسياً بقوله إن أولئك الرجال والنساء فى مرحلة تطور ناقصة، إذ لم يكن الجنس البشرى فى عهد قيصر قد أكمل المرحلة الثانية من مراحل التطور الجنسى."..

وبعد تجربة قيصر الأولى فى الزواج خدم تحت قيادة سرفيليوس إيسوريكوس فى كليكيا مما زاد فى معلوماته عن الحرب العملية، وعند موت

سلا عام ٧٨ ق. م عاد قيصر سريعاً إلى روما، وقد رأى أن مستقبله فى مساعدة وإرشاد العالم الرومانى فى العاصمة خير من إثارة الحروب مع أعدائه على الحدود.

وقد كان القنصل ليبيدوس داميول ديمقراطيا فدعا قيصر لمساعدته فى تحطيم دستور سلا الذى دعم مركز أعضاء السناتوس الأرستقراطيين فى الحكم، ولكن قيصر ارتاب فى مقدرة ذلك الديمقراطى، فتنحى جانباً حين طرد ليبيدوس خارج أسوار روما زميله فى القنصلية كاتولوس والقائد الأرستقراطى بومبى.

وفى عام ٧٧ ق. م حين كان قيصر فى الخامسة والعشرين من عمره، اتهم دولابلا البرو القنصل السابق فى مقدونيا بابتزاز الأموال. وقد كانت هذه حركة مؤكدة لكسب الجانب الديمقراطى. وبعد ذلك بسنة وجه قيصر فصاحته الخطابية ضد جنايوس أنطونيوس الذى ابتز الأموال أيضاً فى بلاد اليونان. وقد كان القضاة بالطبع من جانب السناتوس فى كلتا القضيتين فبرءوا المتهمين. ولكن قيصر ذلك الشاب الديمقراطى تمكن من تحقيق مأربه فى جذب الأنظار إليه فى روما، وفى عام ٧٥ ق. م أراد أن يدعم نفسه فى القيادة ، فقد سمع أن صديقه الملك العجوز نيكوميديس ملك بثينيا كان على فراش الموت، وأنه بناء على بعض الشائعات، يرمى إلى أن يوصى بمملكته للشعب الرومانى، فقرر أن يتوجه لبثينيا تلك المملكة الآسيوية، ليحصل على ما يقدر عليه من امتيازات فيها، وذلك بدعم وتحريض من أحد كبار أثرياء روما، فى لك الوقت، وهو كراسس، الذى كان يعمل على الاستفادة من الشاب الطموح قيصر، ويوجهه لخدمة أهدافه السياسية، ويبدو أن قيصر كان يحاول بدوره الاستفادة من كراسس فاحش الثراء فى تدعيم موقعه فى السياسة الرومانية، فقبل أن يقوم بالمهمة، التى فرض عليها إطارا من السرية والتمويه، فتظاهر بأنه ذاهب إلى جزيرة رودس لدراسة فن الخطابة تحت إشراف المعلم

الجامعى ذائع الصيت أبولونيس، الذى كان أستاذا لشيشرون، الخطيب الرومانى المرموق، وفى الطريق إلى بثينيا وقعت مغامرته مع القراصنة الصقليين، وقد وصف قيصر فى مذكراته تلك المغامرة على النحو التالى:

"فعلى كَثَب من الساحل الآسيوى، بالقرب من جزيرة فارماكوزا الصغيرة، لمح القراصنة الصقليون سفينتى واستولوا عليها، فلم يكن ثمة شىء يستطيع أن يقلب الأمور رأسا على عقب أكثر من هذا، ولم يساورنى أى شك أننى سأظل سجينا شهرا على الأقل حتى يتم جمع المال اللازم لدفع الفدية عنى، وكان من المحتمل أن يكلفنى هذا التأخير الذى لا محيص منه، كل ما كنت أبغى اكتسابه فى بثينيا، كذلك كان هؤلاء القراصنة الصقليون أشد أوغاد العالم ولوغا فى الدماء، ولم يكن أهون لديهم من قتل أسير إذا اضطروا، لأى سبب، إلى مغادرة قاعدتهم على عجل، أو إذا ارتابوا فى أن مال الفدية لن يصل إليهم.

واكتشفت أنه عندما يحدق بالمرء خطر مبعثه طغام الشعب، سواء اكانوا رومانيين أم برابرة، فأفضل موقف تتخذه هو ما كان مزيجا من التفكه والازدراء، فمن أهم الأمور أن يدرك الطغام تفوق المرء عليهم، وأن يعرفوا أنه غير خائف منهم أبدا، ولذلك فعندما أخطرنى زعيم القراصنة، بهذه المناسبة، أن فديتى قدرت بعشرين تالنت[1] انفجرت ضاحكا وأخبرته أن لابد أن يكون على جهل تام بروما ومركزى الاجتماعى هناك، ما دام يتصور حقا أن أصدقائى لا يستطيعون دفع مبلغ أضخم بكثير من ذلك، ثم نصحته أن يرفع المبلغ إلى خمسين وزنة، وطلبت منه أن يهيئ لى مكانا مريحا أقيم فيه حتى يصل المبلغ، وأن يلاحظ الجميع فى معاملتى ما أنا أهل له من احترام وتبجيل.

وحدث ما توقعته من استجابة القراصنة لحديثى هذا، فقد راح يتفكهون بما بدا لهم كضرب من التباهى الصبيانى، وأثار إعجابهم عدم خوفى منهم، أما عرضى المزيد من المال فقد أخذ عليهم مشاعرهم، وسرعان ما لاحظت

(١) كانت التالنت فى ذلك العهد يقدر بما يقارب ٢٥٠ جنيها ذهبيا.

باهتمام أننى لم أعد مثارا لتفكههم فحسب، ولكنهم أخذوا ينظرون إلى بعين التجلة والاعتبار، وما كنت لأستطيع أن أطالبهم بإطلاق سراحى، ولكنى فيما عدا ذلك كنت أصر على أن أفعل ما أشاء، وأن أطاع فى غير إهمال، وأدركت أنه من المحتمل أن تطول إقامتى الاضطرارية فى الجزيرة (الواقع أنها استمرت قرابة أربعين يوما) فعقدت العزم على أن أستخدم وقتى بطريقة لطيفة ذات نفع، فهؤلاء القراصنة كانوا أشخاصا عتاة غلاظ الأكباد غير متعلمين، وكانوا يقضون حياتهم فى خمول وكسل إلا فى الأوقات التى كانوا يزاولون فيها حرفتهم فى السطو والنهب، فكانوا يصرفون أياما بأكملها يأكلون ويعاقرون الصهباء، ويتمطون فى أشعة الشمس، ويسلى بعضهم البعض بقصص لا تنتهى عن مغامراتهم، أو بأغان عاطفية حادة، يرددونها فى صوت أجش حتى وقت متأخر من الليل، وفى فترة قصيرة من الزمن وفقت فى إصلاح طباعهم، أو على الأقل وفقت فى تخفيف ضراوتها، فنظمت حلقات للألعاب الرياضية كنت تعقد مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع، وإذ كنت أشترك شخصيا فى المباريات، وكنت فى كثير منها أفوز بالجائزة الأولى، فسرعان ما وجدت نفسى، بين هؤلاء الأوشاب، أقرب إلى أن أكون زعيما من أكون أسيرا، وكنت أعيش بمفردى معظم فترة اعتقالى، فيما عدا طبيبى وواحد أو اثنين من الخدم، أما باقى أفراد جماعتى فقد انحدروا إلى داخل البلاد، حيث راحوا يجمعون المال المطلوب لافتدائى، من ماليتس ومدن إغريقية أخرى، وإذ حيل بينى وبين متعتى المألوفة فى الحديث الشيق الطليق، كان حتما ألا أدخر وسعا للإفادة من أى مادة فى متناول يدى، فاعتدت أن أجمع القراصنة فى صعيد واحد، وأدرب نفسى على الخطابة بينهم، فألقى عليهم خطابا موضوعه أعالج فيها شتى الموضوعات التى كانت ذائعة آنذاك بمدارس البلاغة، كما اعتدت فى هذه الفترة من حياتى أن أقرض كثيرا من الشعر، ونظمت حلقات لتلاوة الشعر، كنت خلالها أقرأ قصائدى للسامعين، فإذا كانت ملحمة شعرية قمت فيها بالدور الرئيسى

وكلفت طبيبى بالأدوار الصغيرة، ووجدت أن القراصنة كانوا عاجزين تماما عن تذوق أى محسنات بيانية، وكثير منهم كانوا عاجزين حتى عن متابعة أى نقاش منطقى، وكثيرا ما كنت أضيق بهم وينفد صبرى حينما كنت ألمح شرود ذهنهم وأنا ألقى خطابي، أو عندما كان يضل أحدهم الفهم فيرى الفكاهة فيما أعد ليثير كوامن الأشجان، فاعتدت أن أدعوهم بالجهلة والحمقى والريفيين الأميين، وبكل صنوف النعوت الجارحة التى كانوا يستحقونها.."..

بعد أربعين يومًا من الأسر، وصلت الفدية التى طلبها القراصنة، وأطلق سراح قيصر، ليكون فى الحال فرقة صغيرة من المقاتلين، ويهاجم معتقليه السابقين ويسجن معظمهم، حسبما كان قد توعدهم وهو فى أسرهم، فكثيرا ما كان يتوعدهم أنه حين سيطلق سراحه سيشنقهم، فيتلقون وعيده بالضحك، ظنا منهم أنه إحدى نكته وفكاهاته، وقد فعل بهم ما هو أشد من الشنق، إذا صلبهم جميعاً، وهو نوع من الموت بالتعذيب بطريقة طويلة وآلام مريعة.

ولكن قيصر كان مع ذلك رقيق القلب، فبعض أن لمس آلام ضحاياه الذين خاب أملهم، قطع رقابهم دون اكتراث فى هدوء تام.

ثم وجد نفسه مضطرا لإكمال رحلته لتعلم الخطابة، بعد أن فشلت مهمته فى بثينيا، وصقل فصاحته الخطابية التى كانت شهرتها قد ذاعت، وقد ذكر عنه سويتونيوس ما يلى:

لقد وصل فى خطابته على الأقل إلى الدرجة التى وصل إليها أعظم الخطباء إن لم يكن قد تفوق عليهم.

ولما أشار شيشرون إلى عظماء الخطباء، قال إن قيصر لم يكن أقلَّ من أى واحد منهم، ولكن قيصر استخدم الخطابة كسلاح آخر، ولما علم قيصر بأن أحد قادة مترتادس كان يهاجم شعباً مجاوراً بالسلب والنهب، هب قيصر مسرعاً من رودس لطرده وقد فعل ذلك كما قال حتى لا يبدو خاملاً.

ثم عاد إلى روما عام ٧٣ ق. م، حيث وزع جهوده بين السياسة والحب. وكان وسيم الوجه، وإن كان سقوط شعر رأسه فى هذه السن الصغيرة أخذ يشغل باله. ولما توفيت كورنيليا فى عام ٦٨ ق. م تزوج بمبيا ابنة حفيدة سلا، وإذ كان هذا الزواج زواجاً سياسيا محضاً، فإنه لم يتورع عن العلاقات الجنسية غير المشروعة حسب عادة ذلك الوقت، ولكن هذه العلاقات بلغت من الكثرة، ومن التنوع الشاذ حدا جعل كوريا (curia) والد قائده الأخير، يصفه بقوله إنه:(زوج كل امرأة وزوجة كل رجل)، وظل يتبع هذه العادات نفسها فى حروبه، فيعبث مع كليوباترا فى مصر، ومع الملكة إينو Eunoe فى نوميديا، ومع كثيراً من النساء فى غالة، حتى كان جنوده يلقبونه فى مزاحهم بلقب (الزانى الأصلع) !! ولما تم له النصر فى بلاد الغال أخذ جنوده ينشدون بيتين من الشعر المقفى، يحذرون فيهما جميع الأزواج بقولهم إن عليهم أن يغلقوا الأبوب على زوجاتهم ما دام قيصر فى المدينة.

وكان الأشراف يحقدون عليه لسببين:

أولهما: أنه قضى على امتيازاتهم.

وثانيهما: أنه أفسد زوجاتهم.

وقد طلق بومبى زوجته لاتصالها بقيصر، ولم تكن كراهية كاتو الشديدة له منبعثة عن أسباب فلسفية خالصة، بل كان من أسبابها أن أختاً له غير شقيقة تدعى سرفليا Servilia كانت أحب عشيقات قيصر له. ولما ارتاب كاتو فى صلات قيصر بكاتلين وظنه شريكاً له فى مؤامراته، طلب إليه فى مجلس الشيوخ أن يقرأ جهرة رسالة جيء بها إليه فى تلك اللحظة فما كان من قيصر إلا أن أوصلها إليه دون تعليق عليها، فإذا هى رسالة حب بعثت بها إليه سرفليا، التى ظلت تهيم بحبه طوال حياته، وكانت ألسنة السوء القاسية تتهمها فى أخريات أيامها بأنها أسلمت ابنتها ترشيا Tertia إلى قيصر لتشبع شهواته.

وحدث فى مزاد علنى أثناء الحرب الأهلية أن باع قيصر إلى سرفليا ضياعاً صادرها من جماعة من الأشراف المعاندين بثمن إسمى زهيد، ولما

أظهر بعضهم دهشته من ضآلة الثمن قال شيشرون فى سخرية لاذاعة كانت خليقة بأن تطيح برأسه: إنه Tertia deducta، وهى عبارة تحتمل معنيين، فقد يكون معناها أن الثمن ينقص ثلثه، وقد تكون إشارة منه إلى الإشاعة الرائجة وقتئذ، وهى أن سرفليا قد جاءت بابنتها ترشيا إلى قيصر، وأصبحت ترشيا فيما بعد زوجاً ليكيوس القاتل الأول لقيصر، وهكذا يختلط عشق الخلائق بالفتن التى تندلع بنيرانها فى الدول.

ولعل هذه الظروف قد ساعدت على رفع قيصر إلى أعلى الدرجات، ولعلها أيضاً قد أعانت على سقوطه، فقد كانت كل امرأة فاز بحبها له عظيمة النفع، وخاصة فى معسكرات الأعداء، وقد حافظ معظمهن على وفائهن له حتى بعد أن هدأت عاطفة حبه لهن، وأضحت لا تزيد على المجاملات المألوفة من الرجال إلى النساء!! من ذلك أن كراسس أقرض قيصر أموالاً طائلة ليستخدمها فى الدعاية لنفسه، وهو يطالب بالقنصلية فيرشو بها الشعب، ويقيم له الألعاب، وذلك على الرغم مما كان يشاع وقتئذ من أن زوجته ترتلا كانت تعشق قيصر!!

وحسبك دليلاً على مقدار هذه الأموال أن قيصر كان يوماً مديناً له بثمانمائة تالنت، ولم يكن الباعث على هذه القروض هو الكرم والصداقة، بل كانت بمثابة اشتراك من أصحابها فى الحملات ترد إليهم فى صورة مساعدات سياسية أو غنائم حربية، فقد كان كراسس ـ كما كان آتكس ـ فى حاجة إلى من يحمى ملايينه ويتيح له فرصة استثمارها، وكان معظم الساسة الرومان فى ذلك الوقت ينوءون بمثل هذه الديون، فقد كان ماركس أنطونيوس مثلاً مديناً بنحو ٤٠ مليون سسترس، وشيشرون بستين مليوناً، وميلو Milo بسبعين مليوناً، على أنه من الجائز أن تكون هذه الأرقام افتراء على هؤلاء الساسة.

وجملة القول إن علينا أن نتمثل قيصر فى أول حياته فى صورة السياسى الذى لا ضمير له، والرقيع المستهتر الذى بدلته الأحداث والتبعات شيئاً فشيئاً.

المسرح السياسى
يُجهَّز لقيصر

المسرح السياسى يُجَهِّز لقيصر

بينما كان بومبى يعمل على توطيد سمعته العسكرية ودعم نفوذ بلاده فى الشرق، كان أعضاء السناتوس وكذالك منافسوه فى زعامة الحزب الديموقراطى يراقبون نشاطه بعين القلق والحسد.

أما عن موقف السناتوس أو بالأحرى موقف الحزب الأرستقراطى منه، بخاصة الأقطاب مثل كاتولوس واسرتى ميتيللوس ولوكللوس وهورنتيوس، فيتبين من الاتهامات التى وجهت إلى نقباء العامة من أنصاره.

كان أحدهم هو كورنليوس أحد نقباء عام ٦٧ق. م الذى استصدر قانونا يقضى بفرض عقوبه مزدوجة على المتهمين بالرشوة فى الانتخابات، وهى الغرامة المالية الكبيرة والحرمان من تولى الوظائف العامة (وقد عرف هذا القانون الذى ووفق عليه وتم تعديله باسم قانون كورنيوس لمكافحة الرَشوة فى الانتخابات نسبة إلى أحد قنصلى عام ٦٧ وهو جايوس كورنيوس بيسو). هذا النقيب قدم للمحاكمة فى عام ٦٦ ق. م بتهمة الخيانة ولكن برئ من التهمة بفضل دفاع شيشرون عنه فى سنة ٦٥ ق.م.

اما زميله النقيب جابينيوس صاحب القانون الخاص بإسناد القيادة العليا غير العادية ضد القراصنة إلى بومبى، فقد تقدم بمشروعين آخرين نافعين، أحدهما منع إعطاء قروض لسفراء الدول الأجنبية أثناء إقامتهم فى روما، والآخر بجعل استقبال الوفود الأجنبيه أول شيء فى جدول أعمال السناتوس عند انعقاده فى شهر فبراير، وعدم إرجاء ذلك حتى لا تتسرب الرشا إلى جيوب أعضاء المجلس بعد الاتصال بالوفود. هذا النقيب تجنب المحاكمة بالرحيل إلى إيطاليا والالتجاء إلى معسكر بومبى فى الشرق !!

اما مانيليوس صاحب القانون الذى نقل القيادة ضد مثراداتيس من يد لوكللوس الى يد بومبى عام ٦٦ ق. م فقد وجهت اليه تهمتان منفصلتان، احداهما ابتزاز أموال الاميرية والاخرى الخيانة العظمى التى ادين بها سنة ٦٥ ق. م.

دسائس كراسوس

ويتبين موقف الحزب الديموقراطى إزاء بومبى مما فعله كراسوس، الذى أصبح بعد رحيل بومبى أبرز أنصار ذالك الحزب، وقد ساوره القلق من انتصارات زميله ودبت الغيرة فى صدره، وخشى ان يفعل بومبى ما فعله سلا بعد أن عاد من الشرق. لذلك بذل كراسوس قصارى جهده ليجمع الأنصار حوله من جميع الطبقات بشتى السبل، مستعينا تارة بثروته الطائلة التى جمعها أثناء حركة الاغتيالات والمصادرات أيام سلا (بلغ من فرط غناه أنه لقب بكراسوس الثرى crassus dives) وتارة بعرض خدماته كمحام ناجح على كل من كانوا فى حاجة إلى مساعدته القانونية. غير أنه أدرك أن ثروته الطائلة ليست ندا لمجد بومبى العسكرى، لذا تاقت نفسه إلى أن يتولى قيادة جيش كبير فى حرب خارجية يساوم به فى المستقبل، أو يضع يده على قاعدة عسكرية يناوئ بها بومبى.فإذا حالفه الحظ فى هذا أو ذاك فلا أقل من ان يعمل على توطيد مركزه السياسى..

وكانت أول خطوة - أو بالأحرى أول حلقة فى سلسلة الدسائس التى دبرها كراسوس لتوطيد مركزه - هى محاولته تعيين أحد صنائعه حاكما على أسبانيا القريبة ففى عام٦٥ ق.م الذى انتخب فيه كراسوس رقيبا، خلا فجأة منصب حاكم أسبانيا القريبة، فانتهز الفرصة وألح على السناتوس بأن يعين ورنيوس بيسو حاكما على تلك الولاية، وكان بيسو هذا شابا غرا قليل الخبرة مرذول الخلق، ولا يليق لشغل المنصب، لكن كراسوس استخدم نفوذه بوصفه رقيبا للتأثير على بعض أعضاء مجلس السناتوس، واستخدم أمواله فى شراء

ذمة البعض الآخر من المفلسين أو المدينين له، حتى وافقوا على إرسال بيسو الى إسبانيا كحاكم بمرتبة الكويستور المتمتع بسلطة البريتور البديل، وهناك تملكه الغرور فعامل الأهالى بجفاء شديد حتى نقموا عليه ولم تطل إقامته بالولاية، لأن أحد الأسبان لحقته منه أهانة بالغة فطعنه بخنجر طعنه قاتلة، ولم يقم كراسوس بأى محاولة لإيجاد بديل له فى المنصب.

ولم يلبث كراسوس أن تقدم فى نفس العام (٦٥) بمشروع يقضى بفرض الجزية على مصر، ولما كانت مصر بوصفها دولة صديقة لروما لا تدفع الجزية، فإن المشروع كان معناه المطالبة بضم مصر إلى أملاك الجمهورية وتحويلها إلى ولاية رومانية، وتذرع كراسوس بحجة أن ملكها وقتئذ بطليموس الثانى عشر الملقب بالزمار لم يكن وريثا شرعيا، لأن سلفه بطليموس الملقب بالإسكندر الثانى كان قد أوصى بها للرومان!! وهى وصية لم تثبت صحتها بصورة قاطعة ولا يبتعد أنها كانت زائفة، وتضمن المشروع نصا بإسناد تنظيم الولاية الجديدة إلى يوليوس قيصر الذى أيد الفكرة وكان يتولى منصب الأيديل (المحتسب) فى ذلك العام، وكانت مصر بلدا غنيا من السهل غزوه بعد أن انتابها الضعف ومزقت أوصالها منازعات الأسرة المالكة وارتمى عاهلها بطليموس الزمار فى أحضان الرومان وأصبح ألعوبة فى يد أحزابهم المتطاحنة، وأراق ماء وجهه فى كسب رضاء أقطابهم واستجداء اعترافهم به، وكانت موارده - برغم ما انتابها من تدهور اقتصادى - ما تزال كفيلة بسد رمق العامة الرومان الذين طالما هددتهم المجاعة لانقطاع القمح المستورد، وكفيلة أيضا بأن تمد رجال الأعمال - من طبقة الفرسان - بسوق يستثمرون فيها أموالهم أو يعتصرون منها ثروات طائلة، وأهم من ذلك كله أن مصر قد تصبح بعد احتلالها بجيش موالٍ لكراسوس بمثابة شوكة فى جنب بومبى، إذا كان فى وسع كراسوس أن يعوقه عن العودة من الشرق إلى روما فى اطمئنان ما لم يرضخ لشروط معينة أو أن يستخدم مصر على أسوأ تقدير كقاعدة

يلتجئ إليها إذا خشى على نفسه من بطش بومبى عند عودته، غير أن هذا المشروع لقى معارضة شديدة من السناتوس، الذى كان من رأيه حينئذ عدم المساس بمصر، ولذلك استعمل كاتولوس - زميل كراسوس فى الكنسورية - حقه فى الاعتراض لعرقلة المشروع، ولكن الفضل فى رفض المشروع يرجع إلى شيشرون الذى هاجمه بوصفه نصيرا لبومبى حريصا على مصالحه فى خطبة لم تصلنا منها سوى شذرات.

مناورات قيصر كحليف لكراسوس

لم يكن قيصر الذى حاول كراسوس أن يستعين به فى تحقيق أغراضه قد أصبح بعد منافسا قويا لأى من بومبى أو كراسوس، لكنه كان يشق طريقه بخطى سريعة نحو أبرز مكان على مسرح السياسة الرومانية، ولما كان ماريوس قد تزوج عمته يوليا كما تزوج هو نفسه كورنيليا ابنة كنا، فقد دفعته هذه المصاهرة للانحياز إلى جانب الحزب الديمقراطى أو الحزب الشعبى، ولما أمره سلا بأن يطلق زوجته رفض قيصر، ورأى أن من الأسلم له أن يغادر روما، وبعد أن صفح عنه سلا خدم فى ولايتى آسيا وكيليكيا، وبينما كان فى الشرق (٨٠-٧٨ ق.م) وقع أسيرا فى يد القراصنة - كما ذكرنا - الذين أطلقوا سراحه بعد أن دفع لهم فدية كبيرة، وبعد موت سلا عاد قيصر إلى روما حيث كرس مواهبه الخطابية للدفاع عن أنصار ماريوس، ثم رحل إلى رودس (٧٤.٧٥ ق.م) حيث درس البلاغة، وقد انتخب كويستورا فى عام ٦٩ ق.م وخدم فى أسبانيا فى سنة ٦٩- ٦٨ ق.م، ولما رجع إلى العاصمة انضم إلى كراسوس لتأليف جبهة واحدة، وإيجاد نوع من التوازن السياسى ومناهضة نفوذ بومبى المتزايد، وعندما تولى منصب الأيديل (المحتسب) فى ٦٥ ق. م اجتذب إليه العامة ببذخه الشديد فى الحفلات والمآدب الفاخرة التى كان يقيمها فى الأعياد الرسمية، وإعادة بناء النصب التذكارية لحملات ماريوس، وتأييد الدعاوى المرفوعة على من اشتركوا فى حركة سلا الإرهابية، وقد

اضطر قيصر مع إسرافه المفرط إلى اقتراض مبالغ ضخمة، وكان أكبر دائنيه بداهة هو كراسوس، الذى وجد فيه أداة نافعة لتحقيق مآربه، لذلك حرص الاثنان على أن يتولى قيصر منصبا يتيح له أن يقتنى من الثروة ما يعينه على الوفاء بديونه..

وفى نفس العام الذى تقلد فيه كراسوس منصب الرقيب تقدم باقتراح يقضى بتسجيل سكان غالة، ولم يكن هؤلاء السكان قد حصلوا فى سنة ٨٩ ق.م إلا على الحقوق اللاتينية فكان معنى الاقتراح اعتبارهم كالمواطنين الرومان المتمتعين بكامل الحقوق ومساواتهم بسكان جنوب البو الذين سجلت أسماؤهم فى القبائل الخمس والثلاثين، ولكن الرقيب الآخر أحبط المشروع بماله من حق الاعتراض، ولعل كراسوس الذى توقع بداهة اعتراض زميله على المشروع لم يقصد به سوى الدعاية لنفسه، ولذلك لم يأسف على إخفاقه لأنه حقق به بعض غرضه، إذ أكسبه سمعة طيبة بين سكان تلك المنطقة الغنية التى كانت تعتبر أكثر مناطق إيطاليا ملاءمة لتعبئة الجند. ولعل كراسوس كان يأمل فى أن يجند من بينهم جيشا يرتكز عليه فى المستقبل.

ولم يكف كراسوس عن البحث عن أدوات أخرى يحقق بها مطامعه السياسية، ويعلى بها شأنه، وقد سادت العاصمة وقتئذ حالة من التذمر وعدم الاستقرار، مبعثها وجود طائفة ممن كان سلا قد صادر أملاكهم لانتمائهم إلى حزب ماريوس، أو ممن بددوا ثرواتهم التى اقتنوها على حساب ضحايا الدكتاتور، أو استبعد الرقيبان ـ اللذان تقلدا المنصب فى عام ٧٠ ق.م ـ أسماءهم من قائمة السناتوس، وكان أبرز شخص بين هذه الطائفة رجل يدعى كتيلينا، وكان ينتمى إلى أسرة شريفة قليلة النفوذ، وقد عرف بالشجاعة الفائقة والجراءة البالغة، واكتسب سمعة سيئة باشتراكه فى حركة الاغتيالات على أيام سلا، وفساد أخلاقه فى حياته الخاصة، ومع ذلك فقد وصل إلى منصب البريتور فى ٦٨ ق.م، وبعدئذ عين بوصفه بريتورا سابقا

حاكما على ولاية أفريقيا فى ٦٧ ثم رشح نفسه قنصلا لعام ٦٥ ولكن اسمه استبعد من قائمة المرشحين لاتهامه بالابتزاز فى ولايته، وهى تهمة لم يبرأ منها إلا بعد فوات الفرصة، وامتلأت نفسه بالحقد فعقد عزمه على الانتقام، واستعان فى ذلك بمرشحين آخريْن كانا قد فازا فعلا فى انتخابات القنصلية ولكنهما أدينا بتهمة الرشوة فبطل انتخابهما، ووضع كتيلينا معهما خطة لاغتيال القنصلين اللذين اختيرا مكانهما والاستيلاء على مقاليد الحكم فى اليوم الأول من يناير عام ٦٥ !!

لكن تصرفات كتيلينا وزميليه أثارت ريبة السناتوس الذى اشتم أعضاؤه رائحة الغدر، فاتخذوا الاحتياطات اللازمة، وأمدوا القنصلين بحرس شخصى مسلح، وبذلك أحبطت المؤامرة..

ومع أن كراسوس لم يكن ضالعا فى هذه المؤامرة، فقد استخدم نفوذه بعد فشلها لمنع إجراء التحقيق مع المتآمرين، وفى وسعنا أن نستشف دافعه على ذلك مما فعله فيما بعد عندما سخرهم لتحقيق أغراضه، ولا ريب فى أنه بسط حمايته عليهم ليتخذ منهم مطايا لخدمة مصالحه !!

شيشرون(١) والوفاق بين الطبقتين

وفى يوليو من عام ٦٤ رشح ثلاثة أشخاص أنفسهم للقنصلية.كان هؤلاء الثلاثة هم كتيلينا، وأنطونيوس، وشيشرون. وقد ألمنا بطرف من سيرة كتيلينا الذى أثار مخاوف الحزب الأرستقراطى بالمؤامرة الفاشلة التى دبرها فى عام ٦٦ ق.م، وبتحالفه مع كراسوس وقيصر اللذيْن اعتزما تأييده هو وأنطونيوس للاستفادة منهما بعد الفوز بالقنصلية. وكان أنطونيوس - وهو شقيق البريتور الذى تولى قياده الحملة ضد القراصنة فى كريت - رجلا ضعيفا منحلا، وإن كان ينتمى الى أسرة من أسر النبلاء.

أما شيشرون فهو ماركوس توليوس كيكرو، أخطب خطباء الرومان وألمع

كتابهم. ولد فى عام ١٠٦ ق.م فى بارييم، وهى نفس البلدة التى أنجبت ماريوس. واشتغل فى مستهل حياته بالمحاماة، وأحرز بمرافعاته فى المحاكم شهرة عريضة، وكسب صداقة عدد كبير من أقطاب عصره. وكانت أشهر قضية ترافع فيها هى قضية فريس حاكم صقلية الذى حمل شيشرون عليه حمله شعواء فأدانته المحكمة فى عام ٧٠ ق.م

اتخذ شيشرون، كسائر محاميّى عصره، من الخطابة سلما لارتقاء مسرح السياسة، وتدرج بسرعة فى سلك المناصب العامة الأولية. وقد اتجهت ميوله حينئذ نحو الحزب الديموقراطى فانبرى فى الدفاع عن قانون مانيليوس، الذى خُول بومبى بمقتضاه سلطات استثنائية واسعة..

وكان شيشرون ينتمى بحكم نشأته إلى الفرسان الذين كانوا فى صدر حياته السياسية متحالفين مع دهماء المدينة لمعارضه دستور سلا، وبعدئذ لمناوأة لوكللوس وتأييد بومبى. فلما أخذ كراسوس يحيك الدسائس ضد بومبى فى غيابه، وجد معظم الفرسان أنفسهم مضطرين الى التضامن مع السناتوس لإحباط هذه الدسائس، واتخذ لنفسه منذ ذلك الحين شعارا سياسيا مؤداه العمل على إيجاد نوع من الوفاق أو الوئام بين طبقتى السناتوس والفرسان، لكنه كان على حد تعبير الرومان رجلا جديدا فى المجتمع ليس له صلات أسرية واسعة ولم يكن قائدا لجيش من قبل. ومن ثم فإنه كان يفتقر الى بطانة كبيرة من الأتباع، ولا كان فى مقدوره أن يؤلف

(١) هو ماركوس توليوس شيشرون Marcus tullius Cicero شيشرون Cicero، الكاتب الرومانى وخطيب روما المميز، ولد سنة ١٠٦ق.م، صاحب إنتاج ضخم يعتبر نموذجا مرجعيا للتعبير اللاتينى الكلاسيكى وصلنا لحسن الحظ جانب كبير منه، لقد أثارت شخصية شيشرون الكثير من الجدل والتقيمات المتضاربة وخاصة فى الجانب السياسى من حياته، فهو تارة مثقف مضيع فى وسط سيئ، وتارة أخرى ثرى إيطالى صاعد فى روما، وثالثة انتهازى ومتقلب و«أداة طيعة فى يد الملكية» و«متملق لبومبى ثم سيزار» بحسب ثيودور مومسين وجيروم كاركوبينو، ولكنه أيضا بحسب بيير كريمال الجسر الذى عبره وصلنا جانب من الفلسفة اليونانية.

حزبا سياسيا يشايعه كزعيم سياسى، بل كان يعتمد اعتمادا كبيرا على إرضاء الأرستقراطيين وخلوص نواياهم نحوه، وهم من ارتضوا السير ورائه مع شىء من التأفف والتردد، وكان عليه أيضا أن يفكر فى بومبى، فاتجه إليه عاقدا الآمال عليه دون أن يدرك مبلغ ضيق بومبى ذرعا بأنه قد سبقه إلى إنقاذ روما من براثن كتلينا.

كتب شيشرون إلى بومبى رسالة يناشده فيها التعاون على احتضان مولد "الوئام الجديد". ورد عليه بومبى ردا مخيبا لبعض آماله، بل إنه لم يوفه حقه فى الثناء على إنقاذ العاصمة من براثن كتلينا عام ٦٣ ق.م. وعندئذ كتب شيشرون رساله أخرى إلى بومبى يقترح عليه عقد تحالف بينهما، فيتولى أحدهما حماية الدولة والآخر توجيه دفتها، على أن يظل التحالف قائما بين الفرسان والسناتوس ضد العناصر الشريرة، وبذلك تتصلح أحوال الدولة وتسير أمورها سيرا حسنا.

وعندما رشح شيشرون نفسه للقنصلية لم يتوقع - فيما يبدو - أن يتلقى سوى مساعدة ضئيلة من جانب الأرستقراطيين، حتى إنه فكر فى التحالف مع كتيلينا. لكنه سرعان ما نبذ الفكرة عندما تبين له أن كراسوس وقيصر يؤيدان ترشيح كتيلينا وانطونيوس. وأسفرت المعركه الانتخابية الحامية عن فوز كل من شيشرون وأنطونيوس بالمنصب السامى، وبدت النتيجه فى ظاهرها وكأنها فوز جزئى لكراسوس، لكنها فى واقع الأمر كانت هزيمة تامة له، لانه لم يكن فى وسع حليفه أنطونيوس أن ينجز شيئا دون موافقة شيشرون الذى يتمتع مثله بحق الاعتراض. ولذلك تخلى أنطونيوس عن كراسوس وقيصر، وآثر أن يساوم شيشرون الذى فاز بأفضل الولايتين (فاز شيشرون بولاية مقدونيا، وفاز انطونيوس بغالة القيبة) اللتين كانتا تخصصان للقنصلين لكى يتولى فيها الحكم عقب انتهاء خدمتهما السنوية فى روما، فاتفق القنصلان على أن يتبادلا الولايتين، فى مقابل أن يدع انطونيوس مقاليد السياسة فى يد شيشرون.

مشروع روللوس

وإزاء الفشل الذى منى به كل من كراسوس وقيصر فقد بحثا عن وسائل أخرى لإضعاف شوكة بومبى وتقوية مركزهما، فلم يكد النقباء العشرة يتقلدون مناصبهم فى العاشر من ديسمبر سنة ٦٤ كشأنهم فى كل عام، حتى أوعز كراسوس إلى أحدهم ويدعى روللوس فى أن يتقدم بمشروع ضخم لتوزيع حصص زراعية على الفقراء الرومان فى إيطاليا، مع تخويلهم حق توريثها لأبنائهم دون حق بيعها للغير. ولما كانت الحكومة لا تستطيع أن توزع إلا الأراضى العامة، ولم يكن بإيطاليا حينئذ سوى مساحات صغيرة صالحة للتوزيع، فقد نص القانون على أن تشترى الأراضيَ اللازمة الصالحة للتوزيع لسد الحاجة، ولكى تشترى الحكومه أراضى على نطاق واسع، كان لابد أن يتوفر لديها رصيد كبير من الأموال. لذا نص القانون على أن تبيع الحكومه كل ما تبقى فى حوزتها من الأراضى عامة فى إيطاليا وجميع الأراضى التى آلت اليها خارج إيطاليا منذ قنصلية سلا الأولى عام ٨٨، وتخصص الأموال المتحصلة من بيع الأراضى والإيرادات المتجمعة من فتوحات بومبى الأخيرة فى الشرق من أسلاب الحرب وغنائمها، تخصص كلها لشراء أراض فى إيطاليا كقطائع صالحة للتوزيع على المواطنين المعدمين.

واقترح روللوس اختيار لجنة من عشرة رجال من المرتبة البريتورية للإشراف على تنفيذ المشروع، وتخويلها سلطة الأمبريوم لمدة خمس سنوات، وتفويضها سلطة قضائية لا معقب عليها، وحق مصادرة الأراضى، ودفع التعويضات، والفصل فى المنازعات الملكية، وتأسيس المستعمرات، وتعبئة القوات العسكرية اللازمة للتنفيذ قرارت اللجنة.وتقوم بانتخاب أعضاء اللجنة جمعية مؤلفة من سبع عشرة قبيلة تُختار بالقرعة من بين القبائل الخمس وثلاثين، على أن يقدم المرشحون أسماءهم بأنفسهم.

والمشروع فى ظاهره مشروع جليل يستهدف الإصلاح الاجتماعى، فهو

يخفف وطأة الضائقة الاقتصادية، ويغرى الفقراء بالعودة إلى الريف لزراعة أراضيه، ويحل مشكلة ازدحام العاصمة بالدهماء المتعطلين. لكن نظرة فاحصة الى مواده تكشف عن صورته الشوهاء، وتفضح نوايا صاحبه ومن أوعزوا إليه باقتراحه. فاللجنة تتمتع بسلطة أضخم مما يتطلبه أى مشروع للإصلاح الزراعى مهما جل قدره، وفى وسع اللجنة أن تسىء استعمالها. وتتم طريقة انتخاب اللجنة على يد جمعية خاصة عن سوء القصد وفساد السياسة، بل إن طريقة اختيار القبائل نفسها لا تحول دون تلاعب.

ولم يقصد من اشتراط حضور المرشحين لعضوية اللجنة بأنفسهم سوى استبعاد بومبى من اللجنة، التى لم يكن هناك شك فى أنها ستقع تحت سيطرة كراسوس وقيصر. وما فائدة استبدال مستأجرى الأراضى العامة ذوى الخبرة بملاك جدد لا خبرة لديهم ؟ وأخطر من هذا كله غموض المشروع فيما يتعلق بممتلكات روما خارج إيطاليا، إذ لم يكن هناك ما يمنع اللجنة من ان تحسب مصر جزءا من هذه الممتلكات، متذرعه بالوصية المزعومة التى أومأنا اليها، مما يتيح لكراسوس وقيصر فرصة حشد جيش لاحتلالها، واتخاذها قاعدة لمناهضة نفوذ بومبى، ومعنى ذلك إحياء المشروع الذى أخفق كراسوس فى تنفيذه عندما كان رقيبا فى عام ٦٥ ؟ وهل من الإنصاف أن ينفذ مشروع ضخم بتوزيع الأراضى فى غياب بومبى، بل وراء ظهره، بقصد إحراج مركزه بحرمان جنوده من الإقطاعات أو منحها لهم بشروط باهظة مع أنهم أحق بها من سواهم ؟

ولم تخف نوايا روللوس على شيشرون الذى لم يكد يتولى مهام القنصلية فى اليوم الأول من يناير عام ٦٣، حتى هاجم المشروع فى أربع خطب وصلتنا منها ثلاث، الأولى منها غير كاملة، واما الخطبة الثانية التى ألقاها فى الجمعية القبلية فكانت أروع انتصار أحرزه فى ميدان الخطابة، إذ استطاع أن يقنع فيها الجماهير برفض مشروع يستهدف فى ظاهرة منفعتهم الشخصية.

ولا تخلو هذه الخطبة بداهة من التهويل والتحريف والمغالطة كما هو

الحال فى كثير من خطبة السياسية. على أن بعض الحجج التى ساقها لهدم المشروع تلقى ضوءا باهرا على نفسية الشعب الذى أصغى اليه. فقد أوضح لهم شيشرون أن الهدف الحقيقى من المشروع يختلف عن الهدف الظاهرى، وأن روللوس ما هو إلا ألعوبة فى يد بعض الساسة المغامرين الذين لا همّ لهم سوى مهاجهة بومبى وتقويض نفوذه.

وأضاف أن المشروع يفسح المجال للمحاباة والرشوة، ويضع مئات من الناس تحت رحمة قرارات لجنة الأراضى التى تتصرف فى مبالغ ضخمه قد تغرى أعضاءها بالتلاعب. وليس هناك ما يضمن أن ما تشتريه اللجنة من أراضٍ فى إيطاليا سيرضى به فقراء المواطنين. ولا ريب فى أن أصحاب الضياع التى توجد فى المناطق القحلة، أو تتعذر فيها الزراعة بسبب الجفاف والملاريا، أو انتزعت من ضحايا سلا فى ظروف مريبة، هؤلاء الملاك سينتهزون الفرصة ليتخلصوا من ضياعهم بمساومة الحكومة عليها. فهل من الحكمة أن تباع أراضى الدولة بأسعار بخسة، ويضحى بالإيرادات المضمونة والايجارات الثابتة فتوضع فى يد اللجنة لتشترى بها من المقربين لديها أراضيَ لا خير فيها بأسعار خيالية؟ ولماذا يقبل العامة مشروعا سيحملهم على مغادرة العاصمة إلى الريف حيث لا مناص من الكد والكدح، ويحرمهم كذلك من المهرجانات الفاخرة والقمح المجانى وسماع الشائعات والاتجار بالأصوات، والاستمتاع بمآدب التكريم التى تقام لهم بوصفهم أصحاب الكلمة الأولى فى التشريع والانتخاب؟ بهذه الحجج وغيرها قضى شيشرون على المشروع قضاء تاما حتى إن صاحبه سحبه قبل الاقتراع عليه.

كانت هذه الهزيمة هى خاتمة حملة الدسائس التى حاكها كراسوس ضد بومبى أثناء غيابه. وكان الوقت يمضى بسرعة، وسرعان ما يفرغ القائد الكبير من حملته فى الشرق ويعودإلى إيطاليا، ومن الحكمة ألا يقدم كراسوس على شىء قد يدفعه إلى التعجيل بالعودة لمحاسبة خصومة فتنشب حرب أهلية جديدة.

وليس معنى هذا أن كراسوس كان راغبا فى الحرب، بل من المرجَّح أنه كان يؤثر مساومة بومبى على إشهار السيف فى وجهه. لكنه كان يلعب بالنار فى الفترة ما بين ٦٣، ٦٧ ق.م، وكان من الممكن أن يفلت من يديه الزمام فلا يستطيع أن يتجنب قيام الحرب مثلما لم يستطع خصوم قيصر أن يتجنبوها بعد ذلك فى الفترة ما بين ٥٢ ـ ٥٩ ق.م. غير أن الحظ ابتسم لروما فابتعد شبح الحرب الأهلية، وأحبط شيشرون هذه الدسائس ومؤامرة خطيرة أخرى.

عندما كف كراسوس عن تدبير المؤامرات ضد بومبى، حذا حذوه قيصر وغيره من رجال الحزب الديموقراطى، حتى لا يتخذ القائد المتغيب من أفعالهم تكئة للتفكير بالعودة إلى العاصمة على رأس جيشه، ووجد قيصر بعض العزاء فى انتصار أحرزه فى ميدان آخر. فقد حدث أن خلا منصب الكاهن الأعظم بوفاة ميتللوس بيوس. وكان المنصب الذى أصبح منذ أيام سلا يشغل عن طريق التعيين وفقا على الساسة المتقدمين فى السن.

ولم يكن من المحتمل أن يقع اختيار هيئه الكهنة على سياسى ناشئ مثل يوليوس قيصر، غير أن لابينوس، أحد نقباء العامة[1] فى سنه ٦٣ ق.م، تقدم باقتراح إلى مجلس العامة بإعادة العمل بقانون دوميتيوس الذى صدر سنة ١٠٤، وجعل اختيار الكاهن الأعظم فى يد جمعية انتخابية خاصة تتألف من سبع عشرة قبيلة تُختار بالقرعة من بين القبائل الخمس وثلاثين.

ورشح قيصر نفسه للمنصب بعد أن أنفق كل ما استدانه على الدعاية الانتخابية، وعقد كل أمله على الفوز، فحالفه الحظ فانتصر على منافسين قويين من النبلاء، سبق لكل منهما أن تولى القنصلية[2].

(١) وهو الجمعية القبلية عندما تنعقد برئاسة أحد نقباء العامة لا برئاسة حاكم متمتع (بالامبريوم) كالقنصل أو البريتور.

(٢) كان أحد هذين المنافسين سرفيليوس الاساورى قنصل عام ٧٩، والآخر كاتولوس قنصل عام ٧٨، وأحد الأقطاب البارزين فى الحزب الأرستقراطى.

وجدير بالذكر أن قيصر أحدث ضجة فى العاصمة عندما أوعز إلى صديقه نقيب العامة لابينوس فى أوائل عام ٦٣ ق.م بأن يرفع دعوى على عضو مسن من أعضاء السناتوس يدعى رابيريوس، لأنه كان له يد فى اغتيال نقيب العامة ساتورنينوس فى عام ١٠٠ ق. م أى منذ ٣٧ عاما مضت.وكان الاتهام له ما يبرره من الناحيه القانونية لأن القرار النهائى الذى أصدره السناتوس ضد ساتورنينوس لم يكن يخول قتله دون محاكمة .

ولكن قيصر لم يجعل القضية تنظر ـ كما كان ينبغى ـ أمام محكمة الجنايات المختصة بالقتل العمد، بل أمام محكمة أحياها بعد ان بطل استخدامها من قديم الزمن، وهى محكمة الخيانة العظمى المؤلفة من قاضيين، وقد أدانت المحكمة رابيريوس وقضت بصلبه فوق شجرة جرداء. ولكن السناتوس قرر بطلان هذا الحكم بإيعاز من شيشرون الذى اعترض على أى إجراءات أخرى ضد المتهم بمقتضى سلطته القنصلية.

ومع هذا وجه لابينوس إلى رابيريوس مرة أخرى عدة اتهامات غير صحيحة أمام (مجلس العامة) كان من بينها تهمه القتل. وبعدئذ اتفق مع البريتور المدنى ـ بمقتضى إجراء غير عادى كانت له بعض السوابق ـ على إحالة القضية على الجمعية المئوية .

وهناك تولى شيشرون الدفاع عن رابيريوس وندد بوحشية الحكم واستنكر مهاجمة (قرار السناتوس الأخير) معرضا فى ذلك بماريوس، زوج عمة يوليوس قيصر، وبقنصل عام ١٠٠ ق.م الذى كان السناتوس قد عهد إليه أمر تنفيذ قراره النهائى.وقبل أن تمضى الجمعية المئوية فى الاقتراع فض البريتور الاجتماع بإنزال العلم المرفوع على تل يانيكولم، وهى إشارة كانت تعنى قديما أن العدو (الاتروريين) على الأبواب وضرورة إرجاء الجلسة وانهاء المناقشات والمبادرة إلى حمل السلاح.

وهكذا انتهت هذه المحاكمة أو بالأحرى هذه المسرحية الهزلية التى يبدو

أن قيصر لم يقصد منها الاحتجاج على إعدام المواطنين بمقتضى قرار السناتوس الأخير، بقدر ما قصد منها الظهور والدعاية لنفسه.. لكن إذا كان قيصر قد هدأ باله وقنع بالمنصب الدينى الرفيع حتى تمنح له فرصه أخرى، فإن كتيلينا لم يهدأ له بال منذ سقوطه فى انتخابات القنصلية فى أواخر عام ٦٤، وقد زاد من قلقه تراكم الديون عليه وتخلى كراسوس عن مؤازرته بعد أن تبين له عدم نفعه، أو بعد أن بلغه احتمال عوده بومبى إلى إيطاليا على وجه السرعة. مع هذا فقد رشح كتيلينا نفسه قنصلا لعام ٦٢.

وأعلن أنه يعتزم فى حالة فوزه بالمنصب إلغاء جميع الديون حتى يجتذب إليه الأشراف المفلسين من أمثاله وينضوى الفلاحون الذين رهنوا أراضيهم تحت لوائه.

لكن شيشرون، الذى كان قنصلا لعام ٦٣، كان له بالمرصاد،فقام بالدعاية ضده مستغلا خوف الجماهير من أساليب العنف ونفور رجال الأعمال من سياسة التطرف،وأيده بعض رجال السناتوس الذين كانوا يرون فى نشاط كتيلينا خطورة على دستور الجمهورية. وأفلح شيشرون فى تأليب الرأى العام عليه فسقط فى الانتخابات للمرة الثانية، وعندئذ فقد صوابه ودبر مؤامرة للاستيلاء على مقاليد الحكم بالقوة.

وإذا كانت خطب شيشرون قد خلدت هذه المؤامرة من ناحية، فقد طمست بعض معالمها من ناحية أخرى، إذ صور الخطيب المفوه زعيم المؤامرة وأتباعه تصويرا قاتما وهول من بشاعة الجريمة، حتى ينبه السناتوس والشعب على جسامة الخطر المحدق بهم. ومن العسير أن تتبين مدى انسياقه وراء بلاغته الخطابية لتشويه الحقائق وتحريف الوقائع وتلفيق التهم.

ومع هذا فمن المسلم به أن يقظة شيشرون أجبرت كتيلينا على تعديل خطته الاصلية وفى وسعنا أن نقول، برغم ما يكتنف تفاصيل المؤامرة من غموض وإبهام، فإن هدف كتيلينا الأول كان ينصب على انتزاع القنصلية

لنفسه بالتخلص من شيشرون، ثم إلغاء الديون كافة لإرضاء أنصاره، وأن خطته الأولى كانت تنطوى على إثارة الاضطرابات فى روما بمعاونه فريق من المجالدين المقيمين بالمدينة، بينما يقوم مانليوس، أحد أنصاره، بحشد قوات كافية من جنود سلا القدامى فى اتروريا والتسلل بها إلى بلدة برينستى، والتجمع هناك فى يوم ٢٧ أكتوبر من عام ٦٣ ق. م للزحف على روما فى مساء اليوم التالى الذى كان عيدا سنويا احتفالا بانتصار سلا. كان هذا العمل كفيلا بحمل بومبى على العودة إلى إيطاليا مع جيشه لإقرار النظام، فلا تجد حكومة الانقلاب متسعا من الوقت لكى تعبئ القوات الكافية لصده عن العاصمة.

فمؤامرة كتلينا إذن لن يكون لها سوى نتيجة واحدة وهى التمهيد لقيام حكومة دكتاتورية برئاسة بومبى، وهو ما كان كراسوس وقيصر يخشيانه ويعملان على تجنبه. وعلاوة على ذلك فإن كراسوس بوصفه دائنا كبيرا وصاحب أملاك كثيرة يتعرض للخسارة لو ألغيت جميع الديون وشبت الحرائق فى أنحاء المدينة. وكان من الممكن أن تسير الخطة كما رسمها كتيلينا فيؤخذ شيشرون على غرة وينجح الانقلاب.

غير أن أنباء المؤامرة تسربت إلى مسامع القنصل عن طريق امرأة كانت على صلة بواحد من المتآمرين وتأكدت الأنباء بمجموعة من الرسائل ألقى بها مجهول أمام منزل كراسوس الذى سلمها لشيشرون، وهى رسائل موجهة إلى فريق من أعضاء مجلس الشيوخ لحثهم على مغادرة العاصمة قبل وقوع الكارثة. واستنادا إلى هذه المعلومات دعا شيشرون السناتوس إلى الانعقاد، واستطاع فى جلسة يوم ٢١ أكتوبر سنة ٦٣ أن يثير مخاوفه ويقنعه بإصدار (قراره الأخير) - وهو كما أسلفنا كان بمثابه إعلان الأحكام العرفية فى حالة الطوارئ - وتخويله السلطه لاتخاذ التدابير الكفيلة بالمحافظة على سلامة الدولة.

وعندئذ أمر شيشرون بترحيل المجالدين من روما إلى كابوا، وحشد على

عجل قوات لحراسه المدينة، وعهد إلى أحد البريتوريين بتعبئة كتائب جديده فى بيكينوم وغالة القريبة، وأرسل ضابطا آخر على رأس قوة صغيره لمراقبة نشاط الثوار فى اتروريا ومنع وصول الإمدادات الإيطالية إليهم.

ولم يجد مناصًا من أن يعدل خطته الأولى، فقرر أن يشن هجومه على أكثر من جبهة، ويوسع حركه الاغتيالات، ويربك السلطات بإشعال النار فى عدة أماكن متفرقة بالمدينة، ويحرض العبيد على نهبها.

وشرع فى تنظيم حركه ثورية واسعه النطاق فى الريف الإيطالى، وتجنيد المجالدين فى مدارس التدريب بكابوا، والرعاه المسلحين فى ضياع أبوليا، والمزارعين المتذمرين فى غالة القريبة وأواسط إيطاليا.

كما قرر أن يتولى بنفسه قياده الجيش المحتشد فى شمالى اتروريا، والزحف به إلى روما مثلما فعل لبيدوس من قبله. فإذا ما تم له احتلال العاصمة أقام حكما دكتاتوريا كالذى أقامه كنا وكاربو.

ومع أن شيشرون بلغته بعض أنباء الخطة الجديدة وخبر المؤامرة التى دبرت لاغتياله فى بيته، واستطاع أن يحبطها فى الوقت المناسب، فإنه لم يلق القبض على كتيلينا لعدم توافر الأدلة القاطعة على إدانته.

ودعا شيشرون مجلس الشيوخ للاجتماع فى ٨ نوفمبر من عام ٦٣ ليطلعه على ما تجمع لديه من معلومات ويتلقى منه التعليمات. وبلغ من جرأة كتيلينا أنه حضر تلك الجلسة لكى يذر الرماد فى عيون الناس ويدفع عن نفسه الشبهات ويوهم أعضاء السناتوس ببراءته.

لكن شيشرون حمل عليه فى خطبته _المعروفة الآن باسم (الخطبة الأولى ضد كتيلينا) _حملة شعواء وندد بسيرته الشائنة زاعما أنه قد وضع يده على خيوط المؤامرة الأخيرة ثم ناشده بل استجداه أن يرحل عن روما وبريحه ويريح المدينة من شروره. ولعل شيشرون باعتباره قنصلا كان يبغى أن

يثير اعتراض المجلس على تساهله فيأمره بالقبض على كتيلينا فورا.

لكن السناتوس لم يفعل ذلك. مع هذا فقد أحس كتيلينا بحرج مركزه فغادر العاصمة من تلقاء نفسه فى اليوم التالى قاصدا اترروريا، ليتولى قيادة القوات التى تجمعت هناك. وعندئذ فقط أعلن السناتوس أنه عدو الوطن وعهد إلى انطونيوس، زميل شيشرون فى القنصلية، أن يقود الحملة ضد الثوار.

وفى يناير عام ٦٢ دارت عند بلده بستوريا على مقربة من فلورنسه بإقليم أترروريا رَحَى معركة رهيبة انتهت بهزيمه كتيلينا ومصرعه بعد أن تم القبض على المتآمرين فى روما، وأحرز شيشرون شهرة واسعة بالقضاء على هذه المؤامرة حتى إن كاتولوس اقترح على السناتوس تلقيبه بأبى الوطن اعترافا بفضله، وتملك شيشرون الزهو فبالغ فى تمجيد الدور الذى قام به، وتباهى بأنه أنقذ الدولة من الدمار المحقق. ولا ينبغى أن ننسى أن حادثة المؤامرة نفسها تنهض دليلا على ضعف الحكومة بوجه عام، وعلى الخطورة الناشئة عن عدم وجود قوة بوليسية دائمة فى روما للمحافظه على الأمن العام.

لكن القبض على زعماء المؤامرة أثار مناقشات حادة فى مجلس الشيوخ الذى كان شيشرون قد دعاه إلى الانعقاد فى ٥ ديسمبر من عام ٦٣ قبل انتهاء قنصليته بأيام قليلة، حتى يستشيره فيما ينبغى اتخاذه من إجراءات ضد المتهمين، ولا سيما بعد أن تردد أن اصدقاءهم يحاولون إطلاق سراحهم بالقوة. كانت الإجراءات فى الظروف العادية تقتصر على رفع الدعوى عليهم أمام محكمة الجنايات المختصة بجريمة القتل والاغتيال أو المحكمة المختصة بجريمة استعمال القوة لقلب نظام الحكم. وقد قدم فعلا فى العام التالى بعض المتهمين الآخرين لمحاكم الجنايات.

غير أن الظروف فى عام ٦٣ لم تكن عادية مما جعل شيشرون يعتقد أنه من الأوفق التخلص من المقبوض عليهم ليكونوا عِبرة لغيرهم من ثوار اترروريا فتثبط عزيمتهم ويبادروا إلى الاستسلام. لذلك طالب بإعدام المتهمين دون

محاكمة بدعوى أنهم قد أصبحوا بارتكاب هذه الجريمة أعداء متجردين من حقوق المواطنة، وأن قرار السناتوس الأخير يخوله هذه السلطة.

كانت الدعوى الأولى بمثابة مغالطة منطقية أو قياسا باطلا، وأما الثانية فهى دعوى واهية لأن السلطة المخولة للقنصل بمقتضى (قرار السناتوس الأخير) كانت مبهمة غير محددة تحديدا واضحا. حقيقة أن الإعدام دون محاكمة لم يكن فى عصر شيشرون إجراء غير مشروع فى وقت الطوارئ، لكنه لم يكن متفقا عليه من الجميع. كما لم يكن من المؤكد أن الضرورة تحتم اتخاذه ضد الجناة بعد أن حددت إقامتهم وزال خطرهم. لهذا حرص شيشرون على ألا يتخذ أى إجراء تعسفى تترتب عليه عواقب وخيمة دون أن يستخلص من السناتوس قرارا ينطوى على تأييد أدبى له.

وكان السناتوس بداهه لا يملك حق توقيع عقوبه الموت على المواطنين، فكان أقصى ما يستطيعه هو أن يحول القنصل سلطة توقيع هذه العقوبة فى حاله الطوارئ على أن يتحمل القنصل لا المجلس مسئولية إصدار حكم الإعدام.

وفى الجلسة التى انعقدت لمناقشة مصير المعتقلين أعلن القنصل المنتخَب لتولى المنصب فى العام التالى أن من رأيه إعدامهم فورا، وأيده فى ذلك حوالى خمسة عشر عضوا من ذوى المرتبة القنصلية

غير أن يوليوس قيصر الذى انتخب بريتورا للعام التالى (٦٢) طعن فى دستورية هذا الإجراء، واقترح معاقبه الجناة بالسجن المؤبد فى عدة بلاد إيطالية ومصادرة أملاكهم. ومع أن هذه العقوبه سبق تطبيقها فى حالات قليلة، فإنها كانت انتهاكا صارخا للحرية الشخصية كالإعدام دون محاكمة سواء بسواء. وكاد هذا الرأى يظفر بتأييد أعضاء السناتوس لولا أن كاتو، والذى كان مرشحا للتريبيونية، ألقى خطابا عنيفا هاجم فيه قيصر وندد باقتراحه واتهمه ضمنا بالتواطؤ مع كتيلينا، وأيد شيشرون بأن العقاب الرادع كفيل دون سواه بوقاية الدولة من الخطر. وبذلك قضى على تردد المجلس

الذى وافق فى النهاية على قرار القنصل. وحصل شيشرون على التأييد الأدبى فأصدر أمره فى الحال بإعدام المعتقلين الخمسة. وبعد أن تم تنفيذ الحكم خرج إلى الجماهير المحتشدة فى السوق العامة وأعلنهم فى إيجاز بليغ بأن الجناة قد انقضت حياتهم.

وكان أخطر ما تمخَّضت عنه هذه المناقشات الحادة فى مجلس الشيوخ هو تلك الخصومة التى احتدمت بين قيصر وكاتو، والتى ستصبح بعد قليل عاملا رئيسيا فى السياسة الرومانية.

ولم تمض أيام على تلك الجلسه الصاخبة حتى قام نقيب للعامة يدعى نيبوس بحملة خطابية بين الجماهير مندداً فيها بشيشرون وملكه غير القانونى. وتقدم فى اوائل عام ٦٢ باقتراح غريب فى (مجلس العامة) باستدعاء بومبى لإخماد ثورة كتيلينا وإنقاذ الدستور من استبداد شيشرون؛ وقد تظاهر قيصر بتأييد هذا النقيب بينما وقف كاتو إلى جانب شيشرون، واعترض على اقتراح زميله. ولكن نيبوس تجاهل حق كاتو فى الاعتراض، فثار الشعب وعم الاضطراب، وأعلن السناتوس وقفه عن العمل الرسمى، ولما تبين عدم جدوى هذا الإجراء، أصدر مرة أخرى (قراره النهائى) وكاد النقيب الجرىء يلقى حتفه مثل جايوس جراكوس وساتورنينوس لولا أنه لاذ بالفرار من روما إلى معسكر بومبى فى الشرق. وفى الحقيقة أن حملة هذا النقيب على شيشرون كانت ستارا يخفى وراءه هدفا آخر، إذ كان يرمى إلى إسناد مهمة عسكرية جديدة لبومبى تتيح له، مثلما أتاحت له فى سنه ٧١، أن يتوج فتوحاته فى الخارج بإنقاذ المجتمع الرومانى من أعدائه فى الداخل، فلما فوت شيشرون عليه الفرصة بقمع فتنة كتيلينا، تظاهر فجأه بالعطف على المتآمرين، فالنزاع الحقيقى إذن لم يكن يدور حول استبداد شيشرون أو عدم استبداده، بل حول عودة بومبى بجيشه أو بدون جيشه. ولهذا شهر كاتو سلاح الاعتراض فى وجه نيبوس ليحول دون عوده القائد على رأس جيشه،

بينما بدا قيصر يدرك ـ فيما يبدو ـ فائدة التحالف مع بومبى، فتظاهر بالاستياء من مسلك شيشرون. ومع افتقارنا إلى الدليل على أن قيصر شرع حينئذ يفاوض بومبى أو يتقرب منه بصورة جدية، إلا أن موقفه وموقف كاتو من اقتراح نبيوس يلقى ضَوْءا على سياسة الأحزاب فى روما بعد عودة بومبى إلى أرض الوطن.

■■■

قائد عسكري مُحَنَّك..

قائد عسكرى مُحَنَّك..

بدأ قيصر حياته السياسية بأن تحالف مع كاتيلينا سرّاً، واختتمها بأن أعاد الحياة إلى روما، ذلك أنه لم يكد يمضى عام واحد على موت سلا، حتى قدم للمحاكمة نيوس دولابلا Gnaeus Dolabella أحد العاملين فى حركة سلا الرجعية، وكان قرار المحلفين على غير ما يشتهيه قيصر، ولكن العامة هللت له حين هاجم ذلك القرار فى خطبة بليغة ردد فيها المبادئ الديمقراطية، نعم إنه لم يكن يضارع شيشرون فى تحمسه وفكاهته، أو فى جملة الموازنات القوية، أو فى حدة لسانه، والحق أن قيصر كان يبغض أسلو شيشرون، لأنه اعتاد من أول الأمر ذلك الأسلوب الموجز القوى ذا البساطة الصارمة التى امتازت بها فيما بعد تعليقاته على الحربين الغالية والأهلية. على أنه رغم هذا كله لم يلبث أن صار أفصح الفصحاء فى روما إذا استثنينا شيشرون نفسه.

واختير قيصر كوسترا فى عام ٨٦ ق.م وأرسل للعمل فى إسبانيا حيث تولى قيادة الحملات العسكرية التى سيرت لتأديب القبائل الوطنية، فخرب مدنها، ونهب من الأموال ما استطاع أن يوفى به بعض ما عليه من الديون، على أن هذه المدن قد حمدت له فى الوقت نفسه أن خفض فوائد قروضها من الماليين الرومان، ولما قدم إلى مدينة جادز وشاهد فيها تمثالاً للإسكندر الأكبر، أخذ يلوم نفسه على أنه لم يعمل إلا القليل فى مثل السن التى فتح الفتى المقدونى، حين بلغها، نصف عالم البحر الأبيض المتوسط.

وفى طريقه إلى وطنه زار كثيراً من بلدان الغال الذين كانوا يسكنون فى الجانب الشمالى من نهر البو، ووجد أن الغال فى جنوب النهر يتمتعون

بالحقوق المدنية كاملة بينما أولئك الذى يقطنون الشمال حرموا منها، فأثار قيصر بروحه الديمقراطية روح السخط بينهم ويقال إنه حرص على قيام ثورة مسلحة، وكان القنصلان قد وضعا تحت إمرتهما القوات المعدة للخدمة فى الشرق.

ولكنهما لم يقدما على أى عمل فى ذلك الوقت، نظراً للظروف التى استجدت.

وبعد عودته إلى روما، اندفع فى الصراع القائم وقتئذ فى سبيل المنصب والسلطان، فاختير مشرفاً على المبانى العامة فى عام ٦٥ ق. م، وأنفق أمواله - أى أموال كراسس - فى تزيين السوق العامة، بما أقامه فيها من المبانى والأعمدة الجديدة، وأخذ يتودد إلى العامة بما كان ينفقه عن سعة على الألعاب، وكان قد أزيل من الكابيتول ما جمعه فيه ماريوس من شارات النصر، كالأعلام والصور والمغانم التى تمثل صفات ذلك الرجل المتطرف القديم وانتصاراته، فأعادها كلها قيصر إلى مواضعها، واغتبط بعودتها جنود ماريوس القدامى أشد الاغتباط، وأظهر بهذا العمل وحدة سياسته المناقضة لسياسة ماريوس، واحتج المحافظون على هذه السياسة، وعرفوا من ذلك الوقت أنه - أى قيصر - رجل يجب عليهم أن يعملوا للقضاء عليه.

وكان فى عام ٦٤ ق. م رئيساً لإحدى اللجان التى عينت للنظر فى بعض قضايا القتل، فاستدعى للمثول أمام اللجنة من كان حياً من عمال سلا الذين عاونوه على وضع قوائم من حكم عليهم هذا القنصل، وقضى على الكثيرين من هؤلاء العمال بالنفى أو الإعدام.

وفى عام ٦٣ ق. م اقترع فى مجلس الشيوخ ضد إعدام من اشتركوا مع كاتيلينا، وقال فى عرض خطابه إن الشخصية البشرية لا بقاء لها بعد الممات، ويلوح أن قوله هذا كان الجزء الوحيد من خطابه الذى لم يسئ فيه إلى أحد، واختير فى تلك السنة نفسها رئيساً أعلى للدين الرومانى Pontifex

maximus . ثم اختـيـر فى عـام ٦٢ بريتـورا Praetor وأمـر فى ذلك العـام بمحاكمة أحد زعماء المحافظين لاختلاسه بعض الأموال العامة.

وفى عام ٦١ ق.م عين والياً على إسبانيا، ولكن دائنيه حالوا بينه وبين السفر إليها، وأقر فى ذلك الوقت أنه فى حاجة إلى ٢٥ مليون سسترس إذا أراد ألا يمتلك شيئاً أبدا، فتقدم كراسس لمعونته وضمنه فى جميع ديونه، وبذلك استطاع أن يسافر إلى أسبانياً، ويشن حملات حربية مروعة على القبائل الثائرة ذات النزعة الاستقلالية.

وعاد بعدها إلى روما ومعه من الغنائم ما يكفى لأداء ديونه وملء خزائن الدولة بالمال، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن اقترح أن يقام له احتفال بنصره العظيم، ولعل الأشراف قد أظهروا بعملهم هذا كثيراً من الدهاء وحصافة الرأى، فقد كانوا يعرفون أن قيصر سيرشح نفسه لمنصب القنصلية، وأن القانون ينص على ألا يرشح لها من كان غائباً عن البلاد، وأن من يقام له احتفال بالنصر يجب أن يظل بحكم القانون بعيداً عنها إلى يوم الاحتفال، وحرص مجلس الشيوخ على أن يحدد بعد موعد الانتخاب.

ولكن قيصر استبق يوم الاحتفال بنصره، ودخل المدينة وأدار المعركة الانتخابية بجد ومهارة عجز معارضوه عن مقاومتها.

وكان سبب نجاحه مهارته فى ضم بومبى إلى قضية الحرية، وكان بومبى قد عاد توّاً من بلاد الشرق بعد أن قام فيها بسلسلة من الأعمال الحربية والسياسية المجيدة، فقد طهر البحر من القراصنة، وأمن بذلك سبل التجارة فى البحر الأبيض المتوسط، وأعاد الرخاء إلى المدن التى كان رخاؤها يعتمد على هذه التجارة. وكان قد أرضى أصحاب المال فى روما بفتح بثينيا وبنتس وسوريا، وكان قد خلع ملوكاً وأجلس على العرش آخرين، وأقرضهم الأموال من غنائمه الحربية بفوائد باهظة، وقبل رشوة كبيرة من ملك مصر الذى دعاه إلى القدوم إليها لإخماد فتنة اندلع لهيبها فى تلك البلاد، ثم عاد

فامتنع عن تنفيذ ما اتفق عليه بحجة أنه عمل غير مشروع، ونشر لواء السلام فى ربوع فلسطين، وجعلها ولاية خاضعة لنفوذ روما، وأنشأ تسعاً وثلاثين مدينة جديدة، وأقر حكم القانون والنظام والسلام، وخلاصة القول إنه كان قد سلك قبل ذلك الوقت مسلك السياسى والحكيم والحاكم القدير، وأن مسلكه عاد على البلاد بالمال الوفير، فلمارجع إلى روما حمل إليها ثروة عظيمة من الضرائب والخراج، والبضائع التى غنمها فى حروبه، ومن الأموال التى افتدى بها الأرقاء أو بيعوا بها، فاستطاع بذلك أن يعمر خزانة الدولة بمائتى مليون سسترس، وأن يضمن لها إيراداً سنويا قدره ثلاثمائة وخمسون مليوناً، وأن يوزع على جنوده ثلاثمائة وأربعة وثمانين مليونا، وأن يستبقى لنفسه رغم هذا كله من المال ما ينافس به كراسس، فيكون أحد رجلين هما أغنى أغنياء روما.

وكان خوف مجلس الشيوخ من هذه الأعمال أكثر من سروره منها، فلما علم أن بومبى قد نزل فى برندزيوم، ومعه جيش يدين له بالولاء والإخلاص، ويستطيع بكلمة من قائده أن يجعله حاكماً بأمره على البلاد، لما علم مجلس الشيوخ ذلك تملكه الرعب، ولكن بومبى كان رجلاً كريماً عظيماً، فسرح جنوده ودخل روما وليس معه إلا أتباعه الأخصاء. ودام الاحتفال بنصره يومين كاملين، ولكن هذه الفترة على طولها لم تكف لعرض الحفلات التى تصور انتصاراته، وتظهر مغانمه.

وكان مجلس الشيوخ حقوداً ضنيناً، فرفض طلبه القاضى بتوزيع الأرض على جنوده، ولم يقرَّ الاتفاقات التى عقدها مع الملوك المغلوبين، وأعاد النظم التى أقامها من قبله لوكلس فى بلاد الشرق والتى أغفلها بومبى. وكانت نتيجة هذه الأعمال أن تمزق اتفاق شيشرون المعروف بحلف الطبقات Con-cordi ordinum، وأن ألقى بومبى والرأسماليون فى أحضان الطبقات الدنيا، واغتنم قيصر هذه الفرصة السانحة فألف منه ومن بومبى وكراسس

الحكومة الثلاثية الأولى، وتعهدوا جميعاً أن يقاوموا كل تشريع لا يرضى عنه أى واحد منهم ووافق بومبى أن يساعد قيصر فى أن ينتخب قنصلاً، كما تعهد قيصر، إذا ما اختير لهذا المنصب، أن ينفذ الاقتراحات التى عرضها ورفضها مجلس الشيوخ.

وكانت الحملة الانتخابية شديدة مريرة استخدمت فيها الرشوة من كلا الجانبين، ولما سمع كاتو زعيم المحافظين أن حزبه يبتاع أصوات الناخبين، تحلل من مبادئه الأولى ووافق على هذا العمل بحجة أنه وسيلة إلى غرض نبيل، واختار العامة قيصر كما اختار الأشراف ببيلوس Pibulus.

قيصر قنصلا لروما:

وما كاد قيصر يتسلم مقاليد منصبه حتى عرض على مجلس الشيوخ المطالب التى تقدم بها بومبى، وهى توزيع الأرض على عشرين ألفاً من المواطنين الفقراء، ومنهم جنود بومبى، والتصديق على الاتفاقات التى عقدها بومبى فى بلاد الشرق، وتخفيض المبالغ التى تعهد الملتزمون بجمعها من ولايات آسيا بمقدار ثلثها، ولما عارض المجلس كل مطلب من هذه المطالب بجميع ما لديه من وسائل، عرضها قيصر على الجمعية مباشرة، واستطاع المحافظون أن يقنعوا ببيلوس، كما أقنعوا العرافين بأن يعلنوا أن الحظ غير موات لإجابتها، ولم يأبه قيصر لأقوال العرافين، وحمل الجمعية على أن تتهم ببيلوس بالخيانة، وقام رجل متحمس من العامة فأفرغ وعاء من البراز على رأس ببيلوس.

ثم وافقت الجمعية على مشروعات قيصر، وكانت تجمع بين السياسة، وخطة مالية ترضى رجال الأعمال، وأعجب بومبى بوفاء قيصر بعهده، واتخذ يوليا ابنته زوجة رابعة له، وأصبح الاتفاق بين العامة والطبقة الوسطى رابطة حب وصداقة، وتعهد أعضاء الحكومة الثلاثية للجناح المتطرف من أتباعهم أن يؤيدوا ببليوس كلوديوس Pibulus Clodius فى أن يُنتخب تريبوناً فى

خريف عام ٥٩ ق. م، وأخذوا يعملون من ذلك الحين للمحافظة على رضاء الناخبين، بما يقدمونه لهم من ضروب اللهو والألعاب الكثيرة.

وتقدم قيصر بمشروعه الثانى الخاص بتوزيع الأراضى فى شهر أبريل من ذلك العام نفسه، وكان هذا المشروع يقضى بتوزيع الأراضى التى تملكها الدولة فى كمبانيا على من كان له ثلاثة أبناء من المواطنين الفقراء، وتجاهل قيصر مجلس الشيوخ مرة أخرى، وأجازت الجمعية المشروع، وبذلك تمت الموافقة على المشروع الذى سبق للأخوين تيبريوس وجايوس جراكوس النداء به به منذ عام ١٣٣ ق. م.

ولزم ببليوس Pibulus فى ذلك الوقت بيتَه، واكتفى بأن أخذ يصدر من حين إلى حين تصريحات يقول فيها إن الطوالع غير مواتية للتشريعات الجديدة، أما قيصر فكان يصرف الشئون العامة من غير أن يستشيره فيها، وبلغ من إهماله إياه أن كان الظرفاء من أهل المدينة يصفون هذا العام بأنه عام قنصلية يوليوس قيصر، الذى أراد أن يفرض رقابة الشعب على مجلس الشيوخ، فأنشأ أول صحيفة إخبارية بأن جعل الكتبة يسجلون أعمال الشيوخ وغيرهم، مضافة إلى الأخبار اليومية، ثم تعلق هذه الأعمال اليومية ويحملها إلى جميع أجزاء الإمبراطورية رسل يخصصون لهذا العمل.

وقبل أن تنتهى فترة هذه القنصلية التاريخية أفلح قيصر فى أن يصبح والياً على بلاد الغال الجنوبية، وغالية ناربونة، فى الخمس سنين التى تلى سنة القنصلية، وإذا كان القانون يحرم إقامة الجنود فى إيطاليا نفسها، فإن قيادة الفيالق المقيمة فى شمال إيطاليا قد جعلت لصاحبها (قيصر) السيطرة العسكرية على شبه الجزيرة بأكملها، وأراد قيصر أن يستوثق من بقائه تشريعاته السابقة، فعمل على أن يُنتخب صديقاه جابنيوس وبيزو قنصلين فى عام ٥٨ ق.م، وتزوج كلبيرنيا ابنه بيزو. ولكى يضمن استمرار العامة على تأييده بذل جهوده الموفقة لانتخاب كلوديوس تريبوناً فى عام ٥٨ ق.م، ورغم

أن قيصر كان يرتاب فى علاقة عاطفية بين كلوديوس وزوجته الثالثة بمبيا، وطلقها بسبب ذلك، فإنه لم يجعل ذلك يعطل مشروعاته السياسية، ولم يجعله يتراجع فى ترشيح كلوديوس، وسنتحدث عن هذه القصة فى الفصل القادم..

زير النساء الشهير:

فى أثناء هذه الفترة، كثرت مغامرات قيصر مع زوجات أصدقائه واشتهرت، ولم تسلم امرأة جميلة منه، خاصة أولئك اللاتى كان يقع بصره عليهن كثيراً نظراً لصداقته لأزواجهن أو أقاربهن، ولم يمنعه من نصب شباكه على الجميلات ممن يعرف إلا مراعاته لمصالحه السياسية، ولهذا اضطر للتضحية بعلاقة مع موكيا زوجة بومبى الذى كان فى أمس الحاجة لصداقته، وقد وصف أومان هذا الموقف فيما يلى:

" لقد كان ولاشك رجلاً فى كل طلاق يتمشى مع العصر الحديث، وإذا نظرنا إلى قائمة السيدات اللائى ارتبطت أسماؤهن باسمه، لا يسعنا إلا الدهشة لحالة المجتمع فى روما التى سمحت له بالحياة دون أن يلحقه أذى حتى منتصف عمره، ومما يذهلنا أنه لم يلق حتفه فى ركن مظلم بطعنة خنجر بين ضلوعه قبل أن يصل إلى سن الثلاثين بكثير !! ".

لقد كان ذكياً ماكراً مما ساعده إلى تحويل أية مشكلة لصالحه، فقد كان يرسم الخطط الغرامية لزوجات بومبى، وكراكوس، وجابينيوس، وجميع قواد حزبه السياسى فى وقت واحد.

وكانت صلته بـ"ببيليوس كلوديوس" معروفة، وكان شابا أرستقراطيا باسلاً لا يهاب الموت، ولا يتورع من الناحية الخلقية عن اقتراف أية موبقة، وقد نزل من طبقة الأشراف - كما نزل منها كاتلين وقيصر - ليقود العامة فى كفاحهم ضد الأغنياء، ولما كان منصب التربيون محظورا على الأشراف، مقصورا على العامة، وأراد أن ينتخب تربيوناً، فقد أقنع إحدى الأسر الفقيرة بأن تتبناه،

وكان مشروعه السياسى أن يعيد توزيع الثروة التى تجمعت فى أيدى بعض الطبقات فى روما، وهدفه أن يقضى على شيشرون الذى كان قد استطال فى عرض أخته كلوديا، فأخذ يدافع عن حرمة الملكية، وعمل جندياً عادياً تحت إمرة قيصر حتى يستطيع أن يستولى على زمام السلطة، وكان يعجب بخطط قيصر، ويعشق زوجته واحتال للوصول إليها بأن تزيا بزى امرأة، ثم تزيا بزى كاهن، واشترك فى المراسم الدينية التى يقيمها النساء وحدهن إلى الإلهة الطيبة Bona Dea، ثم افتضح سره ووجهت إليه تهمة الاعتداء على حرمة الإلهة وأسرارها، وحوكم فى هذه التهمة، ولما نودى على قيصر ليشهد عليه، قال: إنه لا يوجه تهمة ما إلى كلوديوس، فلما سأله المدعى العمومى عن سبب طلاقه بمبيا، قال إن سبب هذا الطلاق هو: " إن زوجتى يجب أن تكون بعيدة عن الشبهات ".

وكانت هذه إجابة لَبِقَة تسىء إلى كلوديوس، دون أن تسىء إلى قيصر، وشهد كثيرون بأن كلوديوس كان على اتصال بكلوديا، وأنه ضاجع أخته ترشيا بعد زواجها من لوكس..

واحتج كلوديوس بأنه كان غائباً عن روما فى ذلك اليوم الذى يعزى إليه فيه ذلك الاتهام المزعوم الدنىء (حسب وصفه)، ولكن شيشرون شهد بأن كلوديوس كان معه فى روما فى ذلك اليوم نفسه، وظن الشعب أن المسألة كلها مؤامرة من مجلس الشيوخ للقضاء على زعيم من زعمائه، وأخذ يطالب ببراءته من التهمة الموجهة إليه، ورشا كراسس عدداً من القضاة - بتحريض قيصر كما قالت بعض المصادر - ليحكموا فى صالح كلوديوس، واستطاع المتطرفون للمرة الأولى أن يقدموا من المال أكثر مما يقدمه المحافظون، وبُرئ كلوديوس، ولم يدع قيصر هذه الفرصة السانحة تفلت من يده، فاستبدل بزوجة من أبناء المحافظين ابنة أحد الشيوخ المناصرين لقضية الشعب.

ولم يكد قيصر يعتزل منصبه حتى اقترح بعض المحافظين إلغاء كل

التشريعات التى أصدرها إلغاء تاما، ولم يكتم كاتو رأيه فى هذه القوانين اليوليوسية وطلب بمحوها من سجلات القوانين الرومانية، وتردد مجلس الشيوخ فى الاستجابة إلى هذا التحدى الصريح لقيصر ومن ورائه الجحافل الرومانية، ولكلوديوس المسيطر على التريبيونية، وكان كاتو فى عام ٦٣ ق. م قد خطب ود الشعب وحاول ضمه إلى جانب المحافظين بإعادة النظام القاضى بتوزيع الغلال على الأهلين بثمن بخس، وأراد كلوديوس أن يكون أكثر منه استرضاء للعامة، فأخذ يوزع الغلال من غير ثمن على كل من يطلبها، وأقرت الجمعية بناء على طلبه، مشروعات قوانين تحرم رفض الإجراءات التشريعية بالاستناد إلى الحجج الدينية، وتجعل تأليف الهيئات النقابية من الحقوق المشروعة.

وكان مجلس الشيوخ قد حاول من قبل حل تلك الهيئات، وقد أعاد كلوديوس تنظيم هذه الهيئات وجعل لها حق الاقتراع مجتمعة، وكسب بذلك ولاءها وإخلاصها له، فعينت له من أعضائها حرساً مسلحا، وإذ كان كلوديوس يخشى أن يحاول كاتو وشيشرون، بعد أن تنتهى فترة توليه منصبه، إلغاء ما قام به قيصر من الأعمال، فقد أقنع الجمعية بتعيين كاتوا مندوباً رومانيا فى قبرص، وإصدار قرار يقضى بنفى كل من يتسبب فى قتل أى مواطن رومانى دون أن يحصل على موافقة الجمعية، كما تتطلب ذلك قوانين الدولة.

ورأى شيشرون أنه هو المقصود بهذا القانون، ففر إلى بلاد اليونان حيث أخذت المدن والشخصيات الكبيرة تتنافس فى تكريمه والاحتفاء بمقدمه، وكان رد الجمعية على هذا القرار أن قررت مصادرة أملاك شيشرون، وهدم بيته القائم على تل البلاتين .palatine

وكان من حسن حظ شيشرون أن كلوديوس قد غره ما ناله من نصر، فأخذ يهاجم بومبى وقيصر، ويحاول الانفراد بزعامة الشعب، وكان جواب بمبى على خطط كلوديوس هو تأييده الطلب الذى تقدم به كونتس أخو شيشرون

بالسماح لخطيب روما أن يعود إليها، ودعا مجلس الشيوخ جميع المواطنين الرومان إلى الاجتماع فى عاصمة الدولة ليبدوا رأيهم فى هذا الاقتراح، وجاء كلوديوس بعصابة مسلحة إلى ميدان الاقتراع ليشرف على عملية الاقتراع، واستخدم بومبى رجلاً فقيراً من الأشراف يدعى أنيوس ميلو Annius Milo لتنظيم عصابة أخرى لمناوئتها، وكانت نتيجة ذلك حدوث شغب واضطراب سفكت فيه الدماء، فقتل عدد كبير من الناس، ولم ينج كونتس نفسه من القتل إلا بمعجزة من المعجزات، على أنه أفلح فيما كان يرمى إليه، وعاد شيشرون ظافراً إلى رومه بعد نفى دام عدة شهور. وحيته فى طريقه من برنديزيوم إلى روما جماهير غفيرة، بلغت من الكثرة حداً تظاهر معه شيشرون بالخوف من أن يُتهم بأنه قد دبر أمر نفيه ليحظى بهذا التكريم العظيم عند عودته.

ويبدو أنه قد تعهد بمناصرة بومبى، ولعله أيضاً قد تعهد بمناصرة قيصر، نظير سماحهما بعودته، ويعضد ذلك أن قيصر أقرضه أموالاً كثيرة لينظم بها شئونه المالية من جديد، وأبى أن يتقاضى عليها فائدة، وظل شيشرون بعد عودته عدة سنين المدافع عن أقطاب الحكومة الثلاثية، والناطق بلسانهم فى مجلس الشيوخ.

ولما لاح فى أفق روما خطر نقص الحبوب مرة أخرى استطاع بومبى أن يحصل على تفويض عجيب، هو أن تكون له السلطة الكاملة مدى ست سنين على كل موارد الطعام فى روما، وعلى جميع ثغور الدولة وتجارتها الخارجية، واستطاع بومبى مرة أخرى أن يَفيد من هذه السلطة أعظم إفادة، ولكن دستور الجمهورية أصيب مرة أخرى بطعنة نجلاء، وظل حكم الأفراد يحل محل حكم القانون، وكذلك استطاع شيشرون أن يقنع مجلس الشيوخ بالموافقة على اقتراح عُرض عليه بتقديم مبلغ كبير من المال لأداء مرتبات جنود قيصر فى غالة.

وفى عام ٥٤ ق. م أفلح شيشرون فى دفاعه عن أولس جابنيوس Aulus Gabinius حاكم إحدى الولايات، وصديق رجال الحكومة الثلاثية، حتى برئ من تهمة ابتزاز أموال الولايات، واستخدام العنف فى الحصول عليها، وفى عام ٥٥ ق.م خسر شيشرون كل ما كسبه من عطف قيصر ومعونته، بهجومه العنيف على وال رومانى آخر يدعى كلبيرنيوس بيزو، ذلك أنه لم ينس قط أن بيزو هذا كان من الذين اقترعوا على نفيه، ونسى أن ابنة بيزو كانت زوجة قيصر.

وكانت الخطوة التالية لقيصر هى القضاء على ابتزاز الأموال فى الولايات، وقد كانت العادة الشائعة أن يُترك العنان للحاكم ومعاونيه يعتصرون الولاية، كأنهم اسفنجة، فلا يتركونها إلا يابسة، وقد كان إصلاح قيصر فى هذا الخصوص عظيماً ظلت تتناقله الكتب عدة قرون.

ولما عاد كاتو من قبرص عام ٥٧ ق. م بعد أن أعاد تنظيم شئونها على خير وجه، شرع المحافظون يلمون شعثهم، ويعيدون تنظيم صفوفها، وكان كلوديوس قد أضحى وقتئذ عدو بومبى الألد ! واتجه الأدب من ذلك الوقت وجهة معادية لقيصر، وأخذت قصائد كلفس وكاتلس الهجائية تصوب كالسهام المسمومة إلى معسكر الحكومة الثلاثية، وكلما توغل قيصر فى بلاد الغال، وتواترت أنباء ما كان يلاقيه فيها من الأخطار الكثيرة، أخذ الأمل يدب من جديد فى الشخصيات النبيلة فى الخلاص منه بأيدى الغاليين، وقال شيشرون وقتئذ: إن " من لم يمت بالسيف مات بغيره".

وإذا جاز لنا أن نصدق ما قاله قيصر، فإن عدداً من المحافظين قد أخذوا يأتمرون مع أريوفستس القائد الجرمانى على اغتيال قيصر، وسارع دميتوس يرشح نفسه للقنصلية، ويعلن أنه إذا ما فاز بها فيسقترح من فوره على المجلس استدعاء قيصر، بما يعنى أن قيصر سيُتهم ويُحاكم، وسار شيشرون مع التيار، فاقترح أن ينظر مجلس الشيوخ فى يومى ٢٥ ـ ٢٦ من شهر مايو من العام نفسه، فى إلغاء قوانين قيصر الخاصة بالأراضى الزراعية.

فتح بلاد الغال

تسلم قيصر فى عام ٥٨ ق. م مهام منصب حاكم بلاد غالة الجنوبية والنربونية، أى شمال إيطاليا وجنوبى فرنسا، وقد كان قيصر يعرف ما يفعله تماماً حين اختار بلاد الغال ولاية له، فقد كانت مصدر التهديد الحقيقى لروما.

وكان أريوفستس قد سار فى عام ٧١ ق. م على رأس خمسة عشر ألفاً من الجرمان إلى بلاد الغالة حين استعانت به إحدى قبائلها على قبيلة أخرى، وقدم لها القائد الجرمانى المعونة التى طلبتها، ولكنه لم يغادر البلاد، بل بقى فيها ليبسط حكمه على جميع القبائل الضاربة فى شمال غالة الشرقى.

واستنجدت قبيلة الأيدوى Aedui- إحدى هذه القبائل - بروما لتعينها على الجرمان، وخول مجلس الشيوخ الحاكم الرومانى على بلاد غالة النربونية حق إجابة هذا الطلب، ولكنه فى الوقت نفسه تقريباً ضم أريوفستس إلى طائفة الحكام الموالين لروما، وكان مائة وعشرون ألفاً من الألمان قد عبروا فى هذه الأثناء نهر الراين، واستقروا فى فلاندرز، فشدوا بذلك أزر أريوفستس، وأخذ يعامل أهل البلاد معاملة الشعوب المغلوبة، وشرع يمنى نفسه بالاستيلاء على بلاد غالة بأجمعها.

وبدأت فى الوقت عينه قبائل الهلفتى Helvetti الضاربة حول جنيفا تهاجر نحو الغرب، وكانت عددها نحو ٣٧٠ ألف مقاتل، وأنذر قيصر بأن هذه القبائل تعتزم اختراق بلاد غالة النربونية فى طريقها إلى جنوب فرنسا الغربى.

ويصف ممسن Mommsen حركات هذه القبائل بقوله: " لقد كانت القبائل الجرمانية الضاربة تتحرك فى جميع الأصقاع الممتدة من نهر الراين إلى المحيط الأطلنطى، وكانت هذه اللحظة شبيهة باللحظة التى انقضت فيها قبائل الجرمان والفرنجة على إمبراطورية القياصرة المتداعية.. بعد خمسمائة عام من ذلك الوقت، وأخذ قيصر يحتال لإنقاذ روما بينما كانت

روما نفسها تدبر المؤامرات للقضاء عليه "..

وجند قيصر من ماله الخاص ومن غير أن يرجع فى ذلك إلى مجلس الشيوخ ـ وكان الدستور يحتم عليه الرجوع إليه ـ ثلاث فرق جديدة كاملة العدة زيادة على الأربع فرق التى كانت تحت إمرته، ثم أرسل يدعو أريوفستس أن يحضر إليه من فوره ليبحث الموقف معه، ورفض أريوفستس الدعوة كما كان قيصر يتوقع، وأقبلت وقتئذ على قيصر وفود كثيرة من القبائل الغالية تطلب إليه حمايتها، فأعلن الحرب على أريوفستس وقبائل الهلفتى، واتجه بجيوشه نحو الشمال ودارت بينه وبين جحافل الهلفتى معركة حامية عند بيركتى Bibracte عاصمة الأيدوى، ومكانها الآن بالقرب من بلدة أوتون Autun، وانتصرت جيوش قيصر فى هذه المعركة انتصاراً غير حاسم، أقرب ما يكون إلى الهزيمة، كما يقول قيصر نفسه، وعرض الهلفتى أن يعودوا إلى موطنهم فى سويسرا، ووافق قيصر على أن يؤمنهم فى عودتهم إليه، ولكنه اشترط عليهم أن تخضع البلاد التى كانوا يحتلونها إلى حكم روما، وبعثت بلاد الغالة جميعها وقتئذ تشكر له تخليصها من أعدائها، وترجوه أن يساعدها على طرد أريوفستس، والتقى قيصر بالجرمان عند أسيزم Astheim ودارت بينه وبينهم معركة انتهت بقتلهم، وأسرهم عن آخرهم تقريباً، وفر أريوفستس من الميدان، ولكنه مات بعد ذلك بقليل.

واعتقد قيصر أن تحرير غالة من أعدائها لا يفترق فى شىء عن فتحها، فشرع من فوره يعيد تنظيمها على أساس خضوعها لسلطان روما، وحجته فى ذلك أن هذا التنظيم هو الوسيلة الوحيدة لحمايتها من الجرمان، ولم تقنع هذه الحجة بعض الغاليين فثاروا، واستعانوا عليه البلجى Belgae، وهى قبيلة جرمانية كلتية قوية كانت تسكن شمال غالة بين نهرى السين والراين، والتقى بهم قيصر على شاطئ نهر الآين Aisne وهزمهم، ثم سار بسرعة خاطفة لم تمكن أعداءه من لَمِّ شعثهم، والتقى بالسويسيون Suissiones والأمبيانى Am-

biani، والنرفياى Nervii والأدوتيشى Aduatici وهزم كلاً منهم على انفراد، ونهب بلادهم، وباع أسراهم لتجار الرقيق الإيطاليين، وأعلن فى ذلك الوقت فتح بلاد الغالة، وكان فى إعلانه هذا متعجلاً بعض الشىء، وجاراه مجلس الشيوخ فأعلن أن غالة ولاية رومانية، ورفع العامة من روما ـ ولم يكونوا يقلون فى نزعتهم الاستعمارية عن أى قائد من القواد ـ ورفعوا عقيرتهم يمجدون بطلهم البعيد، وعاد قيصر فعبر الألب إلى بلاد غالة الجنوبية، وأخذ يعمل على تنظيم شئونها الإدارية ، وسد ما حدث من النقص فى فيالقه، ودعا بومبى وكراسس أن يقابلاه فى لوكا، ليضع معهما خطة مشتركة للدفاع عن أنفسهم ضد الحركة الرجعية التى يقوم بها المحافظون.

وأرادوا أن يقطعوا الطريق على دميتيوس Domitius فاتفقوا على أن يتقدم بومبى وكراسس للقنصلية فى عام ٥٥ ق. م منافسين له، وعلى أن يعين بومبى والياً على أسبانيا وكراسس على سوريا لمدة خمس سنين ٥٤ ـ ٥٠ ق.م، وعلى أن يسمح له بعد انتهاء هذه الفترة أن يتقدم مرة أخرى للقنصلية.

وأمد قيصر صديقيه بما يلزمهما من الأموال التى غنمها من الغاليين لخوض المعركة الانتخابية، وبعث أيضاً بمبالغ طائلة إلى روما ليوجد ببعضها أعمالاً للمتعطلين، ويدفع منها مكافآت لمؤيديه، وليرفع ببعضها مكانته فى أعين الشعب بالإقدام على تنفيذ خطة واسعة من المنشآت العامة، وحيا الشيوخ الذين جاءوا ليتفحصوا عن قرب غنائمه بالرشا السخية، فأدى ذلك إلى إخفاق الحركة التى كانت ترمى إلى إلغاء ما أصدره من القوانين، واختير بومبى وكراسس قنصلين بعد أن قدما الرشا السخية المعتادة، وعاد قيصر يعمل على إقناع الغاليين بأن السلام أفضل من الحرية، وأخذت الأحوال على نهر الراين شمال كولونى تنذر بالشر المستطير، فعبرت النهر قبيلتان جرمانيتان إلى غالة البلجيكية، وزحفتا فيها إلى أن وصلتا لييج liege واستعان بهما الحزب الوطنى فى غالة على الرومان، والتقى قيصر بالغزاة

عند أكسانتن Xanten وصدهم إلى نهر الراين، وقتل منهم كل من لم يمت فى النهر غرقاً رجالاً كانوا أو نساء أو أطفالاً، ثم أقام مهندسوه فى عشرة أيام جسراً على النهر العظيم، وكان عرضه وقتئذ ١٤٠٠ قدم، وعبرت عليه فيالق قيصر، وحاربت أعداءها فى الأراضى الجرمانية زمناً يكفى لجعل نهر الراين حداً آمناً للدولة الرومانية، ثم عاد بعد أسبوعين إلى بلاد غالة.

وبعدما أقام قيصر هذا الجسر، عرض عليه رسل الأعداء بعض المقترحات التى لم تسفر عن شىء، فتقدم الهلفيتيون وقيصر فى إثرهم على بعد خمسة أميال من مؤخرتهم وذلك مدة أسبوعين، واستطاع الأعداء صدفة أن يخترقوا إحدى الشراك، ولحاجة قيصر إلى القمح اتجه فى طلب المؤنة إلى بلدة بيبراكتى المليئة بالغلال، فأساء الهلفيتيون الفهم وبدءوا يهاجمون مؤخرة الرومان، وكان قيصر على بعد ستة عشر ميلاً جنوب البلدة، فلجأ بقواته إلى تل مجاور، واستعد للمعركة، ودارت الدائرة على الكلت الذين كانوا يواجهون روما تحت قيادة قيصر ففر جيشهم، وفى ساعة متأخرة من الليل وصلت فرق قيصر معسكر الهلفيتيين واستولت على متاعهم وأسروا أطفال قادتهم، فحاول الأعداء أن يصلوا إلى نهر الرون فتبعهم قيصر، واضطروا للتسليم فأخذ أسلحتهم وأرسلهم إلى ديارهم، وأمرهم أن يعيدوا بناء البلدان والقرى التى كانوا قد أحرقوها، كما أمر اللوبروجيس أن يمدوهم بالقمح، وكان عدد الهلفيتيين قبل خروجهم من ديارهم نحو ٣٧٠ ألفا ، فأصبحوا حين عادوا إلى أوطانهم ٢٤ ألفا، وقد حث زعيم الهيدويين قيصر أن ينقذهم من قبائل أريوفستوس والجرمان الذين أخذوا منهم رهائن وهددوهم باجتياح بلاد الغال.

وكان عدد الألمان فى ذلك الوقت ١٢ ألفا فى بلاد الغال أدخلهم أريوفستوس ضمن حلفائه السكوانيين Sequani بالخديعة، وكان يأمرهم الآن بإيواء ٢٤ ألفا آخرين، فصمم قيصر فى الحال أن يدافع عن حلفائه وأن

يزيل فى نفس الوقت أولئك الأعداء الخطرين من حدود بلاد الغال البعيدة ، وقد رد أريوفستوس على رسل قيصر بعنجهية وتحد، وفى نفس الوقت وصلت إلى القائد الرومانى أخبار بأن مائة قسم من السوبى Suebiكانوا يحاولون عبور الراين.

ولكى يمنع قيصر اتحاد هذه القوات، أسرع مع قواته ضد أريوفستوس واحتل فيسونتيو Besoncon Vesontio أكبر بلدة من بلاد السكوانيين التى كان يهددها أريوفستوس، وفى هذا الوقت انزعج جنود قيصر الذين جاء بهم من البحر الأبيض من ضوضاء الاحتلال وشجاعة الجرمان، فانتشر فيهم الرعب، وقد علم قيصر أنه من المحتمل أن ترفض قواته التقدم، فدعى إلى عقد مجلس عسكرى وخاطب قواده:" إن لم يتبعنى أحدكم سأرحل بالفرقة العاشرة فقط، وهى التى أثق فيها ثقة عمياء".. فشكرته الفرقة العاشرة لهذه الثقة، وأثارت بذلك غيرة الآخرين، وبعد مناوشات ومفاوضات غير مثمرة مع العدو، التقى قيصر بأعدائه قرب بلفورت فى السهل الشمالى الذى يقع بين فوسجيس Vosges والراين، وسبب الرومان للعدو هزيمة منكرة وهرب أريوفستوس عبر الراين إنقاذا لحياته.

وقد أرسل قيصر جيشه إلى معسكر الشتاء عند السكوانين تحت قيادة لابينوس، ورحل هو إلى بلاد الغال القريبة ليشرف على عقد اجتماع، وحينما انتشرت أخبار هزيمته للهلفيتيين الذين كانوا يفوقونه عدداً، وكذلك انتصاره على جيوش أريوفستوس المحاربة، اعترى القبائل الغالية الأخرى قلق شديد، لقد كان قائداً رومانياً منتصرا فى كل مكان قاد فيه رجاله خارج الولاية الرومانية، ثم آوى قواته لدى قبيلة كانت حرة من قبل، ثم بلغ قيصر أن البلجيكيين المحاربين قد عزموا على القضاء على قوة الرومان، وكان هؤلاء البلجيكيون يسكنون من فرنسا ذلك الجزء الواقع شمال نهرى السين والمارن وشرق نهر الراين الأدنى.. وكانوا أشجع الغاليين لأنهم كانوا أبعد القبائل عن

نفوذ الرومان، وكان عزمهم فى الحرب مبنياً على خوفهم من قيام الرومان بهجومهم بعد استتباب الحال فى بلاد الغال.

ثم جند قيصر فرقتين فى بلاد الغال القريبة وأرسلهم فى مطلع الصيف وتبعهم، ففاجأ أعداءه بظهوره أمامهم، وقد عرضت قبائل ريمى Remiالتى تقع فى أقصى الجنوب التسليم فى الحال، وقد علم منهم قيصر بوجود أكثر من ٢٥٠ ألف بلجيكى محتشدين لمحاربته، وكان قد أسر منهم حوالى ٤٠ ألف رجل، فأرسل فى الحال حليفه زعيم الهيدويين لينهب بلاد البللوفاكى Bel-lovaci قرب بوفيه، وهم أكثر قبائل البلجيكيين عدداً.

ثم عبر قيصر نهر أيسنى «Aisne» تاركاً قوة كبيرة لحراسة الجسر، وعلى بعد سبعة أميال كان البلجيكيون يهاجمون بيراكس، أحد بلدان الريمى، الذين أرسلوا لقيصر بأنهم لايستطيعون الصمود، فأرسل قيصر قوة من النوميديين والكريتيين الرماة وفرقة من ضاربى المقلاع من جزر البليار نجحوا فى كسر الحصار.

وتقدم الأعداء ضد الرومان، وعسكروا على بعد ميلين منهم، وكان طول معسكرهم أكثر من ثمانية أميال، وقام قيصر بالمعركة فأسرع البلجيكيون إلى نهر أيسني لمهاجمة القوة التى تحرس الجسر، ولكن الفرسان حطموا هذا الهجوم وشتتوا البلجيكيين واضطروهم إلى فك معسكرهم والاتجاه إلى وطنهم. علم قيصر بهذا فى الصباح فانقض فرسانه وثلاث من فرقه على الهاربين وقطعوا الكثير منهم إربا.

وصمم قيصر على إنهاء المهمة التى ألقيت على عاتقه، فتقدم فى اليوم التالى إلى السوليسيونيس .Suessiones وهاجمهم وأخذ بلدة نوفيودونوم Noviodunum المعروفة الآن باسم Soissons، وسلبهم أسلحتهم، وتقدم ضد البللوفاكى الأقوياء فاستسلموا وقدموا له الأسلاب، وفعل ذلك أيضاً مع الأمبيانى . Ambiani وهكذا لم تكلفه حرب البلجيكيين معركة واحدة وعلى

حدود أمبيانى قرب آمينس، كان يسكن النرفيون، وقد أنبوا باقى البلجيكيين لاستسلامهم، وقد كانوا أهم القبائل الثلاث فى الحلف البلجيكى وقيل إنهم كانوا أكثر بأساً فى الحرب.

وقد اتخذ النرفيون مواقعهم مع حلفائهم الأتربايتس Atrebates والفيروماندوى Veromandui على الضفة الشمالية لنهر سامبر Sambre، حيث اختبأوا خلف أسوار هائلة أقاموها لصيد الفرسان من قطاع الطرق، وقد كانت عيونهم فى معكسر الرومان تخبرهم دوماً بأعمال قيصر وتحركاته، فاتخذوا من هذا المكان كميناً لقوة الرومان.

تقدم فرسان الرومان إلى النهر أمام الفرق الست الأولى التى يتقدمها قيصر، وقد كان الموقع الذى اختاروه لإقامة معسكرهم تلا ينحدر تدريجياً إلى نهر السامبر، ويقابله على الضفة الأخرى تل آخر. عبر فرسان الرومان النهر وأبعدوا فرسان البلجيكيين حتى تمكنت الفرق الست من إقامة نصف معسكره، ثم اندفع جيش النرفيين الرئيسى وشتتوا شمل فرسان الرومان وهاجموا الجيش، وكما يصور لنا قيصر المعركة فى مذكراته المثيرة عن الحروب الغالية يقول:

" كانوا يجرون نحو النهر فى سرعة هائلة، فبدوا فى الغابات ثم فى النهر ثم فوقنا فى نفس الوقت تقريباً، وكان على قيصر أن يعمل فى الحال..".

لقد اضطر الرومان إلى رفع العلم وضرب النقير، ونادوا الرجال من أعمالهم، ثم حاربوا حيثما كانوا، واستطاع الجناح الأيسر من دفع الأتربايتس أمامه، وكان قلب الجيش فى معركة حامية على ضفاف النهر، أما الجناح الأيمن الذى واجه النرفيين فكان فى حال سىء، لقد كان الرجال على وشك الاستسلام حين انتزع قيصر درع أحد الجنود وتقدم إلى الأمام،ونادى قادة الفرق بأسمائهم ورفع من روحهم المعنوية، ولما لاحظ لابيينوس خطورة الحالة

أرسل بالفرقة العاشرة الباسلة لمساعدة الجناح الأيمن فى شدته، لقد أصبح القتال الآن لصالح الرومان ولكن النرفيين الشجعان حاربوا حتى النهاية.

ولما انتهت المذبحة أخبر شيوخ النرفيين قيصر بأن من بقى منهم حياً كانوا ثلاثة فقط من ستمائة، كما بقى ٥٠٠ محارب من ٦٠ ألفا، وقد كان ثمن الحرب فادحاً.

ثم حلت الهزيمة بالأدواتوكى الخونة وبيع منهم ٣٥ ألفا فى أسواق العبيد، كما أرسلت القبائل الساحلية أسلاباً للرومان واستتب الأمر للرومان فى كل بلاد الغال.

وفى ربيع عام ٥٦ ق. م عقد قيصر اجتماعا فى لوكا، وأقبل إليه كراسوس وبومبى وكثير من أعضاء السناتوس لمناقشة شئون روما ، فناقشوا مستقبل التحالف الثلاثى، وانتهوا إلى قرارات، فكان على بومبى أن يتولى القيادة فى أسبانيا خمس سنوات، ويأخذ كراسوس سوريا، وأن يصير كلاهما قنصلا عام ٥٥ ق.م، ولم يطلب قيصر شيئاً أكثر من خمس سنوات أخرى فى بلاد الغال، هكذا كانت لوكا فى الواقع عاصمة روما وكان قيصر دكتاتوراً عليها.

لقد كان إخضاع الولايات الساحلية أمراً هيناً، فبينما كان قيصر فى إليريا أُخبر بأن رهائن الرومان الذين أرسلوا فى طلب القمح حجزوا، فأدرك قيصر فى الحال فداحة الأمر، فأمر ببناء السفن على نهر اللوار، وتدريب المجدفين فى بلاد الغال البعيدة، كما أمر بإعداد البحارة وجمع السفن من الولايات الصديقة، وفى ربيع ٥٦ أسرع إلى مكان الإعداد، وكان يخشى أن تعم الثورة، فأرسل لابينوس ومعه الفرسان ضد التريفيرى الذى كانوا يسكنون عند منحنى نهر موسيل جنوب وغرب الراين. كما أرسل بوبليوس كراسوس إلى نهر الجارون ليهدد الأكويتانيين، وأخذ سابينوس ثلاث فرق ليمنع الولايات المجاورة من الثورة، وعين دكيموس بروتس قائداً على الأسطول، وتولى قيصر قيادة الجيش.

ولعله قد أغراه بهذا الغزو ما وصل إليه من الشائعات عن كثرة الذهب واللؤلؤ فيها، أو لعله كان يرغب فى الاستيلاء على ما فى بريطانيا من قصدير وحديد لتصدره روما إلى البلاد الخارجية، أو لعله قد أغضبه ما قدمته بريطانيا من عون إلى الغاليين، وأنه رأى أن يجعل السلطة الرومانية فى غالة آمنة من جميع جهاتها، ومهما يكن السبب فقد سار على رأس قوة صغيرة عبر بها بحر المانش فى أضيق أجزائه، وهزم البريطانيين الذين لم يكونوا مستعدين لحربه، وأخذ عن البلاد بعض المعلومات القليلة، ثم عاد لغالة، لكنه عبر البحر إلى انجلترا مرة أخرى فى العام الثانى، وهزم البريطانيين بقيادة كسفلونس Cassivelauns، ووصل إلى نهر التايمز، وانتزع من أهل البلاد وعداً بأن يعطوه الجزية، ثم رجع إلى غالة.

ولعل سبب رجوعه أنه سمع أن الثورة يكاد يندلع لهيبها مرة أخرى بين القبائل الغالية، فلما عاد أخضع أولا الإبورون Eburones، ثم زحف إلى ألمانيا ولما عاد منها ترك الجزء الأكبر من جيشه فى غالة الشمالية، ثم ذهب مع من بقى من هذا الجيش ليقضى الشتاء فى شمالى إيطاليا، وكان يرجو أن يخصص بضعة شهور لإصلاح أسواره فى روما، ولكنه سمع فى أوائل عام ٥٢ ق.م أن فرسنجتركس Vercingetorix أقدر الزعماء الغاليين قد حشد كل القبائ الغالية تقريباً فى حرب تبغى بها أن تستعيد استقلالها، وبذلك أصبح مركز قيصر شديد الحرج، لأن الجزء الأكبر من جيشه كان فى شمال إيطاليا، والأقاليم الواقعة بينه وبين هذا الجيش فى أيدى الثوار، ولكنه سار على رأس قوة صغيرة فوق ثلوج السفن Cevennes وهاجم مدينة أوفرنى Au-vergne ولما جاء فرسنجتركس بقوته ليدافع عنها ولى قيصر دسمس بروتس Decimus Brutus قيادة جنوده الذين كانوا يهاجمونها، وسار هو مختفياً ومعه عدد كبير من الفرسان مخترقاً بلاد غالة من الجنوب إلى الشمال، وانضم إلى جيشه الرئيسى وقاده من فوره إلى القتال، وحاصر أفريكوم Avaricum وبورج Bourgas، وسنابوم Cenabum، وأورليان Orleans واستولى عليها

وأعمل فيها السلب والنهب وقتل أهلها وملأ بكنوزها خزائنه الخاوية، ثم زحف بجيشه على جرجفيا Gergovia حيث قاومه الغاليون مقاومة عنيفة، اضطرته إلى الانسحاب وفى ذلك الوقت تخلى عنه الأدويون الذين أنجاهم من قبل من الجرمان، والذين بقوا حتى ذلك الوقت أنصاراً له وحلفاء، ثم استولوا على قواعده ومخازن ميرته فى سواسون Soissons وشرعوا يستعدون لرده إلى بلاد غالة النربونية.

وكان هذا هو الموقف الذى ساءت فيه أحوال قيصر كما لم تسئ من قبل ولا من بعد، ومرت به بعض أيام فقد فيها كل أمل فى النجاة، وفى هذا الوقت العصيب ضرب الحصار على أليزيا Alesia، وجازف بكل شىء فى هذا الحصار، لأن فرسنجتركس جمع فيها ثلاثين ألفاً من جنوده، وما كاد قيصر يوزع مثل هذا العدد من الجند حول المدينة، حتى وصلته الأنباء بأن ٢٥٠ ألفا من الغاليين، بدءوا يزحفون نحوالمدينة من الشمال، فما كان منه إلا أن أمر جنوده بأن يقيموا حول المدينة سورين دائريين من التراب، أحدهما من أمامهم، والآخر من خلفهم، وانقضت جيوش فرسنجتركس وحلفائه على هذين السورين وعلى الجيوش الرومانية الباسلة وهاجمتها المرة بعد المرة، ولكنها باءت فى كل هجماتها بالخسران.

وواصل الجيش المنقِذ هجماته على هذا النحو أسبوعاً كاملاً، ثم تبدد شمله لاختلال نظامه ونقص طعامه وعتاده، واستحال هذا الجيش فلولاً لا حول لها ولا طول فى الساعة التى نفدت فيها موارد الرومان، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى بعثت المدينة الجائعة فرسنجتركس نفسه بناء على طلبه إلى قيصر كأسير حرب، ثم استسلمت للرومان، ووضعت نفسها تحت رحمتهم، وعفا قيصر عن المدينة فلم يمسسها بسوء، ولكنه أسلم جنودها لرجال جيشه ليكونوا رقيقاً لهم، وسيق فرسنجتركس مكبلاً بالأغلال إلى روما، حيث سار فيما بعد يزين موكب نصر قيصر، وجوزى بالقتل على حبه للحرية.

وقرر حصار إليزيا مصير بلاد غالة، كما قرر خصائص الحضارة الفرنسية، ذلك أنه أضاف إلى الامبراطورية الرومانية بلاداً تبلغ مساحتها ضعفى مساحة إيطاليا، وفتح خزائن خمسة ملايين من الناس وأسواقهم إلى التجارة الرومانية. يضاف إلى هذا أن ذلك الحصار أنجى إيطاليا وعالم البحر الأبيض المتوسط مدة أربعة قرون من غارات البرابرة، وانتشل قيصر مرة أخرى من حافة هاوية الخراب إلى ذروة المجد والثروة والسلطان.

وظلت بلاد غالة عالماً آخر تثور ثورات متفرقة عقيمة، أخمدها قيصر بقسوة لم تألفها منه، ثم خضعت لروما وأسلمت لها أمورها، وما كاد يتم له النصر حتى عاد قيصر كما كان الفاتح الشهم الكريم، فعامل القبائل المغلوبة معاملة لينة، كان من آثارها أن هذه القبائل لم تتحرك قط لتخلع عن كاهلها نير روما حين شبت فيها نار الحرب الأهلية، ولم يكن فى مقدورها ولا فى مقدور قيصر أن يؤدبا هذه القبائل.

وظلت بلاد غالة بعدئذ ثلاثمائة عام ولاية رومانية يعمها الرخاء فى ظلال الإمبراطورية الرومانية، وتعلمت من خلالها اللغة اللاتينية، وأدخلت عليها كثيراً من التغيير حتى أصبحت الأداة التى نقلت بها ثقافة العهود الغابرة إلى شمالى أوروبا.

ولا جدال فى أن قيصر ومعاصريه لم يكونوا يدركون ما سوف تتمخض عنه انتصاراته الدموية من نتائج بعيدة المدى، فقد كان أقصى ما يظنه أنه أنقذ إيطاليا، وضم لها ولاية جديدة، وأنشأ لها جيشاً قوياً، لكنه لم يدر بخلده أنه منشئ الحضارة الفرنسية.

ودهشت روما إذا وجدت أن قيصر إدارى قادر لا يعتريه ملل، وقائد محنك واسع الحيلة، بعد أن لم تكن تعرف عنه أكثر من أنه رجل متلاف رقيع، وسياسى، ومصلح، ثم أدركت فى الوقت عينه أنه مؤرخ عظيم، ذلك أنه وهو فى ميادين القتال تقض مضجعه الهجمات المتوالية عليه من روما، كان

يسجل فتوحه فى غالة، ويدافع عن هذه الفتوح فى شروحه Commentaries، وقد سمى بها إنجازه العسكرى - إذا جاز أن نصفها بهذا الوصف - وبساطتها الفنية من منزلة النشرات الحربية إلى أسمى مكان فى الأدب اللاتينى، وحتى شيشرون نفسه، بعد أن تقلب مرة أخرى فى مبادئه السياسية، أخذ يتغنى بمدح قيصر ،ويسجل فى ذلك الوقت ما حكم به عليه التاريخ فيما بعد، إذ قال:

"ليست معاقل الألب المنيعة، ولا مياه الراين الفياضة الصاخبة، هى الدرع الحقيقى الذى صد عنا غارات القبائل الجرمانية الهمجية، بل الذى صدها فى اعتقادى هو قيادة قيصر وقوة ساعديه، ولو أن الجبال دكت وسويت بالسهول، والأنهار جفت، لاستطعنا أن نحتفظ ببلادنا حصينة منيعة بفضل ما نال قيصر من نصر مؤزر، وما قام به من أعمال مجيدة.. ألا ما أعظم فضله علينا!!"..

ويجب أن نضيف إلى هذا ما أثنى به عليه ألمانى عظيم إذ قال:

" إذا كان ثمة جسر يربط ماضى هلاس وروما المجيدة بتاريخ أوروبا الحديث، الذى هو أعظم منه مجداً وأسمى قدراً، وإذا كان غرب أوروبا رومانيّاً، وإذا كانت أوروبا الألمانية قد صُبغت بالصبغة اليونانية والرومانية القديمة.. فما ذلك كله إلا من عمل قيصر، وإذا ما أوجده سلفه العظيم فى بلاد الشرق قد كادت تمحو معالمه كلها زعازع العصورالوسطى، فإن الصرح الذى شاده قيصر ظل قائماً آلاف السنين التى تبدلت فيها الأديان وتغيرت الدول..".

■ ■ ■

قيصر الحاكم

قيصر الحاكم

انحطت السياسة الرومانية فى خلال الخمس سنين الثانية من ولاية قيصر على غالة إلى الدرك الأسفل من الفساد والعنف، فقد كان القنصلان بومبى وكراسس يسيران فى حكمهما على خطة شراء أصوات الناخبين، وإرهاب المحلفين، والالتجاء إلى القتل فى بعض الأحيان، ولما انقضت مدة ولايتهما، جند كراسس جيشاً كبيراً وأبحر به إلى سوريا، ثم عبر نهر الفرات، والتقى بالبارثيين عند كرهية Carrhae ودارت الدائرة عليه لتفوق فرسان البارثيين، وقتل ولده فى المعركة.

وبينما كان كراسس يرتد بقواته بنظام دعاه قائد البارثيين إلى الاجتماع به، فأجاب الدعوة، ولكن القائد البارثى غدر به وقتله، وأرسل رأسه ليمثل به دور بنيثيوس Bentheus فى احتفال فى بلاط ملك البارثيين، مثلث فيه مسرحية باخية Bacchae ليوربديز Euripidis وأصبح جيش كراسس بغير قيادة، وكان قد مل القتال، فانحلت عراه وتبدد شمله.

كان بومبى فى هذه الأثناء قد جمع له جيشاً، ولعله كان يبغى به إتمام فتح أسبانيا، ولو أن قيصر نجح فى خططه لفتح بومبى أسبانيا القاصية، ولأخضع كراسس أرمينية وبارثيا، ولبسطت روما سلطانها على هذه البلاد جميعها فى الوقت الذى كان قيصر يمد فيه حدود الامبراطورية الرومانية إلى نهرى التايمز والراين، ولكن بومبى أبقى فيالقه فى إيطاليا بدل أن يقودها إلى أسبانيا، إلا فيلقا واحداً أعاره قيصر إبان الأزمة التى نجمت عن ثورة الغاليين.

وحدث فى عام ٥٤ أن انفصمت العروة الوثقَى التى كانت تربطه بقيصر

على إثر وفاة زوجته يوليا فى أثناء الوضع، وعرض عليه قيصر أن يزوجه أوكتافيا حفيدة أخته وأقرب قريباته فى ذلك الوقت، وطلب قيصر أن يتزوج هو بابنة بومبى ولكن بومبى رفض كلا العرضين، وأخلت النكبة التى حلت بكراسس وجيشه فى العام التالى من الميدان قوى أخرى كانت تعمل على إيجاد التوازن فيه، ذلك أن نجاح كراسس كان من شأنه أن يحول دون طغيان قيصر أو بومبى.

عقد بومبى حلفاً صريحاً مع المحافظين، ولم يبق أمامه لنجاح خططه التى كان يبغى بها الحصول على السلطة العليا بالطرق المشروعة فى الظاهر، إلا عقبة واحدة، هى: مطامع قيصر وجيشه. وكان يعرف أن قيادة قيصر للجيش تنتهى فى عام ٤٩ ق.م فاستصدر بومبى مراسيم تقضى بمد أجل قيادته هو إلى آخر عام ٤٦ ق.م، وطلب إلى جميع الإيطاليين القادرين على حمل السلاح أن يحلفوا يمين الولاء العسكرى له هو شخصياً، وكان يعتقد بعد هذا أن الزمن كفيل بأن يجعله سيد روما.

وبينما كان القائدان اللذان يبغى كلاهما أن يكون الحاكم بأمره فى روما يضعان خططهما على هذا النحو، كانت الديمقراطية تحتضر فى عاصمة البلاد، فكانت الأحكام القضائية، ومناصب الدولة، وعروش الملوك الخاضعين لسلطانها، تباع إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان، من ذلك أن القسم الأول من المقترعين فى الجمعية قد استولى فى عام ٥٣ ق.م على عشرة ملايين سترس ثمناً لأصوات أفراده، ولما لم ينفع المال لم يتورع ذوو الشأن عن الالتجاء إلى الاغتيال أو كشف الستار عن ماضى الناس، والتهديد بالكشف عن فضائحهم، فلم يروا أمامهم سبيلاً غير الإذعان، وفشا الإجرام فى المدينة كما انتشرت السرقات فى الأقاليم، ولم يكن فى هذه ولا فى تلك قوة من الشرطة تطمئن الناس على أنفسهم أو أموالهم، فكان الأغنياء يستأجرون عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم فى الجمعية.

واستهوت رائحة المال أو هبات الحبوب أحط الطبقات فى إيطاليا فهرعت إلى روما، وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل، فكان كل من يقبل الاقتراع كما يطلب إليه يؤذن له بدخولها سواء كان من مواطنى روما أو من غير مواطنيها، وكان يحدث فى بعض الأحيان ألا يكون من بين من أعطوا أصواتهم إلا أقلية هى التى لها حق الاقتراع، وكثيراً ما كان الخطباء يحصلون على حق الخطابة فى الجمعية بالهجوم على المنصة والاستيلاء عليها قوة واقتداراً، وأضحت العصابة التى ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هى التى تشرع للدولة، كما كان الذين يقترعون على غير هواها يضربون حتى يكاد يقضى عليهم، ثم تشعل النار بعض الضرب فى بيوتهم، وقد كتب شيشرون بعد جلسة من هذه الجلسات يقول:

لقد امتلأ نهر (التيبر بجثث المواطنين كما سدت بها البالوعات العامة، واضطر الأرقاء إلى امتصاص الدم بالأسفنج من السوق العامة).

وكان كلوديوس وميلو من أعظم الخبراء الممتازين فى هذه المهزلة البرلمانية، فقد كانا ينظمان عصابات من أحط الطبقات ليصلوا بها إلى أغراضهم السياسية، وقلما كان يوم واحد يمر دون أن توضع قوة هذه العصابات موضع الاختبار.

من ذلك أن كلوديوس هاجم شيشرون فى أحد شوارع المدينة فى يوم من الأيام، وحرق أُجراؤه بيت ميلو فى يوم ثان، ثم قبضت عصابات ميلو على كلوديوس نفسه فى يوم آخر وقتلته، غير أن صعاليك المدينة الذين لم يكونوا يجهلون ما يدبره من المؤامرات رفعوه إلى مقام الشهداء واحتفلوا بجنازته احتفالاً عظيماً، وجاءوا بجثته إلى مجلس الشيوخ، وحرقوا البناء فوقها كأنه كومة الحطب التى تحرق عليها جثث الموتى.

وجاء بومبى بجنوده ففرقوا الغوغاء، ثم طلب إلى المجلس جزاء له على عمله هذا أن يعينه "قنصلاً بغير زميل"، وهى عبارة نصح له بها كاتو وقال

إنها أخف على السمع من لفظ "دكتاتور" ! ثم عرض بومبى على الجمعية بعد أن أرهبها بجنده، عدة اقتراحات يبغى بها القضاء على الرشوة والفساد السياسيين المنتشرين فى البلاد، كما عرض عليها اقتراحاً بإلغاء حق المرشح لمنصب القنصل أن يفعل هذا وهو غائب عن روما. وكانت الجمعية قد منحت قيصر هذا الحق بناء على مشروع قانون عرضه عليها بومبى نفسه فى عام ٥٥ ق.م.

وأخذ بومبى يشرف بنفسه على قوة الدولة العسكرية، وعلى أعمال المحاكم، ولم يؤخذ عليه فى هذا الإشراف شىء من الهوى أو المحاباة، وحوكم ميلو على جريمة قتل كلوديوس، وأدين على الرغم من دفاع شيشرون عنه، ثم هرب إلى مرسيليا وغادر شيشرون روما ليحكم قليقية وحكمها بكفاية ونزاهة أدهشتا أصدقاءه وأغضبتهم عليه، ثم استسلمت عناصر الثروة والنظام كلها فى عاصمة البلاد إلى دكتاتورية بومبى، أما الطبقات الفقيرة فظلت صابرة تتلهف على عودة قيصر.

الحرب الأهلية

دامت الفتن والثورات فى الدولة الرومانية مائة عام، حطمت فى خلالها كيان الطبقة الأرستقراطية الأنانية القليلة العدد التى كانت تتولى شئون الحكم فى البلاد، ولكنها لم تحل حكومة أخرى محلها.

فأما الجمعية فقد أفسدها التعطل والرشوة والجبن ومجالدة الوحوش، فأحالتها إلى جماعة من الغوغاء الجهلة تسيطر عليهم أهواؤهم وشهواتهم، فكانت بذلك عاجزة أشد العجز عن حكم نفسها، بل حكم إمبراطورية واسعة الرقعة.

وانحطت الديمقراطية حتى أضحت وكأنها هى المعنية بقول أفلاطون: "صارت الحرية إباحية، وأخذت الفوضى تتوسل أن يوضع حد للحرية". ولم يختلف قيصر مع بومبى فى أن الجمهورية قد ماتت، وأنها أصبحت على حد

قوله: "اسماً على غير مسمى، لا جسم لها ولا صورة "، ولم يكن ثمة مفر من الدكتاتورية، ولكن قيصر كان يريد أن يضع أزمَّة الأمور فى أيدى قيادة تعمل لتقدمها ورقيها، قيادة غير جامدة لا تبقى البلاد على حالها التى تردت فيها، بل تبذل جهودها لتخفيف ما يتغلغل فيها من مفاسد ومظالم، أفسدت الديمقراطية وهوت بها إلى الحضيض. وكان قيصر وقتئذ فى الرابعة والخمسين من عمره، وما من شك فى أنه قد أوهنته حروبه الطويلة فى غالة، وأنه لم يكن يحب أن يتورط فى محاربة مواطنيه وأصدقائه السابقين، ولكنه كان على علم بالمؤامرات التى تحاك له، والفخاخ التى تنصب لاقتناصه، وكان يؤلمه أشد الألم أن تكون هذه المؤامرات والفخاخ هى الجزاء الذى يجزى به من أنجى إيطاليا من الدمار والخراب، وكانت مدة حكمه فى غالة تنتهى فى اليوم الأول من شهر مارس سنة ٤٩ ق. م، ولم يكن فى وسعه أن يتقدم للقنصلية إلا فى خريف ذلك العام، وفى الفترة الواقعة بين الزمنين يفقد الحصانة التى يسبغها عليه منصبه، ولا يستطيع دخول روما دون أن يعرض نفسه للاتهام بأنه خارج على القانون، وهو السلاح المألوف الذى كانت تلجأ إليه الأحزاب المختلفة فى روما فى نزاعها على السلطة.

وكان ماركس مارسلس Marcus Marcellus قد عرض قبل ذلك الوقت على مجلس الشيوخ أن يعزل قيصر من الولاية قبل انتهاء مدتها، ومعنى هذا العزل هو: البقاء خارج البلاد أو المحاكمة، وكان التريبيونان قد أنجياه من هذه المكيدة باستخدام ما لهما من حق الاعتراض، ولكن مجلس الشيوخ كان بلا ريب راضياً عن هذا الاقتراح، وقال كاتو بصريح العبارة إنه يرجو أن توجه التهمة إلى قيصر، وأن يحاكم ويُنفى فى إيطاليا.

أما قيصر نفسه فلم يدخر جهداً فى العمل على إزالة أسباب النزاع بينه وبين خصومه، فلما أن طلب مجلس الشيوخ بإيعاز من بومبى أن يتخلى له كلا القائدين عن فيلق يرسله لقتال بارثيا، أجابه قيصر من فوره إلى طلبه،

وإن لم تكن القوة التى لديه كبيرة. ولما طلب بومبى إلى قيصر أن يعيد إليه الفليق الذى أرسله له قبل عام من ذلك الوقت، بادر أيضاً بإرساله إليه، وإن كان أصدقاؤه قد أبلغوه أن الفيلقين لم يرسلا إلى بارثيا بل بقيا فى كابوا، وطلب قيصر على لسان مؤيديه فى مجلس الشيوخ أن يعاد العمل بقرار الجمعية السابقة، الذى كان يجيز له أن يرشح نفسه لمنصب القنصلية وهو غائب عن روما، ولكن المجلس رفض الاقتراح وطلب إلى قيصر أن يسرح جنوده وأحس هو أن ليس له سند يحميه إلا فيالقه، ولعله لم يكن يعمل لكسب ولائهم له إلا ليقفوا إلى جانبه فى مثل هذه الأزمة، غير أنه فى ذلك الوقت عرض على مجلس الشيوخ أن يعتزل هو وبومبى منصبيهما، وبدا هذا العرض معقولاً لا غبار عليه فى نظر الشعب حتى إنه كلل جبينه بالأزهار، ووافق المجلس على هذه الخطة بأغلبية ٣٧٠ ضد ٢٢، ولكن بومبى أبى أن يخضع لهذا القرار، حتى إذا أشرف عام ٥٠ ق.م على الانتهاء ولم يبق منه إلا بضعة أيام أعلن أن قيصر عدو الشعب، إذا لم يتخل عن القيادة قبل اليوم الأول من شهر يوليو.

وفى أول عام ٤٩ قرأ كوريو Curio على المجلس رسالة من قيصر يعلن فيها استعداده لتسريح جيشه كلّه عدا فيلقين اثنين، إذا سُمح له بأن يظل والياً على غالة حتى عام ٤٨ ق.م ولكنه أفسد هذا العرض بأن أضاف إليه أنه يرى فى رفضه إعلاناً للحرب عليه، ودافع شيشرون عن هذا الاقتراح، ووافق عليه بومبى، ولكن القنصل لنتولس Lemtulus تدخل فى الأمر وأخرج كوريو Curio وأنطونيوس نصيرى قيصر من المجلس، وبعد نقاش طويل أصدر المجلس على كره منه، وبإلحاح من لنتولس وكاتو ومارسلس إلى بومبى أمراً وسلطة يعمل بهما على ألا تصاب الدولة بسوء، وتلك عبارة رومانية معناه الدكتاتورية والحكم العسكرى.

وتباطأ قيصر وتردد أكثر مما كانت عادته، فقد كان مجلس الشيوخ من

الوجهة القانونية على حق فيما فعل، ولم يكن من حقه هو أن يعارض الشروط التى عزل بمقتضاها من منصبه وقيادته، وكان يعرف أن الحرب الأهلية قد تثير الفتنة فى غالة وتخرب إيطاليا بأجمعها، ولكنه كان يعلم أيضاً أن استسلامه معناه إسلام الامبراطورية للعجز وللرجعية.

وترامى إليه فى أثناء تفكيره أن صديقاً من أقرب الأصدقاء إليه، ومن أقدر مؤيديه، وهو تيتس لبيينس Titus Labienus، قد انشق عليه وانضم إلى بومبى، فما كان منه إلا أن استدعى الفليق الثالث عشر، أكثر فيالقه ولاء له وأحبها إلى قلبه، وعرض الأمر كله على رجاله، وكانت أول كلمة نطق بها أمامهم وهى زملائى الجنود Commilitones كافية لكسب قلوبهم، ولم يكونوا ينكرون عليه حقه فى استعمال هذا اللفظ، لأنهم رأوه من قبل يشترك معهم فى الصعاب، ويتعرض معهم للأخطار، وكثيراً ما شكوا هم أنفسهم من أنه يجازف بحياته ويعرضها للخطر فوق ما يجب.

وكان هو على الدوام يخاطبهم بهذا اللفظ بدل اللفظ المقتضب الجاف الذى كان ينطق به من هم أقل منه مجاملة من القواد.

وكان معظم رجاله من بلاد الغالة الجنوبية وهى البلاد التى جعل لأهلها حق المواطنين الرومان، وكانوا يعرفون أن مجلس الشيوخ قد أبى أن يعترف لهم بهذه المنحة، وأن أحد أعضائه قد جلد رجلاً من أهلها ليدل بذلك على احتقاره لعمل قيصر، على الرغم من أن جلد المواطن الرومانى كان عملاً لا يجيزه القانون، وكان قيصر قد علمهم فى أثناء حروبهم الطويلة أن يحترموه بل أن يحبوه على طريقتهم الخشنة الصامتة فى الحب، وكان قاسياً على الجبناء ومن لا يرعون النظام، ولكنه كان سمحاً ليناً لا يقسو عليهم جزاء لهم على أغلاطهم التى تدفعهم إليها طبيعتهم البشرية، وكان يتغاضى عن أخطائهم الجنسية ويجنبهم ما لا ضرورة له من الأخطار، وكثيراً ما أنجاهم من الهلاك بحنكته وحسن قيادته، هذا إلى جانب أنه ضاعف أجورهم، ووزع

عليهم كثيراً من غنائمه الحربية، ولما جاءوا إليه شرح لهم ما عرضه على مجلس الشيوخ، وكيف قابل المجلس هذه العروض، وذكر لهم أن الارستقراطية المتعطلة الفاسدة لا تستطيع أن توفر لروما النظام والعدالة والرخاء، وسألهم: هل يتبعوه؟ فلم يعارض واحد منهم، ولما قال لهم إنه ليس لديه مال يؤدى منه أجورهم جاءوا إلى خزائنه بكل ما كان مدخراً لديهم.

وفى اليوم العاشر من شهر يناير من عام ٤٩ ق.م عبر بأحَد فيالقه الروبيكون، وهو مجرى صغير بالقرب من أريمينوم Ariminum كان هو الحد الجنوبى لغالة الجنوبية ويقال إنه قد نطق فى ذلك الوقت بقوله المأثور: لقد قضى الأمر (Lacta est alea) وخيل إلى الناس أن هذا العمل هو الحمق بعينه، لأن الفيالق الخمسة الباقية من جيشه كانت لا تزال بعيدة عنه فى بلاد غالة لا تستطيع اللحاق به إلا بعد عدة أسابيع، على حين أن بومبى كان لديه عشرة فيالق، أى ٦٠ ألف جندى، وكان من حقه أن يجند ما يشاء من الفيالق الأخرى، ولديه من المال ما يكفى لتسليحهم وإطعامهم، وانضم بعدئذ إلى قيصر الفليق الثانى عشر من فيالقه عند بينوم Picenum والفيلق الثامن عند كورفنيوم Corfinium، ثم أنشأ ثلاثة فيالق جديدة من أسرى الحرب ومن المتطوعين من أهل البلاد، ولم يكن يلقى صعوبة فى جمع الجنود، لأن إيطاليا لم تكن قد نسيت بعد ما قاسته فى الحرب الاجتماعية، وكانت ترى فى قيصر البطل المدافع عن حقوق الإيطاليين، فكانت مدائنها تفتح أبوابها لاستقباله واحدة بعد أخرى، وكثيراً ما خرج سكان بعض هذه المدائن على بكرة أبيهم ليحيوه ويرحبوا به، وفد كتب شيشرون فى ذلك يقول:(إن المدن تحييه كأنه إله معبود).

وقاومت كروفنيوم مقاومة قصيرة الأجل، ثم استسلمت له ولم يسمح لجنوده أن ينهبوها، وأطلق سراح من قبض عليهم من الضباط، ولم يشأ أن يصادر ضياع من وقع فى يده من الأعداء، وإن كان فى ذلك الوقت معدماً

فقيراً لا يكاد يملك شيئاً من المال. وكانت هذه خطة حميدة يمتاز بها قيصر، كان من أثرها أن وقفت كثرة الطبقة الوسطى من الأهلين على الحياد، وأعلن فى ذلك الوقت أنه سيعد كل المحايدين أصدقاء له وأنصاراً، وكان فى كل خطوة يخطوها إلى الأمام يعرض عروضاً للصلح على أعدائه، من ذلك أنه أرسل إلى لنتولس Lentulus رسالة يرجوه فيها أن يستخدم ما يخلعه عليه منصب القنصل من نفوذ ليعيد السلم إلى البلاد، وعرض فى رسالة كتبها إلى شيشرون استعداده لاعتزال الحياة العامة وترك المجال إلى بومبى على شرط أن يسمح له بأن يعيش آمناً على حياته، وبذل شيشرون جهده فى التوفيق بين القائدين، ولكن منطقه لم يجده نفعاً أمام تعسف الثورة ودعواها المتعارضة.

ولما تقدم قيصر نحو العاصمة انسحب بومبى وجنوده منها، وإن كانت جيوشه وقتئذ لا تزال أكثر من جيوش قيصر عدداً، وانسحب من ورائه فى غير نظام عدد كبير من الأشراف، تاركين وراءهم زوجاتهم وأبناءهم تحت رحمة قيصر. ورفض بومبى عروض الصلح جميعها، وأعلن أنه سيعد كل من لم يغادر روما وينضم إلى معسكره عدواً له، ولكن الكثرة العظمى من أعضاء مجلس الشيوخ بقيت فى روما، وتذبذب شيشرون بين الفريقين، وكان يحتقر تردد بومبى وخور عزيمته، فقسم وقته بين ضياعه فى الريف.

وسار بومبى إلى برنديزيوم وعَبر بجنوده البحر الأدرياتى، وكان يعرف أن جيشه يعوزه النظام، وأنه فى حاجة إلى كثير من التدريب قبل أن يستطيع الصمود فى وجه فيالق قيصر، وكان يرجو أن يستطيع الأسطول الرومانى الذى يسيطر هو عليه أن يجوع إيطاليا فى هذه الأثناء ويدفعها إلى إبادة عدوه.

ودخل قيصر روما فى اليوم السادس عشر من مارس دون أن يلقى فى دخولها أية مقاومة، ودخلها وهو مجرد من السلاح لأنه ترك جنوده فى البلدان المجاورة لها، وأعلن حين دخولها العفو العام عن جميع أهلها، وأعاد إليها الإدارة البلدية والنظام الاجتماعى، ودعا التريبيونان مجلس الشيوخ إلى

الانعقاد، وطلب إليه قيصر أن يعينه حاكماً بأمره (دكتاتورا)، ولكن المجلس لم يجبه إلى طلبه، ثم عرض على المجلس أن يبعث رسلاً إلى بومبى ليفاوضوه فى عقد الصلح، فرفض ذلك أيضاً، فطلب المال من الخزانة العامة فوقف فى سبيله التريبون لوسيوس متلس Lucius Metellus فلما قال قيصر: " إن النطق بعبارات التهديد أصعب عليه من تنفيذها "، خضع متلس، واستطاع قيصر من ذلك الوقت أن يكون حر التصرف فى أموال الدولة، ولكنه كان نزيهاً كل النزاهة، فأودع فى الخزانة العامة كل ما غنمه من الأموال فى حروبه الأخيرة، ولما تم له ذلك عاد إلى جنوده واستعد لملاقاة الجيوش الثلاثة التى كان بومبى وأنصاره يعدونها فى بلاد اليونان وإفريقيا وأسبانيا، وأراد أن يضمن لإيطاليا كفايتها من الحبوب التى تعتمد عليها فى حياتها فأرسل كوريو Curio المتهور العنيف، ومعه فيلقان من جيشه ليستولى على صقلية، فلما نزل فى الجزيرة سلمها إليه كاتو وانسحب منها إلى إفريقيا، فاندفع وراءه كوريو، واشتبك معه فى معركة لم يكن قد كمل استعداده هو لها، فهزم كوريو وقتل فى ميدان القتال، ولم يندم عند وفاته على ما أصابه بل ندم أشد الندم على ما ألحقه من الأذى بقيصر.

وكان قيصر فى هذه الأثناء قد سار على رأس جيش إلى أسبانيا، وكان غرضه من هذا الزحف أن يضمن عودتها إلى تصدير الحبوب إلى إيطاليا، وأن يحول بينها وبين الهجوم على مؤخرته حين يزحف لملاقاة بومبى. وارتكب قيصر فى إسبانيا كما ارتكب فى غالة عدة أخطاء عسكرية فنية، كانت عاقبتها أن تعرض جيشه الذى كان أقل من جيش أعدائه عدداً للهزيمة وللهلاك جوعاً، ولكنه نجاه ونجّى نفسه كمألوف عادته، بسرعة خاطره وشجاعته، فقد حول مجرى أحد الأنهار واستحال الحصار الذى كان مضروباً عليه حصاراً على أعدائه وظل صابراً زمناً طويلاً حتى يستسلم له الجيش المحاصر، وإن كان جنوده قد ملوا الانتظار طويلاً يطالبون بالهجوم على

العدو، ثم استسلم أنصار بومبى آخر الأمر وخضعت أسبانيا كلها إلى قيصر فى أغسطس سنة ٤٩ ق.م، وعاد بعدئذ إلى إيطاليا براً، ولكنه وجد الطريق مغلقاً فى وجهه عند مرسيليا، وقد وقف أمامه جيش يقوده لوسيوس دمتيوس Lucius Domitius وهو القائد الذى أسره فى كورفنيوم، ثم أطلق سراحه، واستولى قيصر على المدينة بعد أن حاصرها حصاراً شديداً، ثم أعاد تنظيم الإدارة فى غالة، ولم يحل شهر ديسمبر حتى عاد ظافراً إلى روما.

قوت هذه الحملات مركزه السياسى، كما طمأنت البطون المتخوفة فى العاصمة على كفايتها من الطعام، فلم يمانع مجلس الشيوخ وقتئذ فى أن يعينه دكتاتوراً، ولكن قيصر تخلى عن هذا اللقب بعد أن اختير كأحد القنصلين فى عام ٤٨ ق. م ولما وجد أزمة النقد مستحكمة فى إيطاليا، لأن اختزان النقود قد سبب انخفاض الأثمان، وأبى المدينون أن يؤدوا بالنقود الغالية ما استدانوه بالنقود الرخيصة لما وجد هذا أصدر قرارا بموجبه تؤدَّى الديون سلعاً بقدر أثمانها كما كانت تقدر قبل الحرب، على أن يوكل تقييمها إلى محكمين من قبل الحكومة، وكان يرى أن هذه خير وسيلة للاحتفاظ بشرف المدينين، ولتبديد أو تقليل الخوف الذى كان يساور البعض من أن تعدم هذه الديون إعداما تاماً، وهو الإعدام الذى يحتمل حدوثه فى أعقاب الحروب.

ومن الشواهد الدالة على بطء سير الإصلاح فى روما قبل ذلك العهد أن قيصر اضطر مرة أخرى أن يُحَرِّم استعباد المدين إذ لم يؤد دينه، وأنه أباح خصم الفوائد التى دفعت قبل ذلك الوقت من أصل الدين، وحدد سعر الفائدة بواحد فى المائة كل شهر.

وأرضت هذه الإجراءات معظم الدائنين لأنهم كانوا يخشون أن تصادر أموالهم، ولكنها أغضبت المتطرفين الذين كانوا يرجون أن يسير قيصر على خطة كاتلين، فيلغى الديون كلها، ويعيد توزيع الأراضى على السكان.

ووزع قيصر الحبوب على المعوزين، وألغى جميع أحكام النفى ما عدا

الحكم الصادر على ميلو، وعفا عن كل من يعود إلى البلاد من الأشراف، ولكن أحداً لم يحمد له اعتداله، ذلك أن المحافظين الذين عفا عنهم عادوا يأتمرون به ليقتلوه، وبينما كان يواجه بومبى فى تساليا، تخلى عنه المتطرفون وانضموا إلى كنيليوس بعد أن وعدهم بإلغاء الديون إلغاء تاماً، وبمصادرة الأملاك الواسعة وتوزيع الأراضى على الأهلين توزيعاً جديداً.

وفى أواخر عام ٤٩ ق.م انضم قيصر إلى الجنود وإلى الأسطول اللذين جمعهما أنصاره فى نرنديزيوم، وكان عبور جيش من الجيوش البحر الأدرياتى شتاء، فى تلك الأيام، عملاً لم يسمع به من أحد قط، ولم يكن فى استطاعة الاثنتى عشرة سفينة التى تحت تصرفه أن تقل من جنوده إلا ستين ألفاً فى كل مرة، وكانت أساطيل بومبى التى تفوقها عدة وعدداً تغدو وتروح بين ثغور الشاطئ المقابل له، والجزائر المجاورة لهذا الشاطئ. ولكن قيصر رغم هذا أقلع بجنوده، ونزل فى إبيروس ومعه عشرون ألفاً منهم، غير أن سفنه تحطمت وهى عائدة إلى إيطاليا، ولم يعرف قيصر السبب الذى أخر بقية جيشه، فحاول أن يعبر البحر مرة أخرى فى زورق صغير وأخذ الملاحون يجدفون والموج يعاكسهم حتى كادوا يغرقوا، ولكن قيصر لم تهن عزيمته رغم ما كان يحيط به من أهوال جسام، وأخذ يقوى قلوبهم بهذه العبارة التى لا يبعد أن تكون من نسج خيال المؤرخين:

- " لا تخافوا إنكم تحملون قيصر وحظه".

ولكن الريح والموج قذفا بالقارب إلى الشاطئ الذى بدأ منه قيصر، واضطر هو أن يعود من حيث أتى.

وكان بومبى فى هذه الأثناء قد استولى بأربعين ألفاً من رجاله على درشيوم ومخازنها الغنية، ولكنه عجز عن مهاجمة جيش قيصر الذى تناقص عدده وقلت مؤونته، وكان بومبى فى تلك الأيام قد سمن وابتلى بالتردد وخور العزيمة، وبينما كان هو فى تردده جمع ماركس أنطونيوس أسطولاً جديداً

حمل عليه ما كان باقياً من جيش قيصر فى إيطاليا.

وبذلك أصبح قيصر متأهباً للقتال، ولكنه ما زال يكره أن يقاتل الرومانى رومانياً، فأرسل رسولاً إلى بومبى يعرض عليه أن يتخلى القائدان كلاهما عن قيادتهما، ولكن بومبى لم يرد عليه فهاجمه قيصر وأخفق فى هجومه، غير أن بومبى عجز أن يتبع النصر بمطاردة عدوه، ثم قتل ضباط بومبى جميع من وقع فى أسرهم من أعدائهم الضباط على الرغم من نصيحة قائدهم الأعلى، أما القيصر فلم يقتل أحداً من أسراه وهو عمل رفع من قوة جنوده المعنوية بقدر ما أضعف من قوة بومبى. وطلب رجال قيصر إلى قائدهم أن يعاقبهم على ما أظهروه من الجبن فى حربهم الأولى ضد الفيالق الرومانية، فلما لم يجبهم إلى ما طلبوه توسلوا إليه أن يعود بهم إلى ساحة القتال، ولكنه رأى من الحكمة أن يرتد إلى تساليا ليستريحوا فيها بعض الوقت.

واستقر رأى بومبى وقتئذ على القرار الذى قضى على حياته، فقد أشار عليه أفرانيوس أن يعود إلى إيطاليا الخالية من وسائل الدفاع ويستولى عليها، ولكن معظم مستشاريه ألحوا عليه أن يطارد قيصرَ ويقضى عليه، وبالغ الأشراف الذين كانوا فى معسكر بومبى فيما أحرزه من النصر فى درهشيوم، وظنوا أن القضية الكبرى قد فصل فيها فى ذلك المكان، وهال شيشرون - وكان قد انضم إليهم آخر الأمر - أن يسمعهم يتنازعون فيما سيعود على كل منهم، بعد أن يعودوا إلى ما كانوا فيه، وأن يرى ما يتقلبون فيه من الترف وهم فى ميدان القتال، فقد كان الطعام يقدم لهم فى صحاف من الفضة، وكانت خيامهم مفروشة بالطنافس الوثيرة تزينها الصور الرائعة وباقات الزهر الجميلة.

وكتب شيشرون فى ذلك يقول:

" وكان البومبيون، ما عدا بومبى نفسه، يحاربون بوحشية شديدة، وينطقون فى أحاديثهم بمبادئ القسوة، حتى كان الرعب يستولى على بيت

هورتنسيوس، وعلى حدائق قيصر وبابائى ".

وكان بومبى نفسه أميل إلى التريث وعدم الاشتباك فى معركة فاصلة، ولكنه اضطر إلى العمل برأى مستشاريه لما عيروه بالجبن والخور، فأصدر أمره بالزحف ودارت رحى المعركة الفاصلة فى فإرسالس فى اليوم التاسع من شهر أغسطس عام ٤٨ ق.م.وكانت معركة طاحنة دام فيها القتال حتى نهايتها المريرة، وكان جيش بومبى يتألف من ثمانية وأربعين ألفاً من المشاة، وسبعة آلاف من الفرسان. أما جيش قيصر فلم يكن يزيد على اثنين وعشرين ألفاً من المشاة، وألف من الفرسان. ويقول أفلوطرخس تعليقاً على هذا الموقف:

"وكان عدد قليل من أنبل رجال روما يشاهدون المعركة عن كَثَب، ويفكرون فيما صارت إليه الامبراطورية بسبب المطامع الشخصية، لقد التقت فى هذا المكان زهرة شباب المدينة الواحدة وعماد قوتها فى صراع عنيف، وحسبنا هذا برهاناً قاطعاً على ما فى الطبيعة البشرية من عمى وجنون إذا ما أثيرت شهواتها"..

لقد كان أقرب الأقارب بل كان الإخوة أنفسهم، يقاتل بعضهم بعضاً فى الجيشين المتعاديين.

وقد أمر قيصر رجاله أن يبقوا على حياة كل من يستسلم من الرومان، أما الشاب الأرستقراطى ماركس بروتس فقد أمرهم قيصر أن يقبضوا عليه دون أن يصيبوه بأذى، فإذا لم يجدوا سبيلاً إلى هذا فليسمحوا له بالفرار. وروع البمبيون لتفوق أعدائهم فى القيادة والتدريب والقوة المعنوية، وقتل منهم وجرح خمسة عشر ألفاً، واستسلم عشرون ألفاً، وولى الباقون الأدبار. ونزع بومبى شارة القيادة عن رجاله وفر مع من فروا من رجاله ويخبرنا قيصر أنه لم يبق من رجاله إلا مائتان.

وهو قول يحملنا على الشك فى كتبه كلها، وأخذ رجاله يتندرون بما فى خيام أعدائهم من وسائل الزينة، وبما وجدوه من الموائد المثقلة بالطعام

الشهى الذى أعد لساعة الاحتفال بالنصر، وأكل قيصر عشاء بومبى فى خيمة بومبى نفسه.

وسار بومبى على ظهر جواده الليل كله حتى صار إلى لارسا، وركب منها سفينة أقلته إلى الإسكندرية، وعرج فى طريقه على متلينى حيث انضمت إليه زوجته، وطلب إليه سكانها أن يقيم معهم ولكنه رفض طلبهم فى أدب ومجاملة، ونصحهم أن يستسلموا للفاتح فى غير خوف لأن قيصر على حد قوله رجل عامر القلب بالصلاح والرحمة.

وفر بروتس أيضاً إلى لارساو ولكنه أطال المكث فيها ووجه منها رسالة إلى قيصر، وأبدى القائد المنتصر أشد الاغتباط حين سمع أن بروتس حيٌّ يرزق، وعفا عنه من فوره كما عفا عن كاسيوس استجابة لرغبة بروتس، وكان كذلك ليناً فى معاملة أمم الشرق التى أيدت بومبى مدفوعة إلى ذلك بمشيئة الطبقات العليا المسيطرة عليها، ووزع ما جمعه بومبى من الحبوب على سكان بلاد اليونان الجياع، ولما جاءه الأثينيون يطلبون إليه أن يعفو عنهم أجابهم وعلى شفتيه اتسامه اللوم بقوله: "إلى متى ينجيكم مجد آبائكم الأولين من موارد الهلاك التى توردونها أنفسكم"..

وأكبر الظن أن بعضهم قد حذر قيصر من أن بومبى يفكر فى معاودة القتال معتمداً على جيش مصر ومواردها، وعلى القوة التى كان كاتو ولبينس ومتلس يعدونها فى يتكا، ولكن حدث بعد أن وصل بومبى إلى الإسكندرية أن أمر بوثينس - خصى الشاب بطليموس الثانى عشر ووزيره - خدمه أن يقتلوه، ولعله فعل ما فعل رجاء أن يكافئه عليه قيصر، فقد طُعن القائد طعنة نجلاء حين وطئت قدماه شاطئ مصر، بينما كانت زوجته تنظر إليه فى هلع وهى على ظهر السفينة التى أقلتهما إلى تلك البلاد.

فلما جاء قيصر أهدى إليه رجال بوثينس رأس القائد الذى فصل عن

جسده، فولى وجهه عنهم فى هلع، وأخذ يبكى من فرط تأثره بهذا الشاهد الجديد على أن الناس كلهم يلقون مصيراً واحداً، وإن اختلفت الوسائل المؤدية إلى هذا المصير ونزل قيصر فى قصر البطالمة الملكى، وشرع ينظم شئون تلك المملكة القديمة.

■■■

دكتاتورية قيصر

دكتاتورية قيصر

عندما عاد قيصر إلى روما فى خريف عام ٤٦ ق. م بعد أن نصب سلست والياً على نوميديا، أعاد تنظيم ولايات إفريقيا، وأوجس مجلس الشيوخ خِيفَةً من هذه العودة، وأدرك أن البلاد مقبلة على الحكم الملكى المطلق، فاختاره حاكماً بأمره مدة عشر سنوات واحتفلت روما بعودته احتفالاً لم تشهد له مثيلاً من قبل، وكافأ قيصر كل جندى من جنوده بخمسة آلاف درخمة أتيكية أى أكثر كثيراً مما كان قد وعدهم به، وأولم وليمة كبرى للمواطنين الرومان احتوت على اثنتين وعشرين ألف مائدة، وأعد لتسليتهم معركة بحرية صورية، اشترك فيها عشرة آلاف رجل، ثم غادر روما إلى أسبانيا فى أوائل عام ٤٥ وهزم آخر جيش من جيوش بومبى عند مندا Munda ولما عاد إلى روما فى شهر أكتوبر وجد إيطاليا كلها تسودها الفوضى، ذلك أن الحكم الأوليجاركى الفاسد، والثورات التى دامت مائة عام كاملة، قد أشاعا الاضطراب والفوضى فى الأعمال الزراعية، والصناعية، والمالية، والتجارية. أضف إلى هذا أن استنزاف موارد الولايات وحبس رءوس الأموال وزعزعة أركان الاستثمار، أدت كلها إلى اضطراب سوق المال، وهذا أدى بدوره إلى أن آلاف الضياع قد حل بها الخراب، لأن مائة ألف من الرجال سيقوا من الأعمال المنتجة إلى ميادين القتال، وآلافاً مؤلفة من الزراع أرغمتهم منافسة الحبوب المستوردة من خارج البلاد، أو التى تنتجها الضياع الكبرى التى يعمل فيها العبيد، على الانضمام إلى صعاليك المدن، والاستماع - وبطونهم خاوية - إلى الوعود التى يمنيهم بها الزعماء المهرجون، وأخذ من أبقت عليهم رحمة قيصر من الأشراف يأتمرون به فى قصورهم ونواديهم، ولما أن طلب إليهم فى مجلس الشيوخ أن يعترفوا بضرورة الدكتاتورية ويعاونوه على أن يعيد

للمدينة على الأوامر الصريحة والعقوبات الشديدة، التى يتعرض لها كل من يحاول إفساد الانتخابات أو الوظائف العامة.

وأراد أن يقضى على السنة القديمة سنة السيطرة على الشئون السياسية بابتياع أصوات الناخبين جملة، ولعله أراد أيضاً أن يحصن نفسه من ثورة الرعاع، فألغى الاتحادات والنقابات ولم يبق منها إلا ما كان ذا أصل قديم، وإلا الجماعات اليهودية ذات الأغراض الدينية الخالصة، وقصر وظائف المحلفين على الطبقتين العليين، واحتفظ لنفسه بحق النظر فى أهم القضايا وأخطرها شأناً، وكثيراً ما كان يجلس للقضاء بنفسه وليس ثمة من ينكر ما كانت تتصف به أحكامه من حكمة ونزاهة.

وقد اقترع على المشترعين فى أيامه أن يجمعوا القوانين الرومانية المعمول بها وقتئذ فى كتاب واحد منظم، ولكن موته العاجل حال دون إتمام هذا المشروع، ثم سار على خطة الأخوين جراكس، فوزع الأرض على جنوده القدامى وعلى الفقراء، وسار أغسطس نفسه على هذه السياسة فهدأت الاضطرابات بين الزراع كثيراً من السنين.

وأراد قيصر أن يمنع عودة الملكية الزراعة إلى التركز، فحرم بيع الأراضى الجديدة قبل مضى عشرين عاماً، كما أمر أن يكون ثلث العمال فى المزارع من الأحرار، وذلك لكى يحول دون استغلال الأراضى كلها على أيدى الأرقاء، وكان من قبل قد أنقص عدد الرعاع المتعطلين فى المدينة بمن جنده منهم فى الجيش، وبإقطاعهم الأراضي الزراعية بعد تسريحهم، ثم أنقص عددهم مرة أخرى بأن أرسل ثمانين ألفاً من المواطنين ليستعمروا قرطاجنة وكورنثة وأشبيلية وأرليس وغيرها من المراكز، ولم يكتف بهذا بل أراد أن يضمن العمل للباقين من المتعطلين، فوضع برنامجاً ضخماً للبناء رصد له ١٦٠ مليون سترتس. ومن ذلك أنه أمر بإنشاء بناء جديد فى ميدان المريخ لاجتماع الجمعيات، وإضافة مبنى جديد للسوق العامة يدعى سوق أبوليوم،

لتخفيف الزحام على السوق القديمة، ثم جمل كثيراً من المدن فى إيطاليا وأسبانيا وغالة وبلاد اليونان.

وبعد أن خفف أعباء الفقر بهذه الوسائل، أراد أن يعرف أثرها فى الناس فطلب إلى من شاء من الفقراء أن يتقدم إلى الدولة للحصول على إعانات من الحبوب، فوجد أن عدد الطالبين قد نقص على الفور من ٣٢٠ ألفاً إلى ١٥٠ ألفاً.

وقد ظل حتى ذلك الوقت نصيراً للعامة، يهدف إلى إسعادهم فى جميع ما وضعه من المشروعات، ولكنه كان يعلم أن الثروة الرومانية ثروة زراعية أكثر منها صناعية، وأنها موجهة فى الغالب إلى طبقة الأشراف التى تسخر لخدمتها الأرقاء، ثم إلى المرابين، وأنها لم يوجه إلا القليل منها لرجال الأعمال، فواصل خطة الأخوين جراكس الزراعية، ودعا رجال الأعمال إلى تأييد الثورة الزراعية والمالية.

ألغى قيصر مصادر الاستغلال المالى والربح غير المشروع، وعلى رأسها جباية الضرائب فى الولايات على أيدى جماعات الملتزمين، ثم خفض الديون بدرجات متفاوتة، وسن قوانين صارمة لتحريم الربا الفاحش، وأسعف العاجزين عجزاً شديداً عن الوفاء بديونهم بوضع قانون للإفلاس، لا يختلف فى جوهره عن القانون المعمول به فى هذه الأيام. وأعاد إلى العملة استقرارها بجعل الذهب أساساً لها، وبصك قطعة ذهبية تدعى أوريوس كانت تساوى فى قوتها الشرائية الجنية الاسترلينى فى القرن التاسع عشر، وكانت صورته تطبع على النقود الحكومية وتزين برسوم لم تعرفها روما من قبل.

وفى عهده القصير هذا نُظمت الإدارة المشرفة على مالية الدولة تنظيماً جديداً، وطُعمت بكفايات جديدة كانت نتيجتها أن وجد فى خزائنها حين قتل قيصر ٧٠٠ مليون سترس وفى خزينته الخاص ١٠٠ مليون سترس..

وأردا أن يقيم نظام الضرائب والإدارة على أساس علمى سليم، فأجرى إحصاءً عاماً فى إيطاليا، وأعد العدة لإحصاء عام مثله فى سائر أنحاء الإمبراطورية، ثم أراد أن يعوض النقص الكبير الذى أحدثته الحروب فى عدد المواطنين الرومان، فتوسع إلى أقصى حد فى منح حق المواطنة الرومانية، وكان ممن شملهم هذا الحق الأطباء والمعلمون فى روما، وكان النقص المطرد فى المواليد قد أقض من قبل مضجعه، فقرر فى عام ٥٩ ق.م حين كان قنصلا أن تكون الأولوية فى امتلاك الأراضى التى توزعها الحكومة لآباء الثلاثة الأبناء، وفى عهده الثانى قرر منح مكافآت للأسر الكبيرة، وحرم على من ليس لهن أبناء من النساء أن يركبن المحفات، أو يتحلين بالجواهر، وكان هذا التشريع أضعف تشريعاته كلها وأقلها نفعاً.

وظل قيصر كما كان رجلاً "لا أَدْرِيّاً "، وإن لم يكن عقله بعيدا كل البعد عن الخرافات، ولكنه بقى الرئيس الأعلى لدين الدولة، ولم يبخل على هذا الدين الوثنى بما يحتاجه من الأموال، فأعاد بناء الهياكل القديمة، وأنشأ هياكل أخرى جديدة. وكانت فينوس التى تنتسب إليها أسرته حسب الأساطير، تلقى منه أعظم ضروب التكريم، لكنه مع هذا كان يطلق للناس كامل الحرية فى الفكر والعبادة، وألغى ما كان قد صدر من الأوامر بتحريم عبادة إيزيس، ومنع التعرض لليهود فى ممارسة شعائر دينهم.

ولما رأى أن تقويم الكهنة لم يعد يتفق مطلقاً مع فصول السنة، أمر سوسجينس العالم اليونانى الإسكندرى أن يضع التقويم اليوليسى على أساس التقويم المصرى، وأضحت السنة من ذلك الحين تشتمل على ٣٦٥ يوماً، يضاف إليها يوم فى آخر شهر فبراير كل أربع سنين. وأخذ شيشرون يشكو من التغيير، ويقول إن قيصر لم يقنع بحكم الأرض فتطاول إلى تنظيم النجوم والتحكم فى شئونها، ولكن مجلس الشيوخ قبل هذا الإصلاح أحسن قبول، وأطلق اسم يوليوس وهو اسم أسرة قيصر على شهر كونكتليس (الشهر الخامس) وكان هذا

الشهر هو الشهر الخامس حين كان شهر مارس بداية العام.

ولم تكن الأعمال التى شرع فيها قيصر أو فكر فيها، ووقفت بسبب قتله، أقل شأنا من الأعمال التى تمت فعلاً. ومن تلك الأعمال الأولى أنه وضع أساس ملهى عظيم، ومعبد للمريخ (مارس) يتفق وما عرف عن هذا الإله من شره ونهم، وعين فارو على رأس هيئة تعمل لإنشاء دور كتاب عامة، وعمل على إنقاذ روما من وطأة الملاريا بتخفيف بحيرة فوسينس ومستنقعات بنتين، واستصلاح الأراضى المجففة وزرعها، وأشار ببناء جسور حول نهر التيبر ليمنع طغيان مياهه على الأراضى المجاورة، واقترح تحويل مجرى هذا النهر لإصلاح ميناء أستيا، الذى كان طمى النهر يسده من آن إلى آن، وأمر مهندسيه بأن يعدوا مشروعاً يرمى إلى إنشاء طريق يخترق وسط إيطاليا من الشرق إلى الغرب، وإلى حفر قناة فى برزخ كورنثة.

وكان أشد ما أغضب أهل روما من أعماله أنه منح أحرار الإيطاليين كلهم ما لأهل روما نفسها من حقوق، وسوى بين الولايات وبين إيطاليا، ذلك أنه منح حق الانتخاب لأهل غالة الجنوبية فى عام ٤٩ ق. م ثم وضع فى عام ٤٤ ميثاقاً يدل ظاهره على أنه لجميع مدن إيطاليا وأنه يسوى بين هذه المدن وبين روما، ولكن أكبر الظن أنه كان يفكر فى إقامة حكومة نيابية من نوع ما تجعل لهذه المدن نصيباً ديمقراطياً فى حكومته الملكية. ثم انتزع حق تعيين الولاة من مجلس الشيوخ المرتشى الفاسد، ورشح هو لهذا المنصب رجالاً عُرفوا بالمقدرة والكفاءة وجعلهم فى كل آن عرضة للعزل بأمر منه وحده.

كما خفض الضرائب على الولايات إلى ثلثيْ ما كانت عليه، وعهد جبايتها إلى موظفين مسئولين أمامه، ولم يأبه باللعنات القديمة التى كانت تُصب على من يعيد بناء كبوا وقرطاجنة وكورونثة، وأتم فى هذه الناحية أيضاً ما شرع فيه الأخوان جراكس، وأعطى حقوق الرومان أو اللاتين للمستعمرين الذين أرسلهم قائماً منها من قبل.

ولا جدال فى أنه كان يريد أن يمنح حق المواطنة الرومانية لجميع الذكور الراشدين فى الإمبراطورية كلها، وبذلك لا يكون مجلس الشيوخ ممثلاً لطبقة واحدة فى روما، بل يكون ممثلاً لعقلية الولايات جميعها وإرادتها.وهذه الفكرة التى سيطرت على عقل قيصر فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم، مضافة إلى تنظيمه الجديدة لروما وإيطاليا، تُكمل فى رأينا تلك المعجزة المنقطعة النظير ـ المعجزة التى جعلت من الشاب المتلاف العربيد رجلاً من أقدر رجال السياسة المشهورين فى جميع العصور، وأعظمهم شجاعة وعدلاً واستنارة.

وكان قيصر كالإسكندر، لا يعرف أين تقف جهوده وإصلاحاته. لما رسم فى ذهنه صورة لدولته فى نظامها الجديد ساءه أن يجدها معرضة للغزو عند أنهار الفرات والدنواب والراين، فأخذ يفكر فى إرسال حملة عظيمة لإخضاع بارثيا والأخذ بثأر كراسس الذى أمده بالمال فى أزماته، وفى الزحف حول البحر الأسود لتهدئة سكوذيا، وفى ارتياد نهر الدانوب وفتح ألمانيا حتى إذا ما أمن الامبراطورية على هذا النحو عاد إلى روما مثقلاً بالمجد والمغانم، ومعه من المال ما يستطيع به أن يقضى على الكساد الاقتصادى فى البلاد، وله من القوة والجاه ما يستطيع به أن يغض الطرف عن كل معارضة،ومن الحرية ما يمكنه من أن يعين من يخلفه وأن يموت بعد أن يورث العالم "السلم الرومانية" وهى أعظم تراث يستطيع أن يورثه إياه.

فلسفته فى الحكم

إن قيصر لم يكن خلال كل هذا الصراع وهذه الحروب، ليفوز بالنصر ويصبح سيد روما، ثم تسير عجلة السياسة الرومانية كما كانت وهو سعيد بأن يكون على رأسها متمتعاً بالمجد، إن الخلاف بينه وبين الجمهوريين من السناتوس كان أساساً خلافاً حول نظام الحكم: الجمهوريون كانوا يسعون إلى عودة النظم الجمهورية الديمقراطية، وما يصحبها من حريات للشعب الرومانى، أى أنهم فى أرقى مثلهم يريدون الحرية الدستورية لشعب روما،

وهذا يمكن أن يوصف بأنه نظرة محافظة ضيقة، لأنها تفكر فى الشعب الرومانى فقط دون اعتبار لجميع شعوب الإمبراطورية التى أصبحت روما الآن متحكمة فى أقدارها.

كان يوليوس قيصر على النقيض من ذلك، يرى أن نظام الجمهورية الرومانية قد أصبح ديمقراطياً من الناحية النظرية فقط، وأن هذا النظام فشل فى أن يزود روما بحكومة مستقرة لمدة مائة سنة تقريباً، مما يسلب روما صفة القيادة والمسئولية عن الامبراطورية، كما أن هذا النظام قد فشل فى حماية الإمبراطورية، وأن حكم الولايات قد غدا جهازا للاستغلال والظلم.

إن خيال يوليوس كان يمتد إلى آفاق أبعد من حدود روما، ويبدو أن إقامته عشر سنوات فى الغالة قد وسعت من نظرته، وقد كان يرى أن الحكومة فى روما مسئولة أيضاً عن الولايات، وبعبارة أخرى كان يوليوس قيصر يرى أن موضوع السياسة الرومانية هو إيطاليا والإمبراطورية بأسرها، وليس الاقتصار على روما، كما كان يفعل السناتوس وأشياعه، وهذا هو الفارق الأساسى بين الفريقين.

هذه النظرة الشاملة تظهر جليَّة لكل من يقرأ كتاب يوليوس قيصر عن الحروب الأهلية، فهو فى البداية يبدو حريصا كل الحرص على تجنب الحرب، وكان على استعداد لأن يستجيب لكثير من مطالب خصومه، وأن يعود الأمر للسناتوس والشعب الرومانى، وتقام انتخابات حرة إذا قبل الطرفان إلقاء السلاح.

وبعد أن تقوم الحرب الأهلية ويذهب أثناء عودته من أسبانيا لأول مرة إلى مرسيليا، وكانت قد اتخذت جانب بومبيوس، يبعث إلى أهلا رسالة يقول فيهاإن عليهم أن يتبعوا سلطان إيطاليا بأسرها لا أن يخضعوا لإدارة شخص واحد - يقصد بومبيوس - وهنا نلحظ أنه يذكر سلطان إيطاليا وليس سلطان الشعب الرومانى كما هى العادة.

وفى المرحلة الأخيرة من الحرب يبعث قيصر خطاباً إلى اسكبيو ليكسبه إلى جانبه، ويعمل معه على إنهاء الحرب. هذه الرسالة تكتشف لنا للمرة الثالثة نظرة قيصر الجديدة إلى السياسة الرومانية فهو يقول إنه إذا تعاون اسكبيو معه، سوف يعم الهدوء فى إيطاليا، والسلام فى الولايات، والأمن فى الامبراطورية، وليس هناك ذكر إطلاقاً لروما أو الشعب الرومانى.. إنما الاتجاه كله نحو إيطاليا والولايات.

نقول إن هذه كانت وجهة نظر جديدة فى السياسة الرومانية، ويمكن أن يقال إنها الفارق الحقيقى بين طريقة تفكير قيصر، وطريقة التفكير التقليدية الرومانية، التى كان يتزعمها السناتوس.

فحين خاض قيصر الحروب الأهلية كانت له سياسة جديدة ومن أجل تنفيذ هذه السياسة، فقد رأى أنه يحتاج إلى سلطان مطلق فى الدولة، وقد تم له هذا عن طريق تولى السلطة الدكتاتورية أولاً سنة ٤٦ ق.م لمدة عشر سنوات، وبعد ذلك لمدى الحياة. وفى العام التالى وفوق هذا السلطان زاد من سلطانه أيضاً عن طريق تولى مجموعة مناصب فى نفس الوقت مثل القنصلية عدة مرات، والتريبونية التى تجعل شخصه مقدَّساً لا يمس، والكهانة التى تجعله الرئيس الدينى للدولة، والكنسورية التى تمكنه من مراجعة عضوية السناتوس. كذلك اكتسب حق تعيين نصف الموظفين سنويّاً، وبعبارة أخرى استكمل قيصر سلطانه المطلق على الدولة مدى الحياة، ومع ذلك رفض لقب " ملك "، ولعل ذلك كان مراعاة للشعور الرومانى المناهض لفكرة الملكية.

■ ■ ■

قيصر وكليوباترا

قيصر وكليوباترا

يقول كلينمت وود فى كتابه: يوليوس قيصر ـ حياته وأعماله:

" كانت تحكم مصر فى ذلك الوقت الملكة كليوباترا، وكانت فى الحادية والعشرين من عمرها ومعها أخوها فى الرابعة عشرة، لقد كانت ابنة للبطالمة، وكانت من أصل مقدونى إغريقى غير مصرى. كانت امرأة رقيقة مرهفة ذات صوت رخيم، وقد قال ديون كاسيوس وهو أحد مشاهديها : (إن سحر صوتها كان يكسبها كل من يستمع إليها)، وكانت أيضاً على جانب كبير من الذكاء وقلب عامر بالحب.

وكان قيصر فى الرابعة والخمسين من عمره مسناً يفيض شعوراً وحسا كما كان مخادِعاً وحاكماً للعالم. لقد كان حكم آباء كليوباترا حكماً متزناً مع أنهم لم يثيروا إعجاباً خاصاً، وقد لقب أحدهم بـ(المنتفخ)، وآخر بـ(الزمار)، وثالث بـ(بائع السمك المملح)، هذا وقد قُتل بطليموس الثالث بيد ابنه، كما قتل بطليموس الثامن حفيدَه الصغير ليتزوج من أمه، ولما أنجب منها طفلاً قتله وأرسل جثته الصغيرة قطعاً ممزقة إلى أمه، ثم تزوج من ابنة أخته كليوباترا الثالثة التى قتلت الملكة السالفة لها كليوباترا الثانية، التى قتل ابنها بطليموس (قاتلة أمه)، ولما تزوج بطليموس الثانى عشر من زوجة أبيه قتلها، ثم قُتل هو بعد ذلك بقليل كما أن بطليموس الثالث عشر والد كليوبترا الكبرى قتل ابنته برينيكا وغيرها.."

يا لها من عائلة عجيبة أسرة البطالمة، هكذا استطاع والد كليوبترا أن ينقذ العرش برشوة كبيرة، فدخل مسرح التاريخ فى صورة السكير القاتل حتى انتهى الأمر بوفاته.

وأخذت مصر بعد وفاة بطليموس السادس تسير مسرعة فى طريق الاضمحلال، وعجز ملوكها عن الاحتفاظ بنظامها الاجتماعى وحريتها القومية، وأخذ مجلس الشيوخ الرومانى يقوى فيها سلطانه، ويملى عليها إرادته لأنه قام حامية رومانية فى الإسكندرية. وكانت مقاليد الحكم قد آلت بعد وفاة بطليموس الحادى عشر، الذى أجلسه بومبى وجابنيوس على العرش . إلى ابنه بطليموس الثانى عشر وابنته كليوباترا، وذلك لأن والدهما قد أوصى قبل وفاته أن يرثا الملك من بعده، وأن يتزوج الأخ أخته ويشتركا فى حكم البلاد معاً.

ولم تكن كليوباترا بارعة الجمال، ولكن قوامها الرشيق المعتدل، وخفة روحها، وتنوع ثقافتها، ودماثة خلقها، وحسن صوتها، مضافة إلى مقامها الملكى، قد جعلتها فتنة لكل من رآها، تسلبه لبه وإن كان قائداً رومانياً، وكانت على علم بتاريخ اليونان، وآدابهم، وفلسفتهم، تجيد الحديث باللغات: اليونانية، والمصرية، والسورية، ويقال إنها كانت تتقن لغات أخرى غير هذه. وقد جمعت إلى فتنة أسبازيا الذهنية فتنة المرأة المتحللة إلى أقصى حد من القيود الخلقية، ويقال إنها ألفت رسالة فى مستحضرات التجميل وأخرى فى المقاييس والموازين والنقود المصرية، وموضوع الرسالة الثانية موضوع مغر جذاب.

وكانت إلى جانب هذا حاكمة قديرة وإدارية ماهرة، نجحت فى نشر التجارة المصرية، وارتقت على يديها الصناعة، وكانت تجيد تدبير الشئون المالية حتى فى الوقت الذى كانت تنصب فيه شراك الحب، وقد جمعت إلى هذه الصفات شهوة جسدية قوية، ووحشية عنيفة تصب على أعدائها العذاب والموت صباً، ومطامع سياسية بعيدة، تحلم ببناء امبراطورية واسعة، ولا تحترم فى سبيل الوصول إلى غايتها قانوناً إلا قانون النجاح، ولو أنها لم يجر فى عروقها دم البطالمة المتأخرين الداعرين، لكان من الجائز أن تحقق غرضها وتصبح ملكة تحكم دولة واسعة الرقعة تضم بلاد البحر الأبيض المتوسط، وكانت تدرك أن مصر لم تعد قادرة على البقاء بعيدة عن سلطان الدولة

الرومانية، ولم تر ما يمنعها أن تكون هى المسيطرة على الدولة المتحدة.

وفى فترة ما من عام ٤٨ ق.م أعلن أخو كليوباترا نفسه حاكماً أوحد على مصر، وقد سانده فى ذلك المتآمرون بالقصر، فأرغم أخته كليوباترا على الفرار إلى سوريا طلباً للنجاة، ثم عادت بجيش فوجدت طريقها تسده قوات أخيها، وقد وصل بومبى مصر فى ذلك الوقت وقُتل فيها قتلة شنعاء، فلما وصل قيصر الإسكندرية بعد ذلك بقليل، قُدمت له رأس بومبى وخاتمه هدية، فطرد قيصر القاتل الذى صلبه فيما بعد ماركوس بروتس، بعد أن ندد بعاره ثم اتخذ قيصر قصراً فى الإسكندرية عند رأس كوكياس مقراً له، ووضع فرقتين قويتين و٨٠٠ من الفرسان الكلت والألمان فى حصن جانبه، وقد اعتبر هذه القوة البسيطة كافية للسيطرة على البطالمة فى مصر، ومع ذلك فقد قامت ثورات خطيرة فى طرقات الإسكندرية كلما سار إلى قصره، ولكن قيصر لم يكن كثير القلق فقد كان أسطوله إلى جواره يضمن له انسحاباً آمناً إذا تلبد الموقف.

وقد استاء قيصر حين عرف أن بوثينس نفى كليوباترا ونصب نفسه نائباً عن بطليموس الشاب يحكم باسمه، ولذلك أرسل إليها سراً وجاءته سراً، وقد احتالت على الوصول إليه بأن أخفت نفسها فى فراش حمله تابعها أبولودورس إلى مسكن قيصر، وذهل القائد الرومانى حين رآها، وأسرته بشجاعتها وسرعة بديهتها، وهو الذى لم يدع انتصاراته فى ميدان القتال تغطى على انتصاراته فى ميادين الحب. ووفق بطليموس بينها وبين أخيها وأجلسها هى وأخاها على عرش مصر، كما كانا من قبل، وعرف قيصر من أخيه أن بوثينس هو والقائد المصرى أخيلاس كانا يأتمران به ليقتلاه، ويبيدا القوة العسكرية الصغيرة التى جاءت معه إلى مصر، فدبر فى الخفاء اغتيال بوثينس وفر أخيلاس واتصل بالجيش المصرى، وحرضه على الثورة وسرعان ما امتلأت الإسكندرية بالجنود ينادون بالويل والثبور لقيصر، ويحرض ضباط الحامية الرومانية التى وضعها مجلس الشيوخ فى تلك المدينة على الانضمام إلى الجيش الثائر، ضد هذا الدخيل الخائن (قيصر) الذى سولت له نفسه أن

يقـرر وراثـة عـرش البطـالمة، وأن يعـمل على أن يولد من صلبـه مـن يرث هـذا العرش فى المستقبل.

وعمل قيصر فى هذا الظرف الحرج بما كانت تسعفه به حيلته، فـأحال القصـر الملكى والملهى المجـاور له إلى قلعتـين تحصن فـيهمـا هـو ورجـاله، ثم أرسل يطلب المدد من آسيـا الصغـرى وسـوريا ورودس، ولما أدرك أن أسطوله الضعيف الذى لم يكن فيه من يحميه لن يلبث أن يقع فى يد أعدائه، أمر به فحرق والتهمت النار جزءاً من مكتبة الإسكندرية لا نعرفه على وجه التحديد، ورأى أن لابد من الاستيلاء على جزيرة فاروس لأنها هـى المدخل الذى يمكن أن يصل إليه منه المدد المنتظر، فهاجمها هجوم اليائس، واستولى عليها، ثم جلا عنها، ثم عاد فاستولى عليها.

وحدث فى إحدى هذه المعارك أن اضطر إلى السباحة فى البحر لينجو من الموت بعد أن صُوِّبَت إليه عاصفة من السهام، وذلك حين قذف المصريون به وبأربعمائة من رجاله فى البحر بعيداً عن الحاجز الذى كان يصل الجزيرة بأرض المدينة. وظن بطليمـوس الثانـى عشـر أن الثـوار قد حـالفـهم النصـر، فخرج من القصر وانضم إليهم واختفى من التاريخ، ولما جاء المدد إلى قيصر هزم به المصريين وحامية مجلس الشيوخ فى معركة النيل، وكافأ كليوباترا على إخلاصها له فى هذه الأزمة، بأن عين أخاها الأصغر بطليموس الثالث عشر ملكاً معها على مصر، فجعلها حاكمة البلاد الحقيقية.

ويصعب علينا أن ندرك السر فى بقاء قيصر تسعة أشهر فى الإسكندرية، والجيـوش تُجيش لقتاله فى يتكا وروما فى أشد الحاجة إليه، لأن كنيليوس وميلو ينفخان فيها نار الثورة عليه، فلعله كان يحس بأن جدير ببعض الراحة واللهو بعد حروب دامت عشر سنين. وفى هذا يقول سيوتونيوس إنه كثيراً ما كان يقضى الليل كله حتى مطلع الفجر يلهو مع كليوباترا، وكان بوده أن يسير معها فى قاربها من أقصى مصر إلى أقصاها حتى يصلا إلى بلاد الحبشة،

لولا أن هدده جنوده بالخروج عليه لأن كل واحد منهم لم يجد له فتاة لعوباً، أو لعل شهامته قد أجبرته على أن ينتظر حتى تفيق كليوباترا من آلام الوضع، فقد وضعت طفلاً فى عام ٤٧ ق.م سمى قيصرون.

ويقول ماركس أنطونيوس إن قيصر اعترف بأنه ولده، ولا يبعد أن تكون قد أوحت إليه تلك الملكة الجميلة فكرة أن يكون ملكاً ويتزوجها، فيجتمع بذلك عالم البحر الأبيض المتوسط تحت فراش واحد.

ويبقى ذلك فى إطار الظن الذى ليس ثمة ما يؤيده إلا ما نستخلصه من الشواهد والقرائن المفصلة، وما من شك فى أن قيصر عاد إلى نشاطه حين عرف أن فرناسس بن مثرداتس قد استولى مرة أخرى على بنتس وأرمينيا الصغرى وأنه أخذ يدعو بلاد الشرق إلى الثورة من جديد على روما المنقسمة على نفسها، ووضحت فى ذلك الوقت حكمته فى تهدئة أسبانيا وغالة قبل لقائه بومبى، فلو أن الغرب ثار عليه وقت أن ثار الشرق لكان من المرجح أن تتصدع أركان الدولة، وأن يزحف البرابرة نحو الجنود وألا تشهد روما قط عصر أغسطس، لكن قيصر حال دون ذلك كله، فقد بدأ بإصلاح أمر فيالقه الثلاثة، ثم غادر مصر فى شهر يونيه من عام ٤٧ ق.م وسار بسرعته المعتادة على طول شواطئ مصر وسوريا وآسيا الصغرى إلى بلاد بنتس، وهزم فرناسس فى واقعة زيلا، وبعث من ميدان القتال إلى صديق له بهذا الخبر القصير البليغ: "جئت ورأيت وهزمت".

وقابله شيشرون عند تارنيم (٢٦ سبتمبر)، وطلب إليه أن يعفو عنه وعن غيره من المحافظين، فأجابه إلى ما طلب وأظهر له الرضا والود، وهاله بعد أن عاد إلى روما أن الحرب الأهلية، قد استحالت فى العشرين شهراً التى قضاها بعيداً عنها إلى ثورة اجتماعية، وأن دلابلا زوج ابنة شيشرون انضم بقوته إلى كنيليوس، وعرض على الجمعية مشروع قانون بإلغاء جميع الديون، وأن أنطونيوس أطلق جنوده على صعاليك دلابلا المسلحين، وأن ثمانمائة من

الرومان قتلوا فى السوق العامة.

وكان كنيليوس قد استخدم سلطته وهو بريتور، فأعاد ميلو إلى روما ونظما معاً جيشاً فى جنوبى إيطاليا وطلبا إلى الأرقاء أن ينضموا إليهما فى ثورة جانحة عن النظام القائم، ولم يلقيا فى هذه الثورة إلا قليلاً من النجاح، ولكن روح الثورة كانت قد أشربت بها جميع النفوس، فكان المتطرفون فى روما يحتفلون بذكرى كاتلين وينثرون الأزهار مرة أخرى على قبره، وكان جيش بومبى فى إفريقيا قد ازداد عدده، حتى أضحى فى قوة الجيش الذى هُزم فى فرسالس، وكان سكستس بن بومبى قد أنشأ فى إسبانيا جيشاً جديداً، وتعرضت إيطاليا مرة أخرى لخطر انقطاع الحبوب عنها، تلك هى الأحوال التى كانت قائمة فى شهر أكتوبر من عام ٤٧ ق.م حين عاد قيصر إلى روما، وإلى زوجته كلبيرنيا ومعه كليوباترا وأخوها (زوجها) الغلام وقيصرون.

وقد وصلت كليوباترا إلى روما فى الوقت المناسب لتشترك فى انتصار قيصر بعد موقعة تابسوس، وقد أثار مجيؤها بعرباتها المحملة بالمتاع شعور الناس، وقد استقبلت وحاشيتها فى حدائق الدكتاتور عبر نهر التيبر، بينما تُكورت زوجته الشرعية كالبورنيا سيدة فى قصر شرقى المدينة، ويقال إن كليوباترا ظلت مخلصة لقيصر طوال حياته، ولكن قيصر العاشق للنساء لم يكن ليتخلى عن علاقاته النسائية المتعددة، فكان فى أثناء إقامته فى شمال إفريقيا، على صلة بأيونوى زوجة بوجود ملك مروتانيا وكان يسرى عن نفسه فى غياب كليوباترا المؤقت باتخاذها عشيقة له !!

دام موكب النصر أربعة أيام: خصص الأول للاحتفال بالنصر على بلاد الغال وانتهى بإعدام فركنجيتوركس، والثانى لانتصاراته فى مصر، وكان مهرجاناً عظيماً، وخصص اليوم الثالث لانتصاره على يونتوس، والرابع لشمال إفريقيا.

لقد كان قيصر فى طريق الشيخوخة، وقد أهلكته حياة اللهو والإسراف، وكما يقول ويجال: أصبح خاضعاً لنوبات صرع، وقد رأت كليوباترا فى هذه

النوبات شيئاً مقدساً، وقد خصص قيصر معبداً للإلهة فينوس جدته المقدسة، ووضع فيه تمثالاً لكليوباترا، وأخبر بذلك الرومان مؤكدا أن الفتاة الملكية المقيمة فى بيته كانت صورة أخرى مجسدة للإلهة فينوس نفسها.

ولقد سرى فى روما قلق شديد بشأن كليوباترا، وموقعها فى حكم روما، ولكن قيصر كانت له قوة الدعاية عن نفسه فى صورة عجيبة، وشرع فى الأشهر القليلة التى أتيحت له بين الحروب يعيد النظام إلى روما. ولما عين حاكماً بأمره من جديد استرضى المتطرفين إلى حين بإلغاء القانون الأخير من قوانين صادرة، وألغى فى روما كل ما قل عن ألفى سسترس من أجر الأراضى، وحاول فى الوقت نفسه أن يهدئ مخاوف المحافظين فعين ماركس بروتس حاكماً على بلاد غالة الجنوبية، وأكد لشيشرون وأتكس أنه لن يثير حرباً على نظام الملكية، وأمر بإعادة تماثيل سلا التى حطمها الرعاع.

ولما وجه أفكاره نحو بومبى وأنصاره، ساء قيصر وثبط من همته أن يسمع أن أكثر جنوده ولاء له قد ثاروا عليه، لأنهم لم يتسلموا مرتباتهم من زمن بعيد، وأنهم يرفضون الإبحار إلى إفريقيا وكانت خزائن الدولة وقتئذ خاوية أو شبه خاوية، فجمع ما يحتاجه من المال بمصادرة أموال الأشراف الذين خرجوا عليه وبيعها، ولما سئل فى ذلك قال إنه قد تعلم أن الجند يعتمدون على المال وأن المال يعتمد على القوة، والقوة تعتمد على الجند، ثم ظهر فجأة بين الجنود المتمردين، وجمعهم حوله وقال لهم فى هدوء إنه قد سرحهم، وإن فى مقدورهم أن يعودا إلى منازلهم، وإنه سيؤدى إليهم كل ما تأخر من رواتبهم بعد أن يتم النصر له فى إفريقيا على يد "غيرهم من الجنود".

ويقول أبيان إنهم لما سمعوا هذا القول استولى عليهم الخجل جميعاً لأنهم تخلوا عن قائدهم فى الساعة التى يحيط به العدو فيها من كل جانب.. فصاحوا بأنهم نادمون على خروجهم عليه، وتوسلوا إليه أن يحتفظ بهم فى خدمته فأجابهم إلى ما طلبوا فى إباء ساحر، وأبحر إلى إفريقيا.

والتقى فى اليوم السادس من شهر أبريل سنة ٤٦ ق.م بقوات متلس

سبيو فى وكاتو ولبينس وجوبا الأول ملك نوميديا مجتمعة، وخسر المعركة الأولى فى هذه المرة أيضاً، ولكنه فعل ما فعله من قبل، فأعاد تنظيم صفوفه وهجم بها على عدوه وانتصر عليه، ولامه جنوده المتعطشون للدماء على ما أظهره من رأفة بأعدائه فى فرسالس، واعتقدوا أنه لولا هذه الرحمة لما اضطروا إلى قتال هؤلاء الأعداء مرة أخرى، ولذلك قتلوا من جنود بومبى الثمانين ألفاً نحو عشرة آلاف، ولم تأخذهم بهم رأفة، لأنهم لم يريدوا أن يتلقوا بهؤلاء الجنود مرة أخرى فى ميدان القتال، وانتحر جوبا وفر سبيو ومات فى مناوشة بحرية، وهرب كاتو ومعه سرية من جنوده إلى يتكا.

ولما اقتفى قيصر أثره وأراد الضباط أن يصدوه عن المدينة، أقنعهم كاتو بأنه لا جدوى من عملهم هذا، وأعد المال لمن أرادوا القتال، ولكنه أشار على ابنه بالاستسلام لقيصر.

أما كاتو نفسه فقد رفض كلتا الخُطتين وقضى السهرة فى بحوث فلسفية، ثم آوى إلى حجرة نومه وقضى شطراً من الليل يدون لأفلاطون، وأيقن أصدقاؤه أنه سيقتل نفسه فأخذوا سيفه من جانبه، فلما غفلت أعينهم أمر خادمه أن يأتيه بالسيف، وتظاهر بالنوم ساعة من الليل ثم قام وأمسك بسيفه وبقر به بطنه وهرول إليه أصدقاؤه، وأعاد الطبيب أحشاءه إلى بطنه، وخاط الجرح وضمده، ولكنهم لم يكادوا يخرجوا من الحجرة حتى رفع كاتو الضمادات عن الجرح، وأعاد فتحه وأخرج منه أحشاءه وقضى نحبه.

ولما جاء قيصر كان أشدُّ ما أحزنه أنه لم تتح له الفرصة للعفو عن كاتو، وأن كل ما يستطيع أن يفعله أن يعفو عن ولده.

وشيع أهل يتكا الرواقى المنتحر فى مشهد حافل، كأنهم يعرفون أنهم يدفنون معه جمهورية كادت تبلغ من العمر خمسة قرون.

إصلاحات قيصر

الإمبراطورية، وهو ما لم يتحقق إلا بعد ٢٥ سنة.

كذلك، أنشأ قيصر عدداً من المستعمرات الجديدة فى البحر الأسود، وفى موقع كورنتة وقرطاجنة، وأسبانيا.

التقويم الرومانى:

أحد أهم أعمال قيصر هو تغيير التقويم الرومانى الذى كان يقوم على السنة القمرية (٣٥٥ يوماً)، واتخاذ التقويم المصرى الذى يقوم على السنة الشمسية (٣٦٥ يوماً) على أن يضاف إليها يوم كل أربع سنوات، وجعل السنة تبدأ فى يناير بدلاً من مارس، وأطلق اسمه على الشهر الذى ولد فيه، وهو شهر يوليو، وهذا التقويم لا يزال باقياً إلى الآن بعد أن أضيف عليه تعديل البابا جريجورى الكبير سنة ١٥٨٢م.

تجميل روما:

إلى جانب هذا اتخذ خطواتٍ نحو تجميل روما، فجمل لها أسواقها الفسيحة، وأنشأ أول مكتبة عامة فى روما، وشيد معابد، كما وسع ميناء أوستيا، وميناء روما، وبدأ تجفيف المستنقعات وبناء الطرق وما إلى ذلك من إصلاحات.

■ ■ ■

نهاية مأساوية

نهاية مأساوية

لما تسربت أنباء عن خطة بناء ترسانة عسكرية ينوى قيصر تنفيذها، رحب بها العامة الذين يحبون المجد والانتصارات الحربية، وتلمظ لها رجال الأعمال إذ شموا فيها رائحة الحرب، وتصوروا المطالب تنهال عليهم لصنع العتاد، وتصوروا الولايات تنهب وتتكدس فى خزائنهم الأموال، أما الأشراف فرأوا الفناء يحل بهم عند عودة قيصر، ولذلك عقدوا النية على قتله قبل أن يغادر البلاد.

وكان قيصر قد عامل هؤلاء الأشراف معاملة كريمة أطلقت لسان شيشرون بالثناء عليه، وكان قد عفا عن كل من استسلم له من أعدائه، ولم يحكم بالإعدام إلا على عدد قليل من الضباط الذين خانوا عهده، فحاربوه بعد أن هزمهم وعفا عنهم. وكان قد أحرق كل الرسائل التى عثر عليها فى خيمة بومبى وسبيو من غير أن يقرأها، وأرسل ابنة بومبى وأحفاده الأسرى إلى سكتس بن بومبى وكان فى حرب معه، وأصلح تمثال بومبى وأقامه فى موضعه بعد أن طرحه أتباعه على الأرض، وعين بروتس وكاسيوس واليين على اثنتين من الولايات، كما عين غيرهما من الأشراف فى بعض المناصب العليا، وصبر على كثير من الأذى والمثالب دون أن يشكو أو يتذمر، ولم يتخذ شيئاً من الإجراءات ضد من كان يظن أنهم يأتمرون به ليقتلوه.

أما شيشرون الذى طالما لبس لباسا لكل حالة، وأدار شراعه لكل ريح، فإن قيصر لم يكتف بالعفو عنه، بل كرمه، ولم يبخل عليه بشىء مما طلبه الخطيب العظيم لنفسه أو لأصدقائه البومبيين، بل إنه انصاع لإلحاف شيشرون، فعفا عن ماركس مرسلس، وهو الرجل الذى خرج على قيصر ولم

يندم على فعله. وقد امتدح شيشرون فى خطبة له رنانة عنوانها " إلى مرسلس" كرم قيصر الذى لا يصدقه العقل، وقال عن بومبى إنه لو انتصر لكان أشد منه انتقاماً من أعدائه، ثم أضاف إلى ذلك قوله: " لقد سمعت مع الأسف الشديد عبارتك الفلسفية المشهورة: (لقد نلت كفايتى من طول الحياة ومن الشهرة) ورجائى إليك أن تطرح حكمة الحكماء، ولا تكن حكيماً إذا عرضتك الحكمة للأخطار.. إنك لا تزال بعيداً كل البعد عن إنجاز أعمالك العظيمة، بل إنك لم تضع بعد أسسها ".. ثم وعد شيشرون قيصر وعداً صادقاً باسم مجلس الشيوخ كله، بأنهم سيسهرون على سلامته، ويصدون بأجسامهم كل اعتداء عليه.

وأثرى شيشرون فى ذلك الوقت ثراء جعله يفكر فى شراء قصر آخر، وكان يستمتع بالمآدب التى يدعوه إليها أنطونيوس وبلبس وغيرهما من أعوان قيصر، ولم تكن رسائله فى أى وقت مضى أكثر بهجة مما كانت فى ذلك الوقت.

غير أن قيصر لم ينخدع بهذا كله، فقد كتب إلى ماريوس يقول: "إذا كان فى الناس من هو ظريف فذاك شيشرون،ولكنه يبغضنى أشد البغض ".. وكان قيصر صادقاً فى قوله، فلما أن عاد البمبيون إلى مناوأة قيصر بعد أن أمنوا جانبه، ارتمى شيشرون فى أحضانهم، وكتب يثنى على كاتو الأصغر ثناء ما كان أجدره بأن ينبه قيصر إلى ما يحيط به من الأخطار، غير أن قيصر لم يفعل أكثر من أن يرد على شيشرون بكتابة ضد كاتو لا تدل على حصافة عقله، ذلك أنه بعمله هذا مكن خصمه من أن يختار السلاح الذى ينازله به، وكانت نتيجة هذا أن انتصر الخطيب عليه، وأثنى الرأى العام على أسلوب شيشرون، كما أثنى على الحاكم الذى اختار أن يكتب رسالة وهو قادر على أن يوقع أمراً بالإعدام.

وبعد فإن الذين حرموا ما كان لهم من سلطان لا يمكن أن تُستل سخائمهم بالعفو عن مقاومتهم لمن حرمهم هذا السلطان، وليس عفوك عمن

عفا عنك بأقل صعوبة عمن آذيته، ومصداق هذا أن الأشراف فى مجلس الشيوخ، الذى لم يكن يجرؤ على رفض المقترحات التى عرضها عليه قيصر حسب الأصول الدستورية، أخذوا يتبرمون ويندون تنديد الوطنيين الصادقين بالقضاء على الحرية التى أتخمت بالمال خزائنهم، وعز عليهم أن يقروا بأن عودة النظام تتطلب التضحية ببعض حريتهم، وقد روعهم وجود كليوباترا وقيصرون فى روما، نعم إن قيصر كان يعيش مع زوجته كلبيرنيا، وإنهما كانا يتبادلان المحبة فى الظاهر، ولكن من ذا الذى يعرف وتطاوعه نفسه على ألا يذيع ما كان يحدث فى أثناء زيارات قيصر الكثيرة للمملكة العظيمة الجميلة؟

وأكدت الشائعات أنه يريد أن ينصب نفسه ملكاً، وأن يتزوج كليوباترا، وأن ينقل عاصمة دولتهما المتحدة إلى بلاد الشرق، ألم يأمر بأن يقام له تمثال على الكابيتول بجوار تماثيل ملوك روما الأقدمين؟ ألم تطبع صورته على النقود الرومانية؟ وهى وقاحة لم يسبق لها نظير. ألم يلبس جلابيب أرجوانية من اللون الذى كان يحتفظ به عادة للملوك؟ لقد جاءه القنصل أنطونيوس يوم عيد لبركاليا فى الخامس عشر من فبراير عام ٤٤ ق.م عارى الجسد إلا من جلود الماعز التى كان يلبسها الكهنة فى ذلك العيد، ثملاً من كثرة ما احتسى من الخمر، وحاول ثلاث مرات أن يضع التاج الملكى على رأس قيصر، ورفضه قيصر فى المرات الثلاث، ولكن ألم يكن سبب هذا الرفض أن الجماهير قد أبدت غضبها من هذا العمل وإن أبدته همساً؟ ألم يقصِ التريبيونين عن منصبيه لأنه رفعا عن تمثاله الإكليل الملكى الذى وضعه عليه أصدقاؤه؟ ولما أقبل عليه الشيوخ وهو جالس فى هيكل فينوس لم يقم واقفاً لاستقبالهم، وقال بعضهم إنه قد أقعدته وقتئذ نوبة صرع، وقال غيرهم إنه كان يشكو إسهالاً شديداً، وإنه ظل جالساً حتى لا تتحرك أمعاؤه فى هذه اللحظة غير المواتية، لكن كثيرين من الأشراف كانوا يخشون أن يُنادَى به ملكاً فى يوم ما.

أقبل كيوس كاسيوس، وهو رجل مريض الجسم " أصفر نحيل "، كما يصفه أفلوطرخس ماركس بروتس، واقترح عليه اغتيال قيصر، وكان قبل ذلك قد عرض خطته على جماعة من الشيوخ وعلى بعض الممولين، الذين قل ما ينهبونه من الولايات مذ وضع قيصر القيود الشديدة على الملتزمين، بل عرضها أيضاً على بعض القواد فى جيش قيصر الذين أحسوا بأن ما حباهم به من المناصب والغنائم كان أقل مما يستحقون، وكان هؤلاء كلهم قد وافقوا عليها !!

وكان المتآمرون فى حاجة إلى بروتس ليكون هو رافع لواء المؤامرة، لأنه اشتهر بين الناس كافة بأنه أعظم الناس استمساكاً بالفضيلة، وكان الناس يقولون إنه من سلالة بروتس الذى طرد الملوك قبل ذلك الوقت بأربعمائة وستة وأربعين عاماً، وكانت أمه سرفليا أختاً غير شقيقة لكاتو، وزوجته بوشيا ابنة كاتو أرملة بيليوس عدو قيصر. ويقول أبيان: " إن الناس كانوا يظنون أن بروتس نفسه ابن قيصر، لأن قيصر كان عشيق سرفليا فى الوقت الذى ولد فيه بروتس "، ويضيف أفلوطرخس إلى ذلك أن قيصر كان يعتقد أن بروتس ولده، ولا يبعد أن يكون بروتس نفسه ممن يعتقدون هذا الاعتقاد، وأنه كان يحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضغة فى أفواه الرومان، يقولون عنه إنه ابن زانية بدل أن يكون من نسل آل بروتس.

وكان هو على الدوام مكتئباً يميل إلى الصمت كأن الظلم حل به يجثم على صدره ويشغل باله، وذلك فى الوقت الذى كان فيه فخوراً معجَباً بنفسه، لأنه أياً كان مولده يجرى فى عروقه دم الأشراف، وكان يجيد اللغة اليونانية ويحب الفلسفة، وكان فى علم ما وراء الطبيعة من القائلين برأى أفلاطون، وفى الأخلاق من أتابع زينون، وكان مما انطبع فى ذهنه أن الرواقية تتفق مع المبادئ اليونانية والرومانية فى الحث على قتل الطغاة الظالمين، وقد كتب فى هذا إلى صديق له يقول: " إن آباءنا كانوا يعتقدون أنه لا ينبغى لنا أن نخضع للمستبد، ولو كان هذا المستبد أبانا نفسه ".

وقد ألف رسالة فى الفضيلة وخلط الناس فى المستقبل بينه وبين هذا

الوصف، وإن كان بعيداً عنه، فقد أقرض أهل سلاميس فى قبرص عن طريق بعض الوسطاء أموالاً بسعر ثمانية وأربعين فى المائة، ولما تذمروا من أداء ما تراكم عليهم من الفوائد ألح على شيشرون ـ وكان وقتئذ قنصلاً فى قليقية ـ أن يستعين بالجيوش الرومانية على جمع المال، وقد حكم غالة الجنوبية حكماً صالحاً يمتاز بحسن الإدارة والكفاية، ولما عاد إلى روما عينه قيصر بريتورا على الحواضر.

وقد ثار كل عنصر طيب فيه على مقترحات قيصر، وأخذ كاسيوس يذكره بإبائه الظلم، ولعل بروتس قد شعر بأنه يتحداه بأن يثبت أنه من نسلهم وبأن يحذو حذوهم، وكان هذا الشاب الحساس يحمر وجهه خجلاً حين يرى على تمثال بروتس الأكبر أمثال هذه العبارة:

" أى بروتس! هل مت؟ وإلا فإن آباءك براء منك"..

وقد أهدى بروتس شيشرون عِدة من رسائله كتبها فى تلك السنين، وسرت فى ذلك الوقت بين الأشراف شائعة فحواها، أن لوسيوس كان سيعرض على مجلس الشيوخ فى اجتماعه المقبل، الذى سيكون فى الخامس من شهر مارس، اقتراحاً بتصيب قيصر ملكاً، لأن عرافة سيبيل قالت إن البارثيين لن يهزموا إلا على يد ملك، وقال كاسيوس إن المجلس، وقد أصبح نصف أعضائه ممن عينهم قيصر، سوف يوافق على هذا الاقتراح، وإنه لن يبقى بعد ذلك أمل فى عودة الحكم الجمهورى، وتأثر بروتس بهذا كله، واستسلم له.

وأخذ المتآمرون بعد ذلك يحكمون أمرهم ويضعون خططهم، واستخلصت بورشيا زوجة بروتس السر من زوجها، بأن طعنت نفسها بخنجر فى فخذها، لتبرهن بذلك على أنه ما من أذى يصيبها فى جسمها يحملها على أن تنطق بشىء رغم إرادتها، وأصر بروتس فى لحظة غير مواتية له على ألا يمس أنطونيوس بأذى.

وحدث فى مساء اليوم الرابع عشر من شهر مارس أن عرض قيصر على من كانوا مجتمعين فى منزله أن يكون موضع حديثهم: ما هى خير طريقة للموت ؟ وأجاب هو عن ذلك السؤال بقوله: إنها المِيْتة المفاجئة !! وتوسلت

إليه زوجه فى صباح اليوم الثانى ألا يذهب إلى مجلس الشيوخ، وقالت إنها رأته فى نومها ملطخاً بالدماء !! وحاول خادم آخر، كان رأيه مثل رأيها أن يفتعل نذيراً يمنع قيصر من الذهاب، فتسبب فى سقوط صورة لأحد أسلافه معلقة على جدار، ولكن سمس بروتس وهو صديق حميم لقيصر وأحد المتآمرين، ألح عليه أن يحضر الاجتماع، وإن لم يفعل فيه أكثر من أن يطلب بنفسه فى رقة ومجاملة تأجيل الجلسة إلى وقت آخر.

وأقبل صديق لقيصر عرف نبأ المؤامرة ليحذره، فوجده قد غادر داره فى طريقه إلى المجلس، وقابل فى طريقه عرافاً كان قد أسر إليه من قبل أن يحذر اليوم الخامس عشر من شهر مارس، وقال له قيصر وهو يبتسم، إن الخامس عشر من مارس قد جاء ولم يصب فيه بسوء، فأجابه أسبورنا: " نعم ولكنه لم يمضِ بعد ".

وبينما كان قيصر يقرب القربان الذى كان من المألوف تقريبه قبل الجلسة أمام ملهى بومبى حيث يعقد المجلس اجتماعه، إذ وضع أحدهم فى يده لوحة صغيرة يحذره فيها من المؤامرة ولكنه لم يعبأ بها، وتقول الرواية المأثورة إن هذه اللوحة وجدت فى يده بعد مقتله، وشغل تربونيوس - وهو أحد المتآمرين وكان من قبل أحد قواد قيصر المقربين - أنطونيوس بالحديث، فعطله عن حضور الاجتماع، ولما دخل قيصر الملهى واتخذ فيه مجلسه، هجم "دعاة الحرية" من فورهم عليه.. ويقول سيوتونيوس: " لقد كتب بعضهم يقولون إنه حين هجم عليه ماركس بروتس، قال قيصر باللغة اليونانية:" «ايتا بروتو» أي «حتى أنت يابروتس» ويقول أبيان إن قيصر حين طعنه بروتس امتنع عن كل مقاومة، وغطى وجهه ورأسه بثوبه، واستسلم للضربات، وسقط عند قدمى تمثال بومبى، وهكذا تحققت رغبة واحدة من رغباته.

■ ■ ■

أنطونيوس وبروتس

أنطونيوس وبروتس

كان مقتل قيصر مأساةً من مآسى التاريخ الكبرى، وليس السبب فى عظم هذه المأساة، مقصوراً على أنها حالت بينه وبين إتمامه عملاً من أَجَلِّ الأعمال السياسية والإدارية، وأدت إلى امتداد عهد الفوضى والحروب خمسة عشر عاماً أخرى، فلو كانت نتائجها مقصورة على هذا وذاك لهان الخطب، فقد بقيت الحضارة الرومانية بعده، وأتم أغسطس ما بدأه قيصر.

بل كان مقتله مأساة من نوع آخر، وهى أن الحزبين المتعارضين فى مجلس الشيوخ كان كلاهما فى أغلب الظن على حق: فالمتآمرون محقون فى اعتقادهم أن قيصر كان يعتزم أن ينصب نفسه ملكاً، كما أن قيصر نفسه كان محقاً فى ظنه أن الفوضى والنظام الإمبراطورى قد جعلا الملكية أمراً محتوماً. وقد انقسم الناس بين الرأيين وما فتئوا منقسمين منذ اللحظة الرهيبة التى مرت بمجلس الشيوخ، وقد استولى عليهم الهلع من وقع الحادث، ثم فر أعضاؤه مذعورين مضطربين من قاعة الاجتماع، وأقبل أنطونيوس على مكان الحادث بعد وقوعه، ورأى أن الحكمة هى عين الشجاعة، فاحتمى فى بيته، وخانت شيشرون فصاحته، حتى فى الوقت الذى حياه فيه بروتس، وخنجره يقطر دماً فى يده قائلاً له:" مرحباً بأبى بلده"..

ولما خرج المتآمرون وجدوا الشعب هائجاً فى الميدان العام، وأرادوا أن يضموه إلى جانبهم بألفاظ الحرية والجمهورية، ولكن العامة الذين جن جنونهم من هول الحادث، لم يعبأوا بهذه الألفاظ التى طالما استخدمت لستر المطامع والشره، ولجأ القتلة إلى البناء القائم على الكابيتول ليعتصموا به خوفاً على حياتهم، وأحاطوا أنفسهم بحراسهم من المصارعين، وانضم إليهم

شيشرون فى آخر النهار، وأرسلوا رسلهم إلى أنطونيوس يستطلعون موقفه فأجابهم جواباً وديا.

واحتشد فى اليوم الثانى جمع غفير فى السوق العامة، وأرسل المتآمرون صنائعهم ليبتاعوا تأييدهم وينظموا من هذا الحشد جمعية شرعية، ثم استجمعوا شجاعتهم، ونزلوا من فوق الكابيتول، وألقى بروتس على المجتمعين خطبة كان قد أعدها من قبل ليلقيها فى مجلس الشيوخ، غير أن هذه الخطبة لم يكن لها أثر فى السامعين، وحاول كاسيوس أن يؤثر هو فيهم ولكنهم قابلوه بصمت وفتور، فعاد المتآمرون إلى الكابيتول، حتى إذا ما نقص عدد العامة المحتشدين تسللوا إلى بيوتهم.

واعتقد أنطونيوس أنه وارث قيصرَ، فحصل من كلبيرنيا ـ وقد أذهلتها الفاجعة، وكادت تذهب بعقلها ـ على كل ما تركه قيصر فى القصر من أوراق وأموال، ثم عاد فى الوقت نفسه جنود قيصر القدامى إلى روما، وفى اليوم السابع عشر دعا أنطونيوس مجلس الشيوخ إلى الاجتماع، مستخدماً فى ذلك حقه بوصفه تريبوناً، وأدهش الأحزاب جميعها بلطفه وهدوئه، فقبل ما عرضه عليه شيشرون وأصدر عفواً عاماً، ووافق على أن يعين بروتس وكاسيوس واليين لاثنتين من الولايات، موافقا على " أن يفرا وينجوا ويستمتعا بالسلطان "، على شرط أن يقر مجلس الشيوخ جميع الأوامر، والقوانين، والتعيينات التى أصدرها قيصر.

وإذ كانت كثرة الشيوخ مدينة بمناصبها وأموالها إلى هذه القرارات نفسها، فقد وافقت على هذا الشرط، ولما فض الاجتماع أثنى الجميع على أنطونيوس، وقالوا إنه هو السياسى الذى انتزع السلم من بين أنياب الحرب، وفى مساء ذلك اليوم نفسه أولم وليمة عشاء لكاسيوس، وعاد مجلس الشيوخ إلى الانعقاد فى اليوم الثامن عشر، وأقر وصية قيصر، ووافق على أن يحتفل بجنازته احتفالاً عاماً، واختار أنطونيوس ليؤبنه التأبين المألوف.

وفى اليوم التاسع عشر حصل أنطونيوس من العذارى الفستية على وصية قيصر، وكان قد أودعها عندهن، وقرأها لجماعة صغيرة فى بادئ الأمر، ثم لجماعة أخرى أكبر من الأولى عدداً، وقد جاء فيها أنه يوصى بجميع أملاكه الخاصة لثلاثة أحفاد إخوته، وكان ذلك مثار دهشة أنطونيوس وغضبه، وسمى قيصر واحداً منهم بالذات وهو كيوس أكتافيوس متبناه ووريثه، وجعل الدكتاتور حدائقه متنزهاً عاماً للشعب، وأوصى لكل مواطن فى روما بثلاثمائة سترس.

وسرعان ما انتشر نبأ هذا الإحسان فى جميع أنحاء المدينة، ولما جئ فى اليوم العشرين من الشهر بجثة قيصر إلى السوق العامة، بعد أن حنطت فى بيته لإجراء المراسم النهائية، احتشد حولها جمع غفير من الناس ومن بينهم جنود قيصر القدامى ليكرموه.

ويظهر أن أنطونيوس قد تحدث إلى هذا الجمع فى بادئ الأمر بحيطة فلم يطلق للسانه العنان، ولكن عواطفه المكبوتة لم تلبث أن تغلبت عليه فأطلقت لسانه وأكسبت ألفاظه فصاحة أيما فصاحة. ولما رفع من النعش العاجى الثوب الممزق الملطخ بالدماء، والذى مزقته الطعنات التى وجهت إلى قيصر، ثارت عواطف المجتمعين ثوراناً لم يكن فى وسع أحد أن يكبح جماحه، وعلا النحيب والعويل، وأخذ كل واحد يجمع الأحطاب اللازمة لإشعال النار التى ستحرق بها الجثة، وألقى الجنود القدامى أسلحتهم فوق كومة الأحطاب لتكون قرباناً يقربونه إلى قيصر، كما ألقى الممثلون ملابسهم والموسيقيون آلات عزفهم، كما ألقت النساء أغلى ما يمتلكن من الحلى، وانتزع بعض المتحمسين مشاعل من النار وذهبوا بها ليحرقوا بيوت المتآمرين، ولكنهم وجدوا الحراسة شديدة على هذه المبانى، ووجدوا أن أصحابها قد فروا من روما، وظلت طائفة كبيرة من الشعب بجوار الأحطاب المحترقة طوال الليل، كما لازمها اليهود ثلاثة أيام كاملة، اعترافاً منهم بفضل قيصر وعطفه عليهم

فـيـمـا أصـدره مـن قـوانـين، ولم ينقطعوا طوال هذه الأيام الثـلاثة عـن ترديد أناشيدهم الجنائزية، وظلت العاصمة فى هذه الأيام الثلاثة تجتاحها الفتن والقلاقل، حتى أمر أنطونيوس جنوده فى آخر الأمر أن يعيدوا إليها النظام، وأن يلقوا بكل من لا يرتدع عن السلب والنهب من فوق صخرة تربيا.

وكان أنطونيوس نصف ما كان قيصر كما سيكون أغسطس نصفه الثانى، فقد كان أنطونيوس قائداً عظيماً كما كان أغسطس حاكماً فذاً ممتازاً، ولكن الصفتين لم تجتمعا فى واحد منهما، وقد ولد أنطونيوس فى غالة ٨٢ ق.م، وقضى الشطر الأكبر من حياته فى المعسكرات كما قضى أكثرها فى معاقرة الخمر، ومجالس النساء، والاستمتاع بالمرح، وشهى الطعام.

وكان أيضاً رغم كرم محتده وبهاء طلعته، يتصف بفضائل عامة الناس، وكان قوى الجسم، حيوانى الروح، طيب القلب، كريماً شجاعاً، وفياً، وقد أساء إلى سمعته وسمعة قيصر نفسه إذ احتفظ فى داره بروما بطائفة كبيرة من النساء والغلمان، وبعشيقة يونانية فى محمله كلما غادر روما. وكان قد ابتاع منزل بومبى فى المزاد العام وأقام فيه، ثم أبى أن يؤدى ثمنه، وها هو ذا يجد فى أوراق قيصر - أو يسجل فيها على ما يقول بعضهم - كل ما يستفيد من وجوده مناصب لأصدقائه، ومراسيم يصل بها إلى أغراضه، وخيراً كثيراً لنفسه. فلم يمض على مقتل قيصر أسبوعان حتى وفى بديون كانت عليه تعادل حالياً نحو مليون ونصف المليون دولار أمريكى، وأصبح بعد عشية وضحاها رجلاً ثرياً، واستولى على الخمسة والعشرين مليون هيكل أبس Aps التى كان قيصر قد أودعها فى هيلك أبس، وعلى خمسة ملايين أخرى من أموال قيصر الخاصة.

ولما رأى أن دسمس بروتس، الذى عينه قيصر قبل مقتله والياً على غالة الإيطالية، قد تولى هذا المنصب المربح رغم اشتراكه فى اغتيال قيصر، استصدر قراراً من الجمعية بتعيينه هو والياً على هذه الولاية ذات الموقع

العسكرى الخطير، وعوض دسمس عنها بولاية مقدونية، ثم استصدر قراراً بأن يتخلى ماركس بروتس وكاسيوس عن مقدونية لدسمس، وعن سوريا لدلابلا، وأن يقنعا بقورينة وكريت.

وارتاع مجلس الشيوخ من قوة أنطونيوس المتزايدة، فدعا إلى روما كيوس أكتافيوس متبنى قيصر لكى يقضى على هذه القوة، وقد صار كيوس فى مستقبل الأيام أعظم الساسة الحاكمين فى التاريخ الرومانى، أما فى عام ٤٤ ق.م، فلم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر، وقد تسمى باسم الرجل الذى تبناه كما جرت بذلك العادة المألوفة، وعدله بإضافة اسمه هو فصار اسمه الكامل كيوس يوليوس قيصر أوكتافيوسوس، وظل ذلك اسمه حتى ضم إليه بعد سبعة عشر عاماً من ذلك الوقت اسم أغسطس، وهو اللقب العظيم التى تعرفه به القرون التالية، وكانت جدته هويوليا أخت قيصر، أما جده فكان مصرفياً من أصل عامى فى فلترا من أعمال لاتيوم، وكان أبوه قد عمل مشرفا شعبياً ثم بريتوراً، ثم فيما بعد والياً على مقدونية.

وقد نشأ الغلام على البساطة الأسبارطية، وتعلم الآداب والفلسفة اليونانيتين والرومانيتين وقضى معظم الثلاث السنوات الأخيرة فى قصر قيصر، ولقد كان من أسباب حزن قيصر أنه لم يكن له أبناء شرعيون، كما كان من أكبر الشواهد على حصافة رأيه أن تبنى أكتافيوس، فأخذه وهو غلام معه إلى أسبانيا فى عام ٤٥، وسره أن رأى الشاب المريض العصبى الضعيف الجسم وقد تحمل أخطار الحرب وشدائدها بشجاعة عظيمة.

وعمل قيصر على أن يدرب الشاب على فنون الحرب والحكم، وإنا لنعرف ملامحه من التماثيل الكثيرة التى أقيمت له: فهو رقيق، نحيل، جاد، خجول وحازم معاً، عنيد، مثالى، اضطرته الظروف لأن يكون واقعياً، علمته صروف الدهر أن يكون من رجال العمل، وكان أصفر الوجه، هزيل الجسم، يشكو سوء الهضم، ولذلك لم يكن يأكل إلا قليلاً ولا يشرب إلا أقل، وعاش

أطول مما عاش من حوله من الأقوياء بالحمية وتنظيم الحياة.

فى أواخر مارس عام ٤٤ ق. م جاء إلى أبولونيا من أعمال إليريا - حيث كان أكتافيوس - مع جيشه نبأ مقتل قيصر ووصيته، وارتاع الشاب المرهف الحس لجحود الناس وكفرهم بنعم المنعم عليهم، وثار فى نفسه كل ما كان كامناً فيها من حبه لخال أمه، الذى كان يعزه أعظم إعزاز، والذى كان يعمل جاهداً لإقامة صرح الدولة المحطمة، وعقد النية فى صمت على أن يواصل جهود قيصر وأن ينتقم من قاتليه. فركب من فوره إلى شاطئ البحر وعبره إلى برنديزيوم، وأسرع إلى روما وأشار عليه أقاربه فيها أن يظل مختفياً عن الأنظار لئلا يهلكه أنطونيوس، ونصحته والدته ألا يقوم بعمل من الأعمال ولكنها ابتهجت حين سخر من هذه النصيحة، وكان ما أشارت به عليه أن يصبر كلما كان الصبر فى مقدروه، وأن يلجأ إلى الدهاء بدل الحرب السافرة، وقد عمل بهذه النصيحة الحكيمة إلى آخر أيامه.

وتوجه لزيارة أنطونيوس، وسأله عما هو فاعل بقتلة قيصر، وهاله أن يرى أنطونيوس مشغولاً بإعداد جيش يزحف به على دسمس بروتس، لأنه أبى أن يتخلى عن بلاد غالة الجنوبية، وطلب إلى أنطونيوس أن يوزع ما تركه قيصر حسب وصيته، وخاصة ذلك الجزء الذى يوصى بإعطاء كل مواطن خمسة وأربعين ريالاً، غير أن أنطونيوس وجد أسباباً كثيرة تدعو إلى تأخير تنفيذ الوصية، فما كان من أوكتافيوس إلا أن وزع على جنود قيصر القدامى أموالاً استدانها من أصدقاء قيصر وأعد بنفسه جيشَه.

واغتاظ أنطونيوس من " وقاحة هذا الولد "، على حد قوله، وأعلن أن بعضهم قد حاول قتله، وأن الذى كان يريد اغتياله قد قال إن أوكتافيوس هو المحرض له، وأنكر أوكتافيوس هذه التهمة وقال إنه برىء منها، وانتهز شيشرون فرصة هذا النزاع وأدخل فى روع أوكتافيوس أن أنطونيوس فظ، غير مهذب، يجب أن يُهزم، ووافق أوكتافيوس على هذا الرأى وضم فيلقيه

إلى فيالق القنصلين هرتيوس وبنسا، وزحف بها كلها شمالاً لقتال أنطونيوس.

وأمد شيشرون هذه الحرب الأهلية الجديدة بطائفة من الاتهامات المقذعة، ضمنها أربع عشرة خطبة قوية فى الطعن على سياسة أنطونيوس العامة وحياته الخاصة، ألقى بعضها فى مجلس الشيوخ أو فى الجمعية، ونشر بقيتها للدعاوى ضد أنطونيوس على أحسن الصور التى صارت الدعاوى الحربية تنشر بها فى مستقبل الأيام، ولما التقى الجيشان هُزم أنطونيوس وفر من الميدان، ولكن هرتيوس وبنسا قتلا فى المعركة، وعاد أوكتافيوس إلى روما، وأصبح القائد الأوحد لفيالق مجلس الشيوخ وفيلقبه هو، وأرغم المجلس وهو مؤيد بهذه القوة على أن يعينه قنصلاً، وأن يلغى العفو الذى أصدره عن المتآمرين، وأن يحكم عليهم جميعاً بالإعدام.

ولما تبين له أن شيشرون ومجلس الشيوخ من ألد أعدائه، وأن كل ما فى الأمر أنهما يتخذانه أداة مؤقتة للقضاء على أنطونيوس، لما تبين له هذا سوى النزاع القائم بينه وبين أنطونيوس، وكون منه ومن أنطونيوس ولبدس الحكومة الثلاثية الثانية (٤٣ - ٣٣ ق.م)، ثم زحفت جيوشهم المتحالفة على روما واستولت عليها دون أن تلقى مقاومة وفر كثير من الشيوخ والمحافظين إلى جنوبى إيطاليا وإلى الولايات الخارجية، واعترفت الجمعية بهذه الحكومة الثلاثية وخولتها سلطات كاملة على مدى خمسة أعوام.

ولكى يستطيع الحكام الثلاثة أداء رواتب جنودهم وملء خزاناتهم، والانتقام من قتلة قيصر، بسطوا على روما حكماً لا يماثله فى تاريخ الرومان كله حكم آخر فى الإرهاب وسفك الدماء، فقد أعدوا قوائم تحتوى على أسماء من لابد من إعدامهم، وكانوا ثلاثمائة من الشيوخ، وألفين من رجال الأعمال، وعرضوا على كل حر يأتيهم برأس واحد من هؤلاء ٢٥ ألف درخمة، وعلى كل عبد ١٠ آلاف درخمة، وأضحى امتلاك المال جريمة يعاقب عليها بالإعدام. فكانوا يحكمون بقتل الأطفال الذين يرثون مالاً، وينفذون فيهم

الحكم، وكانوا ينتزعون من الأرامل ما يرثنه من الأموال، وقد أكرهت ١٤ ألف امرأة على أن ينزلن للحكام الثلاثة عن الجزء الأكبر من أملاكهن، ثم استولوا آخر الأمر على الأموال المدخرة المودعة عند (العذارى الفستية)، وقد عفوا عن أتكس لأنه ساعد من قبل فلفيا زوجة أنطونيوس.

وأقام الحكام الثلاثة جنودهم حراساً على كل مخارج المدينة، واختبأ المحكوم بإعدامهم فى الآبار والبالوعات والحجرات العليا من الدور والمداخن، ومنهم من ماتوا وهم يدافعون عن أنفسهم، ومنهم من أماتوا أنفسهم جوعاً أو شنقاً أو غرقاً، ومنهم من قفزوا من فوق الأسطح أو ألقوا أنفسهم فى النار، ومن الناس من قُتل خطأ، ومن غير المحكوم عليهم من انتحروا فوق أجسام من قتلوا من أقاربهم.

وكان التريبون سلفيوس يعلم أنه من المقضى بإعدامهم، فأقام وليمة وداع لأصدقائه، ودخل عليه رسل الحكام الثلاثة فى أثناء الوليمة وقطعوا رأسه وتركوا جسمه أمام المائدة، وأمروا المدعوين أن يستمروا فى طعامهم وشرابهم.

وانتهز العبيد هذه الفرصة للتخلص من سادتهم، ولكن كثيرين منهم قضوا نحبهم وهم يدافعون عن ملاكهم، وقد تخفى واحد منهم فى زى سيدة وقتل بدلاً منها، ومات بعض الأبناء دفاعاً عن آبائهم، ووشى بعضهم بآبائهم ليرثوا نصيباً من أموالهم، وكانت فرصة سانحة للزوجات الزانيات أو اللاتى خانهن أزواجهن للانتقام من أزواجهن بالوشاية بهم، وأنقذت زوجة كوبونيوس زوجها بمنح جسدها لأنطونيوس، وكانت فلفيا زوجة أنطونيوس قد حاولت أن تشترى منزل جارها رفوس (Rufus)، فأبى ذلك عليها فاستطاعت أن تضع اسمه بين أسماء المحكوم بإعدامهم، فلما قطع رأسه أمرت به فدق بالمسامير على باب بيته!!

ووضع أنطونيوس اسم شيشرون بين الأسماء الأولى من المحكوم عليهم، وذلك لأن أنطونيوس كان زوج أرملة كلوديوس، وابن زوجته لنتولس الكتالينارى

الذى قيته شيشرون فى السجن، وقد ساءه ما احتوته (فلبات) شيشرون من تجريح وطعن شديد. وعارض أوكتافيوس فى هذا ولكنه لم يستمر طويلاً فى معارضته، ذلك أنه لم يكن فى وسعه أن ينسى تمجيده لقتلة قيصر، كما لم ينس العبارة التى قالها شيشرون للمحافظين يبرر بها مغازلته لوريث قيصر وما فيها من تورية.

وحاول شيشرون الفرار ولكنه لم يتحمل دوار البحر، فغادر المركب وقضى الليل فى بيته فى فورميا، وأراد أن يقضى فيه اليوم الثانى فى انتظار مقتله، لأن ذلك فى نظره خير من البحر الهائج المضطرب، ولكن عبيده دفعوه إلى داخل هودج، وساروا به نحو السفينة، وبينما هم فى طريقهم إذ أقبل عليهم جنود أنطونيوس. وأراد العبيد أن يقاوموهم، ولكن شيشرون أمرهم أن يضعوا الهودج على الأرض ويستسلموا، ثم مد الرجل رأسه وجسمه، حتى يسهل على الجنود قطع عنقه، وكانت أوامر أنطونيوس تقضى بأن تقطع أيضاً يده اليمنى، فقطعت وجىء بها مع رأسه إليه، وضحك أنطونيوس ضحكة الفوز ووهب القتلة ٢٥٠ ألف درخمة وأمر بتعليق الرأس واليد فى السوق.

وفى أوائل عام ٤٢ ق. م عبر الحكام بقواتهم البحر الأدرياتى، واخترقوا مقدونية إلى تراقيا حيث جمع بروتس وكاسيوس آخر الجيوش الجمهورية، والتقت جيوش الطرفين المتقاتلين فى فلباى فى شهر سبتمبر من عام ٤٢ ق. م، وزحف جناح بروتس على جناح أوكتافيوس وزحزحه عن موضعه، واستولى على معسكره ولكن جيوش أنطونيوس هزمت جيوش كاسيوس هزيمة منكرة، وأمر كاسيوس حامل درعه أن يقتله ففعل.

ولم يستطع أنطونيوس أن يواصل انتصاره على الفور، لأن المرض أقعد أوكتافيوس فلزم خيمته واختل نظام جيشه، فاضطر أنطونيوس إلى إعادة تنظيم الجيش كله، وبعد أن استراح بضعة أيام قاده لقتال بروتس، وأوقع بمن

بقى من الجيوش الجمهورية هزيمة ولوا على أثرها الأدبار، ورأى بروتس رجاله يستسلمون فأدرك ـ ولعله قد سره أن يدرك ـ أنه خسر كل شىء، فألقى بنفسه على سيف صديق له ومات.

ولما أقبل أنطونيوس على جثته غطاها بثوبه الأرجوانى، فلقد كان هو وبروتس صديقين فى يوم من الأيام.

■■■

أنطونيوس وكليوباترا

أنطونيوس وكليوباترا

لقد كانت معركة فلباى آخر معركة برية للأشراف القدامى، وقد حذا كثيرون منهم (أمثال: ابن كاتو، وابن هورتنسيوس، وكونتليوس فارس، وكونتس لبيو) حذو بروتس وكاسيوس فانتحروا، وقسم المنتصرون الامبراطورية فيما بينهم، فأعطى ليدس إفريقيا، وأخذ أوكتافيوس الغرب، واختار أنطونيوس مصر وبلاد اليونان والشرق.

وكان أنطونيوس دائم الحاجة إلى المال، فعرض على مدائن الشرق ألا يؤاخذها على ما أمدت به أعداءه من المال، إذا هى أمدته بمثله أى بعشرة أمثال الضريبة السنوية فى مدى عام، وعاد إلى قديم مرحه وبشاشته حين ظن أن النصر قد أعاد إليه أمنه وطمأنينته، فأنقص مطالبه من الإفزيين حين أقبلت عليه نساؤهم فى ثياب كاهنات باخوس يحيينه ويسمينه الإله ديونيسس، ولكنه وهب طاهية بيت موظف مجنيزى كبير مكافأة له على عشاء أعده له، وعقد مجلس من أهل المدن الأيونية فى إفسوس، وأقر فيه حدود تلك الولايات وحسم ما بينها من خلاف بحكمة، لم ير معها أغسطس بعد عشرة أعوام من ذلك الوقت ما يدعو إلى تعديل ما اتخذ فى هذا المجلس من قرارات. وعفا أنطونيوس عن كل من حاربه إلا الذين اشتركوا فى مقتل قيصر، ومد يد المعونة للمدن التى لاقت العذاب على يد كاسيوس وبروتس، ورفع عنها الضرائب الرومانية وحرر كثيرين ممن باعهم المتآمرون أرقاء، كما حرر مدن سوريا من الطغاة الذين قضوا على حكومتها الديمقراطية.

وبينما كان أنطونيوس يظهر هذه الكياسة المنبعثة من طيبة قلبه وبساطة خلقه، استسلم للشهوات الجنسية استسلاماً أفقده احترام رعاياه لسلطته،

فقد حاط نفسه بالراقصات والموسيقيات والعشيقات والمهرجين والصاخبين، واتخذ له زوجات ومحظيات كلما لاحت له امرأة وأعجبته، وكان قد أرسل الرسل إلى كليوباترا يدعوها للمثول بين يديه فى طرسوس، لتجيب عما اتهمت به من مساعدتها كاسيوس على جمع المال والجنود، وجاءت كليوباترا ولكنها جاءت فى الوقت الذى اختارته، وعلى الطريقة التى اختارتها: فبينما كان أنطونيوس جالساً على عرش فى السوق العامة، ينتظر منها أن تحضر وتدفع عن نفسها ما اتهمت به، ثم يقضى لها أو عليها، ركبت هى نهر سندس فى قارب ذى أشرعة أرجوانية، وسكان (ما يجعل السفينة لانضطرب فى سيرها) مُذَهَّب، ومجاديف من فضة تضرب الماء على أنغام الناى والمزمار والقيثار، وكانت وصيفاتها هن بحارة القارب، ولكن فى زى حور البحار وربات الجمال، أما هى فقد تزينت بزى الزهرة فينوس، ورقدت تحت سرادق من قماش موشى بالذهب.

ولما انتشر بين أهلى طرسوس هذا المنظر الفتان، أقبلوا على شاطئ النهر زرافات ووحداناً، وتركوا أنطونيوس وحده جالساً على عرشه، ودعته كليوباترا إلى العشاء معها فى قاربها، فأقبل عليها ومعه حاشيته الرهيبة، فأولمت وليمة فاخرة وقدمت لهم فيها أشهى الطعام والشراب، وأفسدت القواد بما قدمت لهم من الهدايا والابتسامات. وكان أنطونيوس قد أوشك أن يقع فى حبها وهى لا تزال فتاة حين شاهدها فى الإسكندرية، فلما أبصرها فى تلك اللحظة وهى فى التاسعة والعشرين من عمرها، رآها قد اكتملت مفاتنها، وبدأ حديثه معها يلومها على ما فعلت، واختتمه بأن أهدى إليها فينيقيا وسوريا الوسطى وقبرص وأجزاء من قليقية وبلاد العرب واليهود.

وكافأته هى بما يشتهى ودعته إلى الإسكندرية فأجاب الدعوة، وقضى فى تلك المدينة شتاء بعيداً عن الهموم والأكدار (٤١ - ٤٠ ق.م)، يعب حب الملكة عباً، ويستمع إلى المحاضرات فى المتحف ناسياً أن له امبراطورية فى

حاجة إلى من يحكمها. أما هى فلم تكن أسيرة حبه، بل كانت تعرف أن مصر الغنية الضعيفة لن تلبث أن تجتذب إليها روما الشرهة القوية، وأن السبيل الوحيد لنجاة بلادها وعرشها هى أن تتزوج بسيد روما، ولقد حاولت من قبل أن تفعل هذا بقيصر، وهى تحاول الآن أن تفعله بأنطونيوس، ولم يكن له هو سياسة غير سياسة قيصر، فمال إلى تحقيق الحلم القديم، وهو توحيد روما ومصر، ونقل عاصمته إلى بلاد الشرق الفتان الجميل.

وبينما كان أنطونيوس يلهو ويلعب فى الإسكندرية، كانت زوجته فلفيا وأخوها لوسيوس يأتمران بأوكتافيوس ليسقطاه وينتزعا سلطانه على روما، والحق أن أوكتافيوس كان أبعد ما يكون عن السعادة فى ذلك البلد: فقد أضحى مجلس الشيوخ للمغامرين والقواد، ودب التذمر بين العمال المتعطلين، واختل نظام الشعب كل الاختلال، وكان سكستس بمبى يحول بين المدينة وبين استيراد ما يلزمها من الطعام، ووقف دولاب الأعمال التجارية لما ساد البلاد من خوف، وقضى النهب والضرائب الفادحة على الثروات فلم يكد يبقى منها شىء، وأخذ كثير من الناس يعيشون عيشة الاستهتار والفساد الجنسى الطليق، متحججين بأن الغد قد يأتى بإلغاء العملة أو بانتهاب جديد أو بالموت.

وكان أوكتافيوس نفسه من أبعد الناس عن طهارة الذَّيْل فى ذلك الوقت، وكأنما أرادت فلفيا وأراد لوسيوس أن يبلغا بالفوضى غايتها القصوى، فجيشا جيشاً ودعوا إيطاليا إلى القضاء على أوكتافيوس، فحاصر ماركس أجريا قائد جيوش أوكتافيوس لوسيوس فى بروزيا، حتى اضطره إلى الخروج منها بعد نفاد مؤونته (مارس عام ٤٠ ق.م) وماتت فلفيا من شدة مرضها وعدم تحقيق مطامعها، وحزنها على إهمال أنطونيوس لها، وعفا أوكتافيوس عن لوسيوس لعله بذلك يحتفظ بالسلام بينه وبين أنطونيوس، ولكن أنطونيوس عبر البحر وحاصر جيوش أوكتافيوس فى برنديزيوم، وكان الجيشان أكثر حكمة من قائديهما فامتنع كل منهما عن قتال الآخر، واضطراهما إلى أن

يسويا ما بينهما من نزاع تسوية سلمية، وتعهد أنطونيوس أن يكون حسن السلوك، فزوجه أوكتافيوس أخته أوكتافيا، وسر كل إنسان بهذه النتيجة إلى حين وتنبأ شاعر الرومان الشهير فرجيل - وكان وقتئذ يكتب نشيده الرابع - بعودة حكم زحل العادل المثالى.

وفى عام ٣٨ ق.م وقع أوكتافيوس فى حب ليفيا زوجة تيبيريوس كلوديوس نيرون، وكانت وقتئذ حاملاً، فطلق من أجلها زوجته الأولى اسكريبونيا، وأقنع نيرون بالتخلص من ليفيا وتزوج بها، واستطاع بفضل إصغائه إلى نصائحها المقنعة وصلاتها بأشراف البلاد - لأنها من سلالة أسرة كلوديوس النبيلة - استطاع بذلك أن يحسن صلاته بطبقة الملاك، فخفض الضرائب، وأعاد ثلاثين ألفاً من العبيد الآبقين إلى سادتهم، وشرع يعمل فى صبر وأناة لإعادة النظام إلى إيطاليا، وأمكنه بمعونة أجريا، وبمائة وعشرين سفينة أمده بها أنطونيوس، أن يحطم أسطول سكتس بومبى، ويستورد الطعام إلى روما، ويقضى على مقاومة البومبيين، وحمد له مجلس الشيوخ عمله، واختاره تريبوناً طول حياته.

وذهب أنطونيوس إلى أثينا مع أوكتافيا بعد أن زفت إليه باحتفال رسمى فى روما، وفى ذلك البلد استمتع أنطونيوس إلى حين بتلك المتعة الجديدة، متعة الحياة مع امرأة صالحة وتخلى عن مشاغل السياسة والحرب، وأخذ يستمع إلى محاضرات الفلسفة، وأوكتافيا إلى جانبه. على أنه كان فى هذه الأثناء يدرس الخطط التى وضعها قيصر لفتح بارثيا، وكان لبينس ابن قائد من قواد قيصر قد دخل فى خدمة ملك بارثيا، وقاد جيوشه من نصر إلى نصر فى قليقية وسوريا - وهما ولايتان من أغنى ولايات الدولة الرومانية وأعودها عليها بالمال - وألفى أنطونيوس نفسه فى حاجة إلى الجند لمواجهة هذا التهديد الخطير، كما وجد حاجة إلى المال لأداء مرتبات الجنود، والمال عند كليوباترا موفور، ومل فجأة حياة الفضيلة والسلم فأعاد أوكتافيا إلى

روما، وطلب إلى كليوباترا أن تقابله فى أنطاكية، وجاءت إليه كليوباترا بعدد قليل من الجنود، ولكنها عارضت مشروعاته الضخمة الواسعة، ويبدو أنها لم تعطه من مالها الكثير إلا النزر اليسير، وزحف أنطونيوس على بارثيا بمائة ألف جندى، وحاول عبثاً أن يستولى على قلاعها، وفقد نحو نصف رجاله فى تقهقر يدل على منتهى الجرأة والبطولة على مدى ثلاثمائة ميل فى بلاد معادية له، وضم أرمينيا إلى الامبراطورية الرومانية فى أثناء تقهقره، وأقام لنفسه موكب نصر وصدم مشاعر الإيطاليين صدمة عنيفة بإقامة هذا الموكب فى الإسكندرية، ثم أرسل رسالة طلاق إلى أوكتافيا، وتزوج كليوباترا وثبتها هى وقيصرون حاكمين معاً على مصر وقبرص، وخلع الولايات الشرقية من الإمبراطورية على ابنه وابنته من كليوباترا.

وإذ كان يعرف أنه لابد أن يُسَوِّى الأمور بينَه وبين أوكتافيوس فى القريب العاجل، فقد أطلق لنفسه العنان فى اللهو والترف، وشجعته كليوباترا على أن يغامر آخر مغامرة فى سبيل السلطة العليا، وساعدته على حشد جيش وأسطول وأقسمت له بقسمها المحبب إليها أنها واثقة من النصر وثوقها بأنها ستتولى الحكم فى الكابيتول يوماً من الأيام.

■ ■ ■

أنطونيوس وأوكتافيوس

أنطونيوس وأوكتافيوس

صبرت أوكتافيا على هجرها صبرَ الكرام، وعاشت ساكنة هادئة فى بيت أنطونيوس فى روما، تربى أطفاله الذين رزقهم من فلفيا وابنتيها منه، وكان منظرها المحزن أمام أوكتافيوس فى كل يوم وصمتها الفصيح يثيران كوامن غضبه، ويؤكدان له أنه هو وإيطاليا جميعاً مقضى عليهما إذا نجح أنطونيوس فى خططه، فأخذ يعمل على أن تدرك إيطاليا حقيقة الموقف، تدرك أن أنطونيوس قد تزوج ملكة مصر، وأن وهبها هى وأطفالها غير الشرعيين أكثر ولايات الإمبراطورية خراجاً، وأنه سيضع روما وإيطاليا بأجمعها فى المقام الثانى بعد مصر.

ولما بعث أنطونيوس برسالة إلى مجلس الشيوخ ـ وكان قد تجاهله سنين طوال ـ يقترح فيها أن يعتزل هو وأوكتافيوس الحياة العامة، وأن تعود جميع النظم الجمهورية إلى سابق عهدها، تخلص أوكتافيوس من هذا الموقف الحرج، بأن قرأ على المجلس ما ادعى أنه وصية لأنطونيوس، انتزعها هو قسراً من (العذارى الفستية) وفيها يوصى أنطونيوس بأن يكون ولداه من كليوباترا وريثيه دون غيرهما، ويأمر بأن يدفن إلى جانب الملكة فى الإسكندرية.

وكانت الفقرة الأخيرة من هذه الوصية حاسمة فى نظر المجلس، بقدر ما كان يجب أن تكون مثيرة للارتياب فى صحتها، ذلك أن أعضاء المجلس لم يسألوا أنفسهم عن منطقية أن يودع أنطونيوس فى روما وصية تشترط هذه الشروط، بل أقنعتهم الوصية، وأقنعت إيطاليا أن كليوباترا تستخدم أنطونيوس فى خططها، التى تبغى بها الاستيلاء على الإمبراطورية الرومانية. ولجأ أوكتافيوس إلى الأساليب الخداعة، التى هى من أخص خصائصه،

فأعلن الحرب على كليوباترا، لا على أنطونيوس، ليجعلها بذلك كفاحاً مقدساً فى سبيل استقلال إيطاليا.

وأبحر أسطول أنطونيوس وكليوباترا فى شهر سبتمبر من عام ٣٢ ق.م إلى البحر الأيونى، وكان مؤلفاً من خمسمائة سفينة حربية، ولم يكن أسطول بهذه القدرة قد ظهر على متن البحر من قبل، وكان يؤيده جيش مؤلف من ثلاثمائة ألف من المشاة، واثنى عشر ألفاً من الفرسان، أمدهما بمعظمه أمراء الشرق وملوكه، يرجون من وراء ذلك أن تكون هذه الحرب وسيلة للتحرر من نير روما. وعبر أوكتافيوس البحر الأدرياتى بأربعمائة سفينة، وثمانين ألف جندى من المشاة، واثنى عشر ألفاً من الفرسان وظلت القوات المتعادية عاماً أو نحو عام تستعد للمعركة الفاصلة، وتضع خططها فلما كان اليوم الثانى من شهر سبتمبر عام ٣١ ق.م، التحم الجيشان والأسطولان عند أكتيوم فى الخليج الأمبراسى، فى معركة من المعارك الحاسمة فى التاريخ، وبرهن أجريا على أنه أبرع من أعدائه فى وضع الخطط، وكانت سفنه الخفيفة أسهل وأخف حركة من سفن أنطونيوس الضخمة ذات الأبراج العالية، وقد أحرقت النار هذه السفن إذ ألقى عليها بحارة أوكتافيوس مشاعل متقدة، وأهلك الدخان بعض البحارة قبل أن تصلهم النيران، ومنهم من نضج لحمهم فى دروعهم التى احمرت من شدة اللهب، ومنهم من شوتهم النار شياً فى سفنهم كما تشوى اللحوم فى الأفران، وألقى الكثيرون منهم أنفسهم فى البحر، ومن هؤلاء من التهمتهم الحيتان، ومنهم من قتلوا رمياً بالسهام، ومنهم من قضوا نحبهم غرقاً، ولم يمت من هذا الجيش كله ميتة يستطيعون تحملها إلا من قتل بعضهم بعضاً.

ورأى أنطونيوس أن الدائرة قد دارت عليه، وأشار على كليوباترا أن تنفذ خطة الانسحاب التى اتفقا عليها من قبل، فوجهت ما بقى من أسطولها نحو الجنوب، وانتظرت قدوم أنطونيوس، ولما عجز عن إنقاذ السفينة المعقود

لواؤها له، غادرها وركب قارباً أقله إلى كليوباترا، وجلس هو وحده فى مقدم السفينة أثناء عودتهما إلى الإسكندرية ورأسه بين يديه، فقد أدرك أنه خسر كل شىء حتى الشرف.

وسار أوكتافيوس إلى أثينا ومنها إلى إيطاليا ليخمد فتنة ثارت بين جنوده الذين أخذوا يطالبون بأن يباح لهم نهب مصر، ثم رجع إلى آسيا ليعاقب بعض من انضموا من أهلها إلى أنطونيوس، وليجمع أموالاً جديدة بسعف بها المدن التى طال عليها عهد الشقاء والحرمان، ثم اتجه بعدئذ نحو الإسكندرية.

وكان أنطونيوس قد ترك كليوباترا وأقام فى جزيرة قرب فاروس، وأرسل منها رسلاً يطلب الصلح، ولكن أوكتافيوس لم يعبأ بهم، وأرسلت كليوباترا إلى أوكتافيوس على غير علم من أنطونيوس صولجاناً وتاجاً وعرشاً من الذهب، دليلاً على خضوعها له، وكان جوابه لها على حد قول ديو أنه يتركها ويترك مصر دون أن يمسها بأذى إذا قتلت أنطونيوس !!

وكتب الحاكم المهزوم إلى أوكتافيوس مرة أخرى يذكره بصداقتهما الماضية، وبكل المرح الطائش الذى اشتركا فيه أيام الصبا، وقال إنه يرضى بأن يقتل نفسه إذا عفا هو عن كليوباترا، ولم يرد عليه أوكتافيوس فى هذه المرة أيضاً، وجمعت كليوباترا كل ما استطاعت جمعه من أموال مصر فى أحد أبراج القصر، ثم أبلغت أوكتافيوس أنها ستتلف هذه الأموال كلها وتقتل نفسها إذا لم يعقد معها صلحاً شريفا، وسار أنطونيوس على رأس القوة الصغيرة التى كانت باقية لديه ليحارب عدوه فى المعركة الأخيرة، واستطاع بشجاعة اليائس أن يكسب نصراً مؤقتاً، ولكنه أبصر فى اليوم الثانى جنود كليوباترا المرتزقة تستسلم للعدو، وتراءى إليه أن كليوباترا قد ماتت فطعن نفسه طعنة قضت على حياته، ولما علم أن الخبر مكذوب، طلب إلى أتباعه أن ينقلوه إلى البرج الذى آوت الملكة ووصيفاتها إلى حجراته العليا وأغلقن عليهن الأبواب، فأدخل إليها من النافذة ومات بين ذراعيها، وسمح لها

أوكتافيوس أن تخرج من البرج وتدفن حبيبها، ثم أجاز لها المثول بين يديه، ولم يتأثر بما كان باقياً من المفاتن فى امرأة محطمة مهزومة فى التاسعة والثلاثين من عمرها، وعرض عليها شروطاً للصلح بدت معها الحياة عديمة القيمة لمن كانت من قبل ملكة، ولم يخالجها شك فى أنه يعتزم أخذها أسيرة إلى روما لتزين موكب نصره، فما كان منها إلا أن لبست ثيابها الملكية ووضعت (صلا) - نوعا من الحيات - على صدرها وماتت وحذت حذوها وصيفتاها: شارميون وإيريس فانتحرتا.

وسمح أوكتافيوس أن تدفن إلى جوار أنطونيوس وقتل هو قيصرون أكبر أبناء أنطونيوس من فلفيا، أما ابنا أنطونيوس والملكة فقد أبقى على حياتهما وأرسلهما إلى إيطاليا حيث ربتهما أوكتافيا وعنيت بهما كما لو كانا ابنيها، ووجد الظافر الخزانة المصرية سليمة وفيها من المال الموفور ما كان يحلم به، ونجت مصر من المذلة التى كادت تلحق بها لو أنها سميت ولاية رومانية، ذلك أن كل ما فعله أوكتافيوس أن جلس على عرش البطالمة وورث أملاكهم، وترك فى مصر حاكماً يدير شئون البلاد باسمه، وهكذا غلب وريث قيصر وريثة الإسكندر وضم ملك الإسكندر إلى ملكه، وانتصر الغرب على الشرق مرة أخرى، كما انتصر من قبل فى مراثون ومجنيزيا وانتهى صراع الجبابرة، وكان الفوز فيه لرجل عليل.

وقضى على الثورة فى أكتيوم كما قضى على الجمهورية فى فرسالس، وأتمت روما الدورة المشئومة التى يعرفها أفلاطون ونعرفها نحن: ملكية، فأرستقراطية، فاستغلال أولجاركي، فديمقراطية، ففوضى ثورية، فدكتاتورية، وانتهى مرة أخرى فى جَزْر التاريخ ومده، عهد من عهود الحرية، وبدأ عهد من عهود النظام.

■ ■ ■

يوليوس قيصر
فى مسيرة التاريخ

يوليوس قيصر فى مسيرة التاريخ

إنه القائد العسكرى والزعيم السياسى الرومانى المعروف.. ولد فى مدينة روما فى فترة شديدة الاضطراب السياسى والاجتماعى.

ففى القرن الثانى قبل الميلاد، وبعد انتصارات الرومان فى معاركهم ضد قرطاج فى الحرب اليونانية الثانية، أصبحت لهم امبراطورية واسعة، وكان من نتائج هذه الانتصارات أن أصبحت روما بالغة الثراء. ولكن الحروب ذاتها قد مزقت المجتمع، وحطمت معنويات الكثيرين وجردت الأغنياء من ممتلكاتهم أيضاً، كما أن مجلس الشيوخ وهو أقرب إلى مجلس حكماء المدينة قد أصبح عاجزاً عن حكم امبراطورية واسعة، فدول البحر الأبيض المتوسط التى تحكمها روما كانت تعانى من ضعف الرومان وعجزهم وفسادهم أيضاً.

وروما أيضاً فى سنة ١٣٣ ق.م وما بعدها قد ذاقت ويلات الفوضى والاضطراب والخلل الإدارى والصراع على السلطة بين الجنرالات والساسة والجماهير، وتمزقت الجيوش واتجهت كلها إلى روما تريد السيطرة المطلقة، وأمام هذه الفوضى تطلع الرومان إلى حكم جمهورى جديد.

ولذلك فقد جاء يوليوس قيصر فى موعده..اكتشف أن النظام الديمقراطى فى روما لم يعد يصلح لمواجهة هذه الفوضى وأن الحكم قد تجاوز مرحلة الأمان، ولذلك فلا يمكن إنقاذ شىء إلا بالعمل الجاد، والانتصارات العسكرية المدوية، التى تعيد لروما هيبتها ومكانتها.

وقد جعلت منه انتصاراته العسكرية فى بلاد الغال (التى تضم سويسرا وهولندا وبلجيكا وفرنسا حاليا) بطلاً عظيماً فى روما، وعندما بدأت قوته العسكرية تضعف وسيطرته تتراخى، واستدعاه مجلس الشيوخ فى روما،

طالبا منه ألا يصحب قواته، دخل يوليوس قيصر على رأس جيوشه كلها إلى مدينة روما، وقد أدى ذلك إلى قيام حرب أهلية بين قواته وبين القوات التى تساند مجلس الشيوخ، وقد استغرقت الحرب الأهلية أربع سنوات انتهت بفوز يوليوس قيصر فوزاً تاماً مؤكدا فى إسبانيا يوم ٧ مارس ٤٥ ق.م.

وقد أيقن يوليوس قيصر أنه لا يمكن إصلاح الأوضاع كلها دون أن يكون هو موجوداً فى روما يتابع الأحداث ويوجهها، ولذلك سافر إلى روما وسرعان ما اختاروه حاكماً مطلقاً مدى الحياة. وفى فبراير سنة ٤٤ ق.م قدموا له التاج، ولكنه رفض أن يكون إمبراطوراً، فالتاج لم يكن ليضيف إلى سلطته وسطوته شيئاً، إنما يضاعف خصومه السياسيين.

وفى ١٥ مارس ٤٤ ق.م اغتيل فى مجلس الشيوخ، فقد تكاثر عليه المتآمرون وأردوه قتيلاً.

وفى السنوات الأخيرة من حياته قدم برامج هائلة للإصلاح، فأعاد إلى الجيش الرومانى محاربيه القدماء، وأقام الكثير من المساكن للفقراء فى كل الإمبراطورية، وأجرى لهم رواتبهم، ونظم حياتهم ومنح الجنسية الرومانية لكثير من الأجانب، وخطط لوضع برنامج لتنظيم المجالس البلدية لكل المدن الإيطالية، ولكنه رغم هذه الإصلاحات الكثيرة لم يفلح مطلقاً فى وضع دستور ثابت لروما، وهذا هو السبب الحقيقى الذى عجل بسقوطه والقضاء عليه، وكانت الفترة قصيرة جداً بين انتصاره العسكرى فى إسبانيا وبين اختياره دكتاتوراً، ولذلك كان من الصعب علينا أن نعرف ماذا كان سيحدث فى روما لو نفذت كل هذه الإصلاحات، ولكن الشىء الباقى من بعده هو تعديل التقويم السنوى والذى بقى حتى يومنا بعد أن أُدخلت عليه تعديلات طفيفة.

ويوليوس قيصر يعتبر واحداً من أشجع الساسة فى التاريخ ومن أكثرهم موهبةً أيضاً، وكان سياسيا ناجحاً وقائداً باهراً وخطيباً بليغاً وكاتباً مبينا.

والكتاب الذى ألفه عن معارك قبائل بلاد الغال يعتبر من روائع الأعمال الأدبية، ويرى بعض الباحثين أن هذا الكتاب يعتبر من أكثر الكتب رواجاً فى كل الأدب اللاتينى القديم، وكان يوليوس جريئاً قويا ورشيقاً، وكان ذئباً فاجراً فحلاً أيضاً وأشهر غرامياته كلها حبه لكليوباترا.

وقد انتقده كثيرون، وعابوا عليه جشعه للسلطة، كما أنه استخدم نفوذه للإثراء غير المشروع. وكان فى ساحة القتال لا يعرف الرحمة ولا أخلاقيات له. وكان يبالغ كثيراً فى قيمة الخسائر التى يلحقها بمعارضيه وأعدائه، وربما كان من مظاهر الإعجاب به أن أصبحت كلمة إمبراطور فى اللغة الألمانية، وكذلك اللغة الروسية هى قيصر، وهو أشهر من ابن عمه، وأغسطس قيصر المؤسس الحقيقى للإمبراطورية الرومانية.

ربما كان الأثر الذى تركه قيصر فى التاريخ أقل بكثير جداً من شهرته الواسعة، وربما كانت أهميته ترجع إلى أنه أسقط الجمهورية الرومانية، ولكن أعظم إنجازاته حقا هو انتصاره على قبائل الغال، ثم إن الدول التى استولى عليها ظلت تحت حكم الرومان أكثر من خمسة قرون، وفى هذه الفترة تأثرت بالعادات والتقاليد واللغة الرومانية أى اللاتينية، وتأثرت بعد ذلك بالمسيحية واللغة الفرنسية الآن مأخوذة فى أكثرها من اللغة اللاتينية القديمة.

وقد أعطت انتصارات يوليوس قيصر على قبائل الغال لإيطاليا قروناً من الأمان، بل إن الانتصار على قبائل الغال كان أحد العناصر الهامة التى أمنت الإمبراطورية الرومانية كلها.

ومن أجل هذا فقط اتخذ يوليوس قيصر مكانة رفيعة بين الخالدين.

(ولماذا أيها الرجل.. إنه ليجتاز هذا العالم الضيق بخطى واسعة كأنه عملاق ضخم).. هكذا تحدث " شيكسبير " بلسان " كاسيوس " عن يوليوس قيصر.. !!

الواقع أن الرومان اجتازوا العالم بخطى واسعة حقا.. إنه القائد الذى مد سلطة روما إلى الشمال.. وكان هو الإمبراطور الذى خلق الإمبراطورية الرومانية.. وقد شكلت قوة أعماله مدنية أوروبا بعدة طرق.. وستبقى أعماله ما بقيت تلك المدنية..

تهكم " هاملت " أحد أبطال شكسبير على قيصر.. بقوله: " مات الامبراطور قيصر وتحول إلى تراب "!..!بيد أنه رغم ترابه الفانى فقد خلدت أعمال قيصر.. !!

كان قيصر يفضل أن يكون الأول فى قرية على أن يكون الثانى فى روما.. و لكن قدر له أن يكون الأول فى روما نفسها.. وأن يطلق عليه لقب الشرف: "أبو الوطن ".. ولو كان أقل طموحا لأخذت مدنية أوروبا صورة غير التى هى عليها الآن.. !!

هذا الرجل ادعى قرابته للآلهة الوثنية.. وفى أوج عظمته.. كانوا يعتبرونه كأحد تلك الألهة.. لقد مد حدود الإمبراطورية الرومانية شمالا وغربا.. وترك فى التاريخ أثرا لا يمحى.

وتتجلى قصة أعماله فى أنه بعد قرون.. تدفق مبشرو روما يسيرون فى نفس الطرق التى سارت فيها العصابات.. وعلى نهج نفس الأسس التى رسمها ذلك لنبوغ الوثنى.. وكونوا ذلك الهيكل فى أوروبا.. هيكل المسيحية..!!

وقبل مولده فى عام ١٠٢ ق. م.. وفى نفس الشهر يوليو الذى أخذ اسمه تكريما له.. كان يدور نضال من أجل السيادة.. فى مراكز المدينة على سواحل البحر المتوسط..

لقد ترك الإغريق آثارهم فى البشرية.. بالفتوحات وبالتقدم المدهش فى الفلسفة والأدب والفنون.. وبرز القرطاجنيون كأمة تجارية يحكمها التجار وأصحاب رؤوس الأموال.. وكانوا يتطلعون دوما إلى السيادة والسلطان.. فى

تلك الأثناء.. بدأ المستوطنون الذين تدفقوا على أرض إيطاليا القديمة للنفع.. يتعلمون ويستوعبون كل ما يمكنهم أن يتعلموه من السياح والتجار الأغارقة.. وبذا أصبحوا تدريجيا.. مصدر مضايقات لجيرانهم الأثرياء.. !!

هكذا وعلى إثر تلك التحولات التى عرفها مجتمع روما.. برز يوليوس قيصر كزعيم للمجتمع الإيطالى مستمدا قوته من كبريائه التى كانت نتيجة اعتقاده وإيمانه بأن له صلة بالآلهة.. ذاك الاعتقاد الذى منحه أثرا قويا فى حياته..حيث بدأ يعتقد أن قوته فوق قوى البشر فعلا، ومن هنا كانت نهايته !

■ ■ ■

التقويم اليوليانى

التقويم اليوليانى

ينسب وضع التقويم الرومانى إلى روميولس Romulus منشئ مدينة روما (حوالى ٧٥٣ق.م) وكان هذا مبدأ للتاريخ فى التقويم الرومانى إلى أن عدل فى عهد يوليوس قيصر - كما سيأتى - وقد كانت الشهور الرومانية عشرة أشهر هى:

(١) مارس (- Mars إله الحرب عند الرومان).

(٢) أبريل (منسوب إلى معبودة عند الرومان هى April وهى التى تتولى فتح الأزهار وفتح أبواب السماء لتضىء الشمس بعد خمودها فى فصل الشتاء).

(٣) مايو (منسوب إلى المعبودة مايا Maia وهى ابنة الإله أطلس Atlas حامل الأرض وأم الإله عطارد Mercury خادم الآلهة عند الرومان).

(٤) يونية (ينسب إلى المعبودة جونو Junoزوجة المشترى).

(٥) كوينتيلس (Lis - ti - Quinبمعنى الخامس باللغة اللاتينية).

(٦) سكستيلس (Lis - ti - Sexبمعنى السادس).

(٧) سبتمبر (بمعنى السابع).

(٨) أكتوبر (بمعنى الثامن).

(٩) نوفمبر (بمعنى التاسع).

(١٠) ديسمبر (بمعنى العاشر).

وفى عهد قيصر تم تعديل عدد شهور السنة لتصبح اثنى عشر شهرا

بدلا من عشرة شهور وذلك بإضافة شهرى يناير وفبراير فى مبدأ العام فى التقويم الرومانى، بعد أن كان مارس هو مبدأ العام، وبذلك أصبحت الشهور (سبتمبر - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر) لا يدل معناها على ترتيبها الحقيقى بين شهور السنة ؛ فمثلا سبتمبر الذى معناه السابع لا يدل على ترتيبه الحقيقى بين الشهور فهو الشهر التاسع، وكذلك أكتوبر ونوفمبر وديسمبر أصبحت لا تدل أسماؤها عل ترتيبها الحقيقى بين شهور السنة، وهو خطأ أبدى ما لم يعدل ترتيب الشهور أو يتم تغيير أسمائها. أما الشهران المضافان وهما يناير وفبراير فالأول (يناير) ينسب إلى الإله يانوس Janus عند الرومان وهوحارس أبواب السماء وإله الحرب والسلم، وكانوا يتصورونه على هيئة إنسان ذى وجهين ينظران فى اتجاهين مختلفين، ومن هذا نشأت تسمية أول شهور السنة باسمه. ففى مبدئه يلقون نظرة على الماضى مودعين ويتطلعون إلى العام القادم مستبشرين. وكان معبد ليانوس يفتح أيام الحرب ويغلق أيام السلم، وبه ١٢ بابا بعدد شهور السنة.

أما فبراير فهو مشتق من الاسم فبرورا Februra بمعنى التطهير والتنظيف وكان الرومان يقيمون فى اليوم الخامس عشر من هذا الشهر عيدا يتطهرون فيه روحيا من الذنوب والخطايا ويكفرون عنها وينظفون فيه مساكنهم وأثاثهم، وقد انتقلت هذه العادة إلى كثير من الدول الأوروبية باسم تنظيف الربيع Cleaning Spring ومازالت متبعة حتى الآن.

وباستعراض أسماء الشهور نجد أن الشهر المسمى كوينتيلس - بمعنى الخامس - قد تغير اسمه إلى يوليو تعظيما ليوليوس قيصر وتخليدا لذكراه وكان ذلك سنة ٤٤ ق.م. ثم وافق مجلس الشيوخ فى سنة ٨ ق.م على تغيير اسم الشهر المسمى سكستيلس (بمعنى السادس) إلى أغسطس تكريما للقيصر أوغسطس Augustus ورفض الرومان ومجلس الشيوخ بشدة تغيير أسماء الشهور الأربعة الأخيرة (سبتمبر - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر)

لاعتقادهم بأنه لن يأتى بعد أوغسطس معبود أو مخلوق جديد بأن يسند اسمه إلى أحد هذه الشهور وبقيت هذه الشهور بأسمائها التى لا تدل على موقعها من السنة كما هى دون تغيير.

ينسب التقويم اليوليانى إلى يوليوس قيصر الذى استدعى سوسيجينيس (Sosigenenes) الفلكى المصرى من الإسكندرية وطلب منه أن يضع نظاما ثابتا للتقويم فألغى العمل بالسنة القمرية واستخدم السنة الشمسية جاعلا طولها ٣٦٥ يوما بحيث تكون ٣٦٥ يوما فى ثلاث سنوات متتالية - وتسمى سنين بسيطة - و٣٦٦ يوما كل سنة رابعة - وتسمى سنة كبيسة. وجعل الشهور الفردية فى الترتيب ٣١ يوما والزوجية ٣٠ يوما عدا فبراير الذى يكون ٢٩ يوما فى السنين العادية (البسيطة) و٣٠ يوما فى السنين الكبيسة. ثم عدل مجلس الشيوخ الرومانى (Senate) اسم الشهر كونتيلس إلى يولية سنة ٤٤ ق.م - كما تقدم - تكريما ليوليوس قيصر الرومان وتخليدا لذكراه، كما تم تعديل اسم شهر سكستيلس إلى أغسطس فى سنة ٨ ق.م تكريما للقيصر أوغسطس وهو اللقب الذى اتخذه أوكتافيوس بعد انتصاره على أنطونيو فى موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق.م. ومن المفارقات التاريخية الجديرة بالذكر ملاحظة الرومان أن شهر يوليو المنسوب إلى يوليوس قيصر يحتوى على ٣١ يوما بينما الشهر المنسوب لأوغسطس أعظم القياصرة قاطبة لدى الرومان يحتوى على ٣٠ يوما وفى هذا تفضيل للأول على الثانى فجعل الرومان شهر أغسطس ٣١ يوما وأنقص فبراير يوما واستلزم هذا التغيير توالى ثلاثة أشهر بكل منها ٣١ يوما هى يولية وأغسطس وسبتمبر، ولعلاج هذه الحالة اعتبر كل من سبتمبر ونوفمبر ٣٠ يوما وكل من أكتوبر وديسمبر ٣١ يوما وبهذا أخذت الشهور أسماءها وعدد أيامها الحالى. وتعتبر السنة الكبيسة عادة فى التقويم اليوليانى إذا قبلت القسمة على ٤ وتعتبر بسيطة إذا لم تقبل القسمة على ٤ وفى حالة السنة الكبيسة يضاف يوم إلى شهر

فبراير ٢٩ يوما بدلا من ٢٨ يوما فى السنوات البسيطة.

وقد ظل التقويم اليوليانى معمولا به حتى القرن السادس عشر الميلادى،حتى ظهر التقويم الجريجورى،المعمول به فى معظم دول العالم حاليا - ويسمى بالتقويم الميلادى - وهو ينسب إلى البابا جريجورى Gregory الثالث عشر، ويعتبر هذا التقويم فى الحقيقة تعديلا للتقويم اليوليانى الذى اعتبر السنة الشمسية ٣٦٥,٢٥ يوما فى حين أن السنة الشمسية تبلغ ٣٦٥,٢٤٢٢ يوما؛ فالأولى تزيد على الثانية بقدر ١١ دقيقة و١٤ ثانية وبتوالى السنين يزداد هذا الفرق. وقد لاحظ البابا جريجورى Gregory أن الاعتدال الربيعى الحقيقى وقع فى اليوم الذى اعتبرته النتيجة اليوليانية ١١ مارس، فكان الخطأ قد بلغ عشرة أيام وذلك فى عام ١٥٨٢ بعد أن كان الاعتدال الربيعى قد وقع فى ٢١ مارس سنة ٣٢٥ ميلادية. وقد استدعى جريجورى الفلكى الراهب كريستوفر كلايفوس Clavius Christopher وعهد إليه بهذا الأمر، فحسب كلايفوس الخطأ بين السنتين اليوليانية والشمسية فوجده يبلغ نحو ثلاثة أيام كل ٤٠٠ سنة والأيام الثلاثة هى زيادة فى السنين اليوليانية على السنين الشمسية فى هذه الفترة. ولهذا قرر كلافيوس أن يستقطع ثلاثة أيام من كل ٤٠٠ سنة؛ وذلك باعتبار السنين المئوية بسيطة إلا ما كان منها قابلا للقسمة على ٤٠٠ فتكون كبيسة. وعلى هذا فالسنون الكبيسة فى التقويم الجريجورى هى التى تقبل القسمة على ٤ ما عدا السنين المئوية (القرنية) فلا تكون كبيسة إلا إذا قبلت القسمة على ٤٠٠. فمثلا السنون ١٥١٢، ١٣٢٤، ١٢٠٤ كبيسة فى التقويمين اليوليانى والجريجورى والسنون ١٥٠٠، ١٧٠٠، ١٩٠٠ تعتبر بسيطة فى التقويم الجريجورى وكبيسة فى التقويم اليوليانى. والسنون ١٢٠٠، ١٦٠٠، ٢٠٠٠ كبيسة فى التقويمين.

فى سنة ١٥٨٢ زاد التاريخ الجريجورى على التاريخ اليوليانى بقدر ١٠ أيام، وفى سنة ١٦٠٠ ظل الفرق ثابتا فى هذا القرن لأن هذه السنة كبيسة

فى التقويمين، أما سنة ١٧٠٠ صار الفرق ١١ يوما بزيادة يوم واحد لاعتبار هذه السنة كبيسة فى التقويم اليوليانى بسيطة فى التقويم الجريجورى ويتكرر هذا فى سنتى ١٨٠٠، ١٩٠٠ فيصبح الفرق ١٣ يوما فى القرن العشرين يزيد بها التاريخ الجريجورى على التاريخ اليوليانى. فمثلا الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ جريجورى يوافق الأربعاء ١٠ يوليوسنة ١٩٥٢ يوليانى، ويوم الخميس ٢٨ مارس سنة ١٩٤٠ جريجورى يوافق الخميس ١٥ مارس سنة ١٩٤٠ يوليانى. وقد بدأ العمل بالتاريخ الجريجورى يوم الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ يوليانى واعتبر هذا اليوم هو الجمعة ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ جريجورى لتصحيح موقع الاعتدال الربيعى وجعله ٢١ مارس بدلا من ١١ مارس من نفس العام كما تقدم، ولتعويض فرق العشرة الأيام، وقد بادرت بعض الدول فقلدت روما فى استعمال التقويم الجريجورى (الميلادى) ثم شاع استخدامه فى كثير من دول العالم. أما فى مصر فقد طبق سنة ١٨٧٥ فى عهد الخديوى إسماعيل. وفى وقتنا الحاضر فقد أصبح التقويم الجريجورى شائعا فى كل الدول. ومازال هناك فرق بين السنة الجريجورية والسنة الشمسية مقداره ٢٦ ثانية تزيد بها السنة الجريجورية (٢٤٢٥،٣٦٥) عن السنة الشمسية (٣٦٥,٢٤٢٢) أو ٣٦٥,٢٤٢٥ - ٣٦٥,٢٤٢٢ = ٠,٠٠٠٣ من اليوم، ويبلغ الفرق يوما كاملا فى نحو ٣٣٠٠ سنة يمكن علاجه بإنقاص يوم من هذه الفترة وذلك بجعل سنة ٤٠٠٠ سنة بسيطة.

تجميل روما:

إلى جانب هذا وكما ذكرنا اتخذ خطوات نحو تجميل روما، فجمل لها أسواقها الفسيحة، وأنشأ أول مكتبة عامة فى روما، وشيد معابد، كما وسع ميناء أوستيا، وميناء روما، وبدأ تجفيف المستنقعات وبناء الطرق وما إلى ذلك من إصلاحات.

شيفرة قيصر

من إبداعات قيصر الخالدة، الشيفرة التى كان يستعملها فى رسائله العسكرية المهمة، والتى تنسب إليه لليوم، وما زالت تستخدم لليوم فى ألعاب الطفال كشفرة بسيطة..

كانت الطريقة البسيطة التى تقوم عليها الشيفرة هى زحزحة حروف الكلمات المكتوبة ثلاث خطوات للخلف فى الترتيب الأبجدى، فإذا أراد مثلا كتابة كلمة (fire) الإنجليزية التى تعنى النار، فإنها تصبح (iluh ويم) كن للقارىء أن يتوصل لكلمة (fire) بأن يزحزح حروف كلمة (iluh) ثلاثة حروف للخلف فى الترتيب الأبجدى، وهكذا..

وبهذه الطريقة استطاع قيصر أن يحمى أسراره الحربية فى حروبه وغزواته، وأن يسجل للتاريخ فكرة الشفرة، التى تستخدم اليوم بشكل أكثر تعقيداً، خاصة فى أعمال أجهزة المخابرات، والتنظيمات السرية، والجيوش النظامية.

استخدم أوكتافيوس شيفرة خاصة به أيضا، ولعله تعلم الفكرة من خاله قيصر، وكانت طريقة أوكتافيوس تتلخص فى استبدال الحرف الحقيقى بالحرف اللاحق له فى الأبجدية، فإذا أراد القارىء رد الرسالة لأصلها قام باستبدال كل حرف بالحرف الذى يسبقه فى الترتيب الأبجدى، ولكن تبقى شيفرة قيصر هى الأسبق، وأول ما سجله التاريخ فى هذا المجال..

■■■

هل أحرق قيصر مكتبة الإسكندرية ؟

هل أحرق قيصر مكتبة الإسكندرية ؟

أرجع البعض إحراق مكتبة الاسكندريه ليوليوس قيصر، وأحد أهم اسانيد هذا الادعاء هو ما دونه يوليوس قيصر نفسه فى كتابه Alexandrian War من أن النيران التى أشعلها جنوده لإحراق الأسطول المصرى الموجود فى ميناء الإسكندرية قد امتدت لتلتهم مخزنا مليئا بأوراق البردى يقع قريبا من الميناء.

ولكن من الدراسة الجغرافية لموقع مكتبة الإسكندريه فى حى بروخيون Bruchion بعيدا عن الميناء، يتضح أن هذا المخزن يستحيل أن يكون المكتبة. كما أن شبهة حرق يوليوس قيصر لمكتبة الاسكندرية من السهل دحضها من خلال قراءة كتاب Geography للمؤرخ سترابو Strabo الذى زار الإسكندريه حوالى سنة ٢٥ ق.م. والذى يستمد مادته العلمية من المصادر التاريخية التى كانت موجودة فى مكتبة الإسكندرية فى ذلك الوقت. وبالإضافة لذلك فإن سيسرو Cicero أشهر مؤرخى الإمبراطورية الرومانية والذى عُرف بعدائه الشديد ليوليوس قيصر، لم يذكر إطلاقا واقعة إحراق يوليوس قيصر لمكتبة الإسكندرية فى كتابه الشهير Philippics مما يعد دليلا إضافيا على براءة يوليوس قيصر من تلك التهمة.

ورغم ذلك فإن بعض المؤرخين يتفقون على أن يوليوس قيصر هو بالفعل من قام بإحراق مكتبة الإسكندرية. وأحد هؤلاء المؤرخين هو بلوتارخ Plutarch فى كتابه Life of Caesar الذى كتبه فى نهاية القرن الأول الميلادى، والذى ذكر فيه أن مكتبة الإسكندرية قد احترقت بفعل الحريق الذى بدأه يوليوس قيصر لتدمير الأسطول المصرى المرابط فى ميناء الاسكندريه. وفى القرن الثانى الميلادى، وفى كتابه Attic Nights، يذكر المؤرخ الرومانى اولوس جليوس

Aulus Gellius أن المكتبة الملكية السكندرية قد أُحرقت بطريق الخطأ عندما أشعل بعض الجنود الرومان التابعون ليوليوس قيصر بعض النيران. وفى القرن الرابع يتفق المؤرخان الوثنى اميانوس مرسلينوس Ammianus Mar-cellinus والمسيحى اوروسيوس Orosius على أن مكتبة الاسكندرية قد أُحرقت خطأً بسبب الحريق الذى بدأه يوليوس قيصر. ولكن فى الغالب هنا أن هؤلاء المؤرخين قد خلطوا بين الكلمتيّن اليونانيتيّن bibliothekas بمعنى مجموعة من الكتب و bibliotheka بمعنى مكتبة، وعلى هذا فقد ظنوا أن ما كُتب سابقا عن حرق بعض الكتب القريبة من الميناء والموجودة فى بعض المخازن هو حرق لمكتبة الإسكندرية الشهيرة.

وعلى هذا، وبالنظر لما كتبه المؤرخون الرومان السالف ذكرهم، فمن المرجح أن المكتبة الملكية للإسكندرية قد أُحرقت بعد زيارة سترابو للمدينة حوالى ٢٥ ق.م. ولكن قبل بداية القرن الثانى الميلادى، وإلا ما كان هؤلاء المؤرخون قد ذكروا حادثة حرقها ونسبهم إياها خطأً ليوليوس قيصر. والنتيجة هى أن المكتبة قد دُمرت فى الغالب بفعل شخص آخر غير يوليوس قيصر، ولكن الأجيال التالية للحادثة اعتادت الربط بين الحريق الذى وقع فى الإسكندرية إبان وجود يوليوس قيصر فيها وبين إحراق المكتبة.

ولكن من المعروف أن مكتبة الإسكندرية الملكية - أو المتحف كما كان يُطلق عليها حيث كانت تضم أصول العديد من أمهات الكتب فى العالم - لم تكن المكتبة الوحيدة الموجودة فى مدينة الإسكندرية، بل كانت هناك مكتبتان أخريان على الأقل: مكتبة معبد السيرابيوم ومكتبة معبد السيزاريون. واستمرار الحياة الفكرية والعلمية فى الإسكندرية بعد تدمير المكتبة الملكية، وازدهار المدينة كمركز العلوم والآداب فى العالم ما بين القرن الأول الميلادى والقرن السادس الميلادى، قد إعتمدا على وجود هاتين المكتبتين وما احتوتاه من كتب ومراجع. ومن الموثق تاريخيا أن المكتبة الملكية كانت مكتبة خاصة

بالأسرة المالكة وبالعلماء والباحثين، بينما كانت مكتبا السيرابيوم والسيزاريون مكتبتيّن عامتيّن مفتوحتيّن أمام عامة الشعب. ويعود الفضل فى إنشاء المكتبة الملكية لبطليموس الثانى فيلادلفيوس بينما أسس ابنه بطليموس الثالث معبد السيرابيوم والمكتبة الملحقة به. ولاحقاً عُرفت مكتبة السيرابيوم باسم المكتبة الابنة Daughter Library وبينما كان موقع المكتبة الملكية فى حى بروخيون Bruchion الملكى بالقرب من القصور والحدائق الملكية، فقد كانت مكتبتا السيرابيوم ومعبد السيرابيوم الذى للإله سيرابيس فى حى راكوتيس Rhakotis الشعبى. وبينما حوت المكتبة الملكية النسخ الأصلية لمعظم كتب العالم، فقد كان من المعتاد وضع نسخ من تلك الأصول فى مكتبة السيرابيوم.

وبعد إحراق المكتبة الملكية صارت مكتبة معبد السيرابيوم، الأكبر حجما من مكتبة معبد السيزاريون، المكتبة الرئيسية لمدينة الإسكندرية. وأول إشارة تاريخية لتلك المكتبة كانت فى كتاب The Apology للعلامة المسيحى ترتليان Tertullian، حيث يذكر أن مكتبة البطالمة محفوظة فى مكتبة السيرابيوم، وأن من ضمن ما تحتويه من كتب نسخة للعهد القديم يذهب يهود الإسكندرية لسماعها تُقرأ فى المكتبة. وإذا اعتبرنا أن مكتبة البطالمة هى المكتبة الملكية، فيمكن القول بأن ما تم إنقاذه من كتب أصلية من مكتبة الإسكندرية الملكية قد تم نقله لمكتبة السيرابيوم لتوضع بجانب النسخ التى كانت موجودة بالفعل فى تلك المكتبة الابنة. وهذا التحليل مدعم بما هو مذكور فى رسالة ارستياس (Letter of Aristeas كاتب سكندرى يهودى) والتى يرجع تاريخ كتابتها لنهاية القرن الأول الميلادى، من أن مخطوطات المكتبة الملكية قد نُقلت لمكتبة السيرابيوم. وفى عام ٣٧٩ م. يعود القديس يوحنا ذهبى الفم لذكر مكتبة السيرابيوم فى كلامه الموجه للأنطاكيين من أن مكتبة السيرابيوم تحوى نسخة العهد القديم التى أمر بطليموس الثانى فيلادلفيوس بترجمتها من العبرية لليونانية.

ثم فى عام ٣٩١ م. قام بعض مسيحيو الإسكندرية بتدمير معبد السرابيين الوثنى وبناء كنيسة فوق أنقاضه. ولكن تدمير السرابيين لم يطل مكتبته وذلك فى الغالب لاحتوائها على العديد من أمهات الكتب المسيحية واليهودية بالإضافة للكتب العلمية الأخرى والتى كانت محل اهتمام العديد من العلماء الوثنيين والمسيحيين على السواء. وحتى نهاية القرن السادس الميلادى نجد العديد من الإشارات التاريخية لوجود مكتبة السيرابيوم فى الإسكندرية، ومن تلك الإشارات وصف الفيلسوف السكندرى امونيوس Ammonius لتلك المكتبة ولما حوته من كتب، مثل نسختيّن لكتاب المصنفات Categories لأرسطو.

■■■

ملحق الصور



يوليوس قيصر فى شبابه



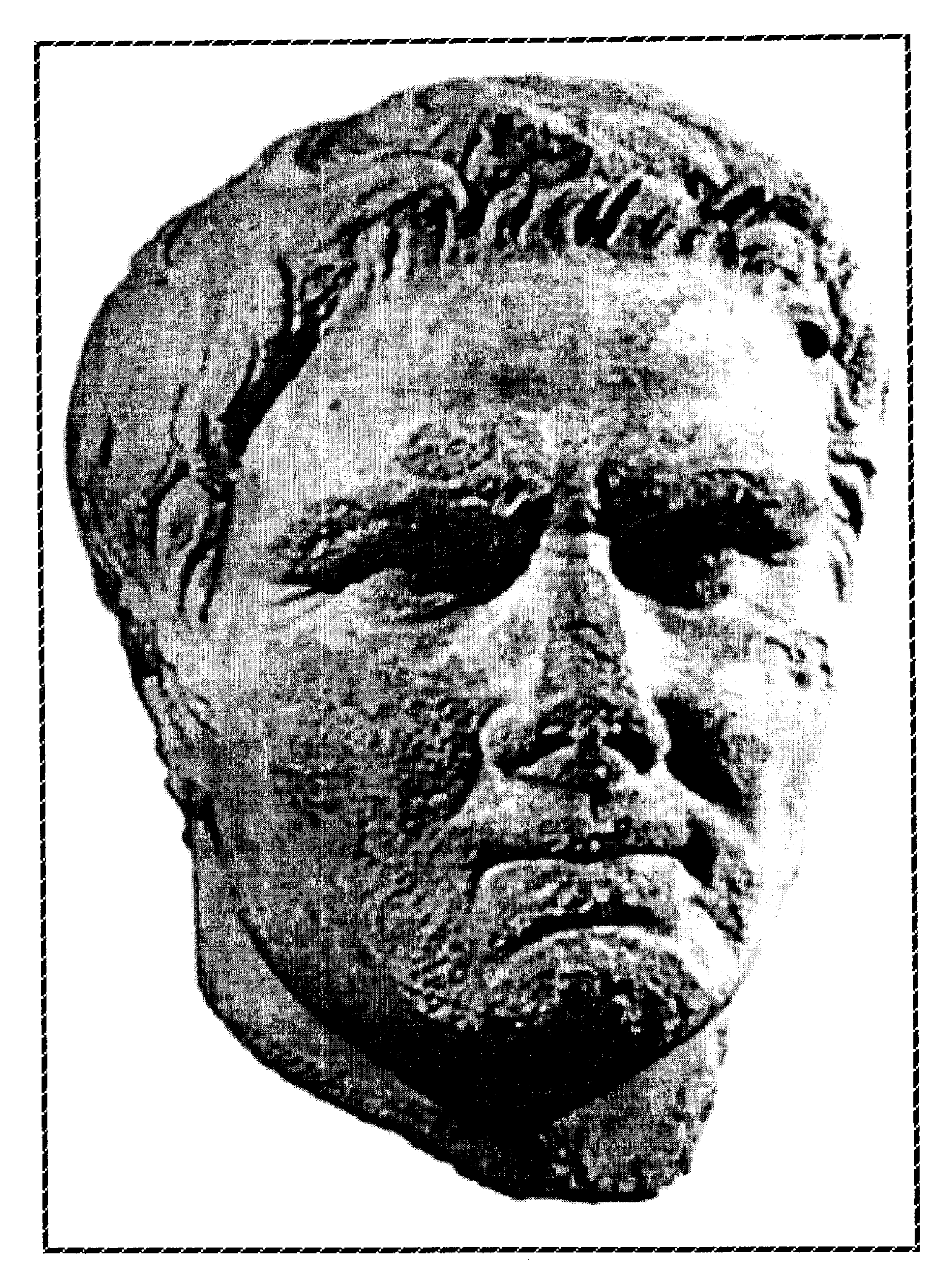
يوليوس قيصر جنرال



تمثال نصفى ليوليوس قيصر



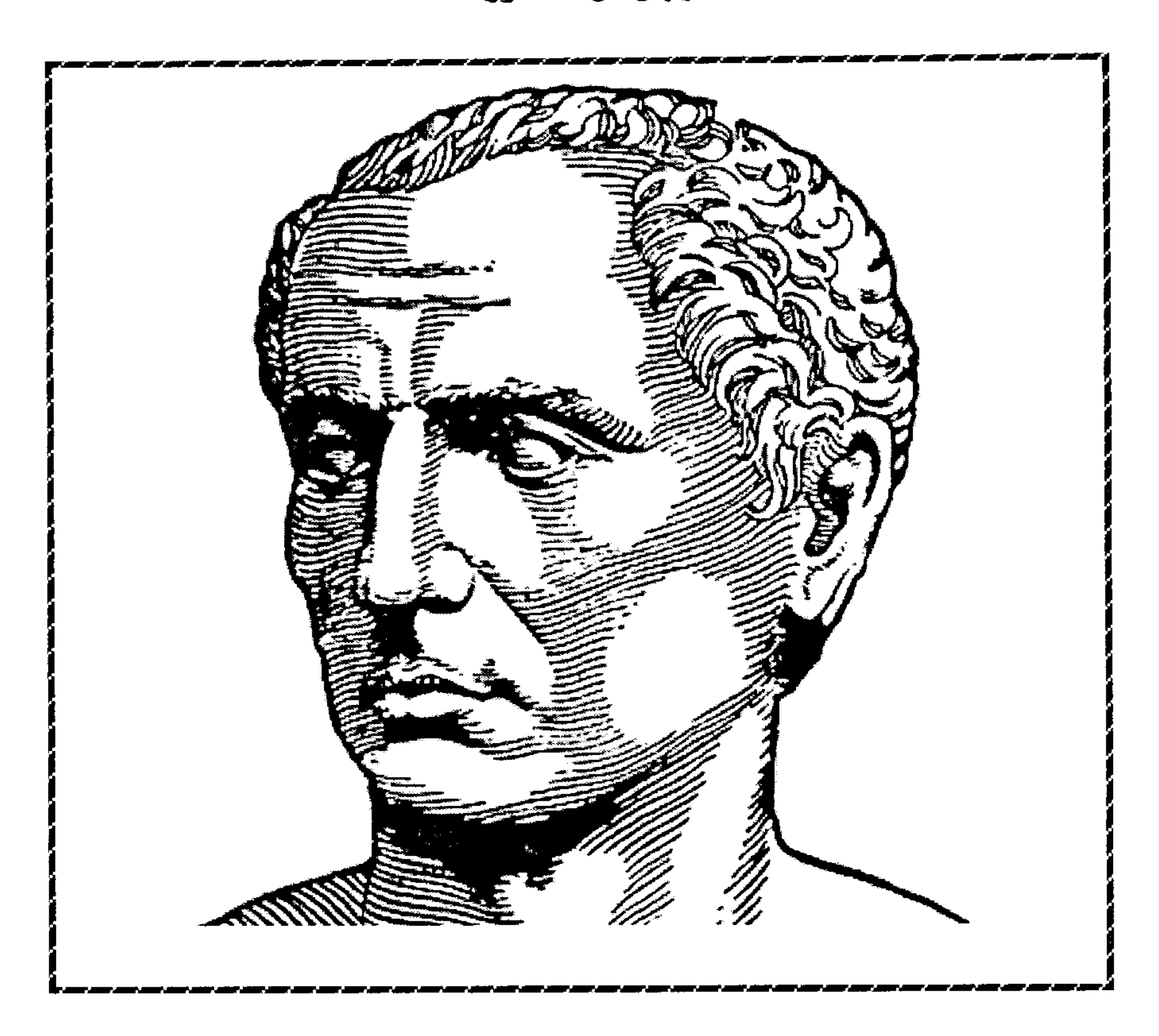
كليوباترا



رأس حجري قديم لقيصر



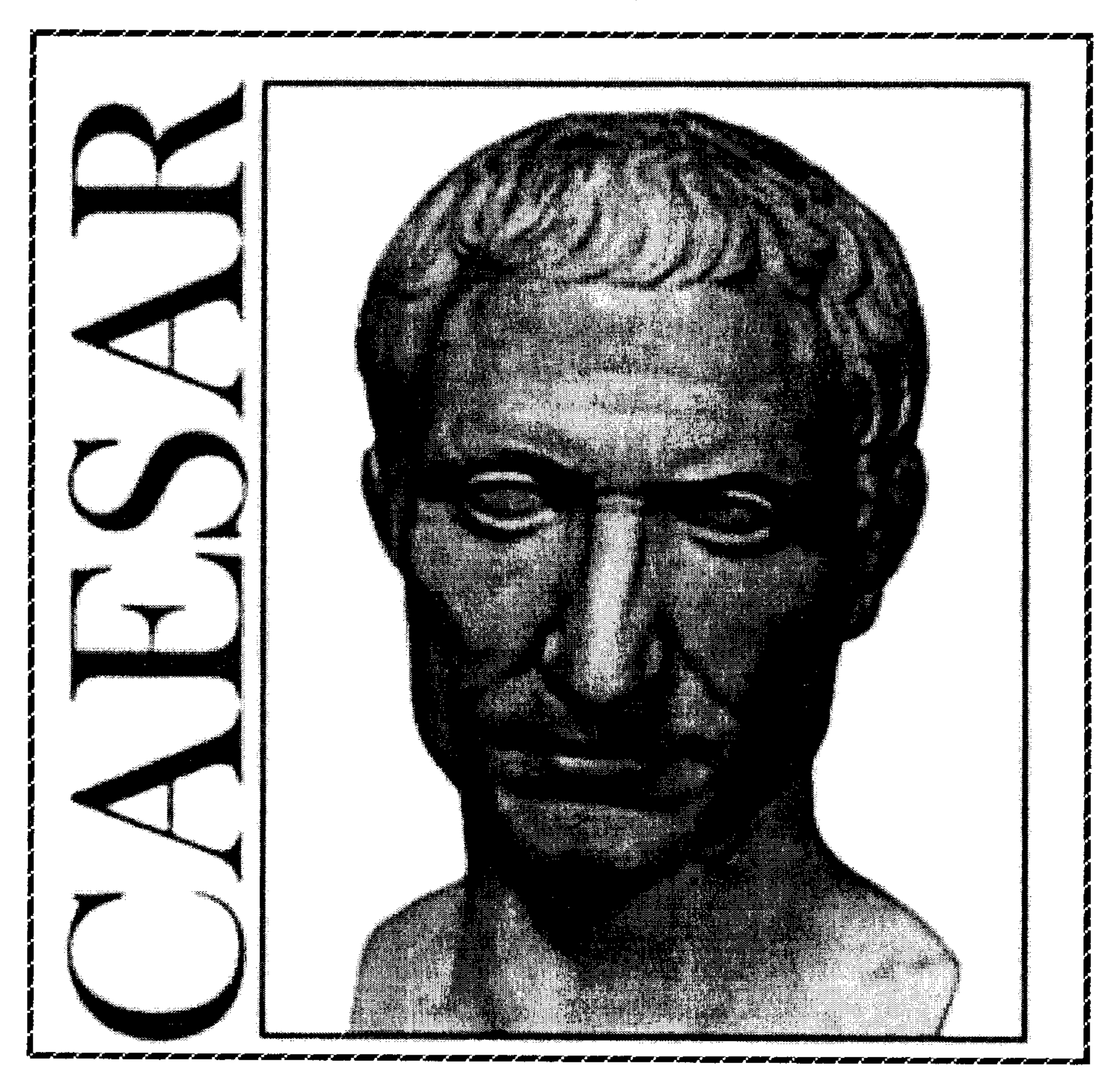
عمله فى عهد قيصر

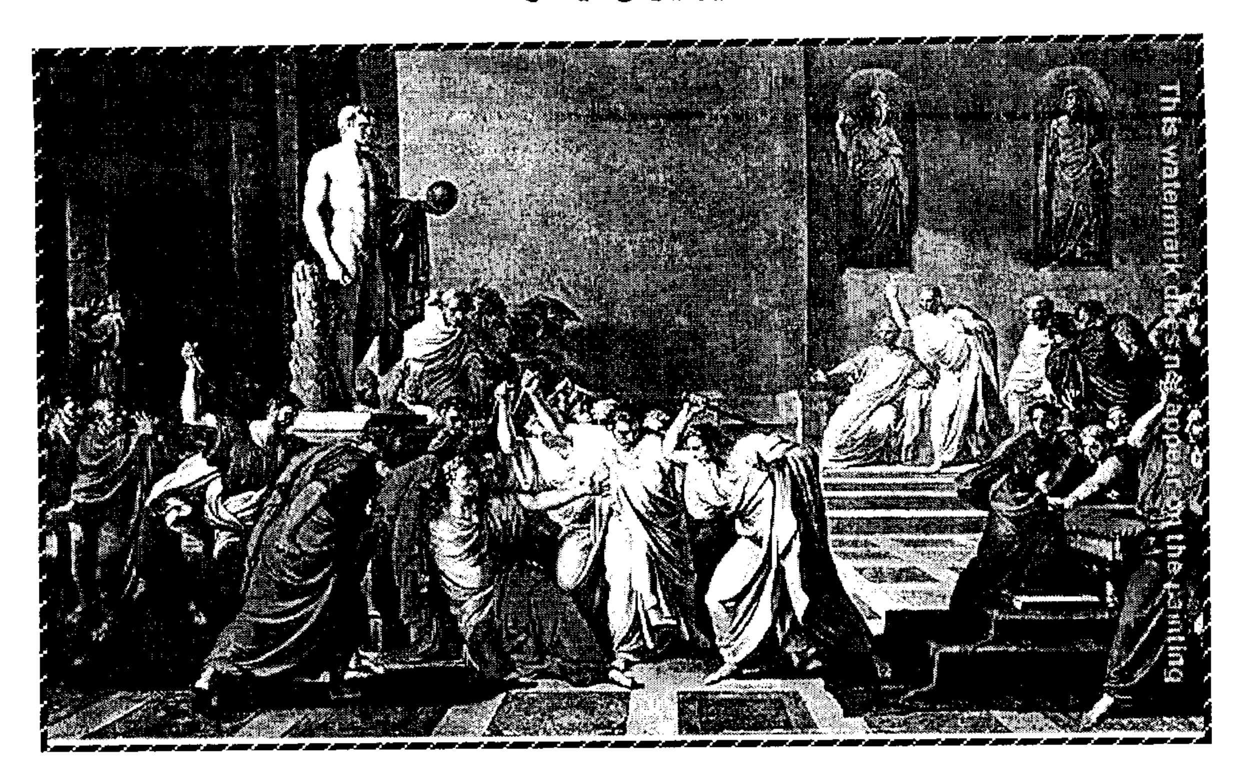


رسم تاريخي ليوليوس قيصر



يوليوس قيصر على عملة روما


CAESAR



اغتيال قيصر



قيصر فى ساحة الوغى

المصادر والمراجع

١- ركس وارنر: قيصر الصغير، ترجمة رشدى السيسى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٣.

٢ - كليمنت وود: يوليوس قيصر حياته وأعماله، ترجمة: محمد على كمال الدين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٩٥٩١ .

٣ - بيتى راديس: فتح بلاد الغال - يوليوس قيصر، ترجمة: على زيتون، دار علاء الدين، دمشق - سوريا، ٢٠٠٧.

٤ - ول ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الخامس (٩ - ١٠) قيصر والمسيح، ترجمة محمد بدران، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١.

٥ - مصطفى العبادى: الامبراطورية الرومانية - النظام الامبراطورى ومصر الرومانية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٦.

٦ - ر. هـ. بارو: الرومان، سلسلة الألف كتاب، ترجمة عبدالرازق يسرى، راجعه: دكتورة سهير القلماوى، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٦٨.

٧ - و. ج. دى بورج: تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة: زكى سوس، راجعه: دكتور يحيى الخشاب ودكتور صقر خفاجة، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦٥.

٨ - توماس هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، ١٩٨٦.

٩ - ليونارا هرنبلو: كليوباترا أميرة الحرب والحب، ترجمة: حسام أبو سعدة، دار مشارق، القاهرة، ٢٠٠٩.

- مواقع عربية وأجنبية على شبكة الانترنت الدولية.

فهرس المحتويات